ستصير سارا بينبرو هَوَسك الجديد
هارلَن كوبن

SARAH PINBOROUGH

سارا بينبرو

أرق

مكتبة 1620

INSOMNIA

من كاتبة الرواية الأكثر مبيعًا - وراء عينيها

رواية | ترجمة: شيرين هنائي

عصير الكتب

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa

لن ننسى تشرين .. 23

لن ننسى غزة والشهداء

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: Insomnia
- العنوان العربي: أرق
- طُبِع بواسطة: HarperCollinsPublishers 2022
- حُقوق النشر: copyright © Sarah Pinborough, 2022
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- ترجمة: شيرين هنائي
- تحرير: محمد الجيزاوي
- تدقيق لغوي: نهال جمال
- الطبعة الأولى: يناير/ 2023م
- رقم الإيداع: 2022/29083م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-193-8

مكتبة
t.me/soramnqraa

ستصير سارا بينبرو هوَسك الجديد
هارلن كوبن

SARAH PINBOROUGH

سارا بينبرو

مكتبة 1620

أرق

INSOMNIA

من كاتبة الرواية الأكثر مبيعًا - وراء عينيها

رواية | ترجمة: شيرين هنائي

عصير الكتب

إلى جيسيكا بورديت

المنتجة، صانعة الأحلام، رفيقة مُعاناة الأرق.

شكرًا جزيلًا على كل شيء.

لم تسكن المسوخ قط تحت فراشي..
لأنها تسكن عقلي.

نيكيتا جيل.[1] - المسوخ.

الصدمة هي مسافر عبر الزمن، أوروبوروس[2]
يعود إلى الماضي ويلتهم كل شيء جاء قبله!

هونوت دياز[3]- جريدة نيويوركر- أبريل 2018

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) شاعرة آيرلندية تحمل الجنسية الهندية، تكتب الشعر عبر مواقع التواصل الاجتماعي بشكل أساسي على هيئة أبيات قصيرة.

(2) أفعى تلتهم ذيلها، وهو رمز قديم ذو أصل مصري.

(3) خونوت أو هونوت دياز كاتب ومحرر أمريكي حائز عدة جوائز مهمة ويهتم بشؤون المهاجرين اللاتينيين.

مقدمة

برزت السيارة الثانية من العدم. لم يكن هناك صرير مكابح مُحذِّر، ولا حتى نظرة ذهول جانبية عبر النافذة، فقط دويُّ ارتطام المعدن بالمعدن، انفجار طاقة، سيمفونية كارثية.

كان الصدام هائلًا حتى إن الزجاج قد تحطم فورًا، وتشتَّت كوابلٍ قاصِف. تموَّج هيكل السيارة المعدني كالماء، وطار في الهواء عاليًا كأسوأ ما تكون ألعاب الملاهي، ثم هوَى في مصرف موازٍ للطريق.

تلا ذلك سكون رهيب، فقط صوت صرير المعدن إذ يستقر، ثم الصمت. لم يعد المذياع يعمل، خبا صوت الحديث المُتحمِّس. تغيَّر كل شيء في غضون ثوانٍ.

ثمة حركة ضعيفة منبعِثة من المقعد المجاور للسائق. يأس كسير، مكبوح محبوس، صرخة هي بالكاد لُهاث.

أما السيارة الأولى -سيارة دفع رباعي كالثور- كانت ساكنة على الطريق، مقدمتها منبعجة عَبوس. للدهشة، كان المُحرك يعمل، صوته كسعال الشيوخ، لكنه يدور. وللحظة -للحظة أطول من تلك التي استغرقها لتدمير حياة السيارة الثانية- جلس السائق خلف المقود يرتجف.

ما زالت الشمس ساطعة، تتوهج عبر الأشجار، وما زال الصباح الباكر جميلًا والطريق خاليًا.

ما زال الطريق خاليًا.

لا شهود.

يفصلني عن المنزل ميل أو نحو ذلك.

ترك السائق الأمر للمصادفة، للحظ. لم تُطلَق الوسادة الهوائية. لو تحرَّكت السيارة، سيرحل السائق ولن ينظر خلفه. إن لم تتحرك، سيمكث ويواجه العواقب.

حرَّكت يدٌ مُرتجفة عصا الحركة إلى السرعة الأولى، ثم قبضت على المقود وقد وَعى السائق فجأة إلى الأوجاع والآلام الناتجة عن التصادم.

دبَّت الحياة في سيارة الدفع الرباعي الحَمولة، فانعطفت مُترنحة على الطريق، لكن السائق لم يتحمَّل، وألقى نظرة إلى الوراء.

ارتفعت يد الشخص المحبوس في مقعد الراكب، يد مُستغيثة. تأوه السائق. سيتصل بالإسعاف من هاتف عمومي، لكن لا يوجد هواتف عمومية على الطريق القصير، سيأتي عابرٌ عما قريب على أي حال؛ الطريق يزدحم بحلول التاسعة.

السائق واثق أن أحدهم قادم للغوث.

-١-

اثنا عشر يومًا حتى يوم عيد الميلاد

ثمة غريب *في المنزل!*

ليس هذا ظنًّا مُطلقًا، بل شعور وحشي، أكثر غريزية. قمتُ من مرقدي متيقِّظة فجأة، تتسارع دقات قلبي. الساعة الآن الواحدة وثلاث عشرة دقيقة.

أظل ساكنة تمامًا، أنصت موقنة أنني سأسمع صريرًا من ناحية الرواق أو سأرى ظلًّا مهدِّدًا ينبثق من ركن الحجرة المظلم، لكن لم يكن هناك أي شيء سوى صوت زخات المطر على النوافذ، وهمهمة الليل الهادئ.

يقشعر جسدي؛ هذا ليس حلمًا، إنما شيء آخر. *شيء في المنزل.* لا أستطيع التخلص من هذا الشعور، وكأنني ما زلت صغيرة تحيق بي الكوابيس فلا أستطيع أن أجزم أنني ما عدت طفلة، وأن أمي بالتبني لن تدخل عليَّ الحجرة لتهدئني قبل أن أوقظ العائلة بأكملها.

ينام روبرت بعمق، موليًا ظهره نحوي. أنا لن أوقظه من أجل شعور أشك في صحته، لكن القلق يستنفرني. *الأولاد!*

لن أستطيع العودة إلى النوم قبل أن أطمئن عليهم، لذا أقوم -وقد غزتني القشعريرة بدايةً من قدميَّ الحافيتين على البساط- وأزحف خارجةً.

أشعر بالتضاؤل وأنا أنظر عبر الممر الرئيسي، وقد أظهرتْه العتمة كأنه بلا نهايةٍ كفم وحشٍ فاغر. أمضي قُدمًا (*أنا أم وزوجة وامرأة ناجحة في*

عملها. هذا منزلي، *ملجئي الآمن*) وآمل لو أنني كنت أخذت معي هاتفي المحمول لاستخدامه ككشاف. أطل عبر إفريز الدرَج فلا أرى ما يتحرك وسط الظلال الحالكة بالأسفل، ولا أسمع صوت لصوص المنازل ينقلون ممتلكاتي في الليل. لا يوجد خطر.

تهُب الريح فتدفع المطر بقوة نحو نافذتنا ذات التصميم القوطي، فأفزع. أسير نحو نهاية الممر حيث يقطع في الحائط قوسًا معتمًا. أحيط جانبَي عينيَّ بكفيَّ وأضغط وجهي إلى زجاج النافذة البارد، لكن كل ما أتبينه هو أشكال الأشجار المبهمة. ظُلمة، سكون. ومع ذلك أرتجف وأنا أدور نحو المُنعطف قائم الزاوية عند حجرة الأطفال، أرتجف دون وعي أو إرادة مني.

أشعر بتحسن ما إن أفتح باب حجرة ويل، ابني ذي الخمسة أعوام الذي قد التحق بمدرسة كُبرى الآن. يغفو على ظهره وقد ركل اللحاف المنقوش برسم الديناصور. خصلات شعره الفاحم كشعري مُلتصقة ببعضها بفعل العرق. ربما مر بليلة عصيبة كليلتي. أغطيه برفق وحذر، لكن رغم ذلك يتململ ويفتح عينيه.

ويقول: «ماما؟».

ما زال مشوَّشًا حائرًا، لكن حين ابتسمت ابتسم بدوره ثم انقلب على جانبه. دفتر رسوماته تحت وسادته.

فأسحبه وأهمس: «لا عجب أنك استيقظت. كيف تنام فوق هذا؟».

الدفتر مفتوح على أحدث لوحاته الحماسية المرسومة بأقلام التلوين. أدير اللوحة في الظلام على هذا النحو وذاك، مُحاولةً تبيُّن ماهيتها. بصراحة، تبدو كرسمة كلب داسته سيارة مرتين.

يقول ويل: «هذا ديناصور».

ثم يضحك ويتثاءب كأنما يعرف أن الرسم ليس من أفضل مهاراته، كان مُتصالحًا مع هذه الحقيقة.

أقول: «بالطبع هو كذلك».

وأضع الدفتر على الطاولة جوار فراشه، وأقبِّله مُتمنيةً له ليلة سعيدة. كان قد غاص في النوم مُجددًا بالفعل، وعلى الأرجح لن يتذكر حديثنا هذا في الصباح.

أذهب تاليًا إلى حجرة كلُوي الغائبة هي الأخرى عن العالم، وشعرها الأشقر منتثر كمروحة على الوسادة. أميرة نائمة تليق بقصة خيالية رغم أنها في السابعة عشرة، مُناصِرة للنسوية الحديثة. سرعان ما ستعارضني بقولها إن القصص الخيالية ما هي إلا هراء مُعادٍ للنساء.

أعود إلى حجرتي ساخرة من خوفي. أرقدُ في فراشي وأتكوَّر على نفسي، بالكاد يتقلَّب روبرت. الساعة الواحدة والنصف، ولو نمت الآن فسأحظى بأربع ساعات أخرى قبل موعد استيقاظي.

المفترض أن يراودني النوم سريعًا، لطالما فعل طيلة حياتي المشغولة المُرهِقة البهيجة، لذا غُصت في الفراش وانتظرت النوم، لكنه لم يأتِ.

في الساعة الثالثة أراجع بريدي الإلكتروني. تهنئة عند منتصف الليل من بَكلي على أدائي في المحكمة أمس في جلسة الاستماع لقضية طلاق وحضانة ستوكويل.

أتصفح الأخبار على هاتفي المحمول، وأذهب إلى دورة المياه. أعود إلى الفراش، فيستيقظ روبرت بالكاد ويغمغم بشيء، ثم يطرح ذراعه الثقيلة فوقي. بعدها أستلقي حيث أنا ويدور في رأسي جدول أعمال اليوم الذي سرعان ما سيبدأ. يعتمل الغضب في صدري أكثر وأكثر كلما فكَّرت في أنني سأواجه يومي مُرهقةً. عليَّ أن أكون في المكتب بحلول السابعة والنصف، ونادرًا ما أعود إلى البيت قبل مُضي اثنتي عشرة ساعة بعدها، هذا إن فلحت في الفرار من الخروج الإلزامي لتناول المشروبات مع الرفاق. لا مجال للتقاعس، وبخاصة الآن وأنا مُرشحة لأكون أصغر شريك في مؤسسة المحاماة.

لكنني أحب عملي، حقًّا أحبه.

أمارس بعض تمارين اليوجا للتنفُّس وأحاول أن أرخي كل عضلة في جسدي، وأخلي عقلي. يبدو هذا سهلًا، لكن في الواقع ينتهي بي إلى التفكير في أمور سخيفة مثل: إن كان هناك حليب يكفي في البراد، أو ضرورة تغيير شركة الغاز الطبيعي التي نتعامل معها. ورغم أن دقات قلبي تتباطأ، ما زال النوم يُجافيني.

سيكون هذا يومًا طويلًا.

-2-

أحد عشر يومًا حتى يوم عيد الميلاد..

العمل مزدحم. بحلول الحادية عشرة إلا ربع كنت قد حضرت مؤتمَرين، وعالجت بعض الفواتير، واتصلت بثلاثة عملاء كانوا قد اتصلوا بي قبلًا، وشرحت لهم أني عاجزة عن حث المحاكم على إنهاء الإجراءات بسرعة أكبر، وعن الحصول على ردود سريعة من محاميِّي أزواجهم. أتفهَّم الحنق الذي يصيبهم بسبب التأخير، وأن اتصالاتهم بي تكلفهم المزيد من المال.

يبدو أن الناس يتعجلون الخروج من الزواج أكثر مما تعجلوا الدخول فيه.

أتحقق من هاتفي. ثلاث مكالمات لم أرد عليها من رقم لا أعرفه، لكن أيًّا كان المُتصل فعليه الانتظار، هناك شيء يجب أن أفعله أولًا بخصوص أليسون.

أسمع طرقة على بابي. آخذ شهيقًا عميقًا؛ أليسون ليست سهلة.

أقول: «تفضَّل».

أليسون كانويك في منتصف الخمسينيات، عقلها يتناسب تمامًا وسنها، وهذا في حد ذاته يزيدها سُلطةً. وحقيقة كونها محامية أقدم مني كثيرًا تُلغي حقيقة أنها مُساعدتي المُبتدئة، ولو استقللت وصارت المؤسسة تدفع لي نسبة أرباح، ربما تقتلني حقًّا.

أبتسم وأشير لها إلى مقعدٍ لم تجلس عليه: «أحسنتِ فعلًا مع طليقة السيد مَكجريجور. لا بد أنها مسرورة بالنتائج».

- مسرورة كما يحق لزوجة لثلاثين عامًا أن تُسَر حين يبدأ زوجها حياة جديدة مع امرأة أخرى في عمر ابنتهما الكُبرى.

أردت أن أقول لها: *فقط اقبلي المدح!* معقِل قوة أليسون هو الزوجات الحانقات الساعيات خلف الانتقام. أنا لست واثقة حتى أن كلهن يرغبن في الانتقام، لكن أليسون تُشعل تلك الرغبة فيهن وتدفعهن إلى إفلاس أزواجهن كما فعلت هي نفسها حين تركها زوجها لأجل امرأة أخرى منذ عشرة أعوام.

ربما لو توقفَت عن ضخ الوقود في نيران غضب الآخرين، سيزول غضبها. كما هو واضح، فنتيجة قضية آل مَكجريجور جيدة إلا أنها لم تكن في صالح موكِّلتها تمامًا. أنا فقط أجاملها كي ألطِّف من وقع ما سأقول تاليًا.

أجلس رغم أنها ظلَّت واقفة وأقول: «أجل، لديك حق. أريد الحديث بشأن ساعات عملك المدفوعة».

يتقلَّص وجهها، *ها قد بدأنا!*

أردف: «قلَّت نسبة حضورك عن ثمانين بالمائة خلال الأسبوعين الماضيين، وفكَّرت أن أسألك إن كنت واقعة تحت أي ضغط لا نعرفه...».

- أنا واثقة أن هذا الحاسوب الغبي لا يُسجل كل المعطيات بدقة.

- رجاءً يا أليسون، دعيني أكمل كلامي.

هذه حقيقة أخرى عن أليسون؛ تظن أنها لا تُخطئ أبدًا، ولا تعترف بنقاط ضعفها.

أقول كاذبةً: «أنا لا أحاول تحميلك المسؤولية، أريد فقط أن أطمئن أنك بخير. في حالتك العادية تكونين بارعة في إصابة الأهداف».

لأكون عادلة معها، عبارتي الأخيرة كانت صادقة. هي شرسة وربما تنفلت منها بعض الأمور، لكنها تعرف أن عليها أن تتجاوز ثمانين بالمائة من ساعات عملها كي ندفع لها.

تقول ساخطةً: «أنا بخير، وسأفعل ما في وسعي من الآن فصاعدًا».

- لو أن ثمة مشكلة، يمكنني المساعدة.

بمجرد أن خرجت مني العبارة، أدركت كم كنت مُخطئة في نطقها. يتقلص فكُّها وتبرق عيناها غضبًا.

تعتصر الكلمات من بين أسنانها قائلة: «سأضع ذلك في حسباني».

طرقة أخرى على الباب أنقذت كلتينا. كانت هذه هي روزماري، سكرتيرتي الخمسينية التي تشع دفئًا وبهجة، وقد جاءت تحمل مزهرية.

تقول وهي تتجه نحو المنضدة المزخرفة عند النافذة: «انظري إليها!».

المزهرية تضم نحو عشرين زهرة متنوعة جميلة.

أسألها في حيرة: «هذه من أجلي؟».

لا توجد مناسبة لهدية كهذه، وروبرت لا يشتري لي أبدًا الأزهار، فهو يعرف أنني أفضِّل نباتات الزينة التي تكبر وتعيش طويلًا بدلًا من الأزهار المحكوم عليها بالذبول سريعًا مهما بدت جميلة.

تظل أليسون ثابتة، فضولية، ولا أعبأ بصرفها.

تناولني روزماري بطاقة وهي تقول: «هذه البطاقة كانت مع الأزهار».

إلهي! باركر ستوكويل.

«مرة أخرى، أشكرك. لو ترغبين في تناول العشاء معي، اتصلي بي. باركر».

أتأوه.

وبينما تنظر إليَّ روزماري مُتسائلة، تسألني أليسون بخبث: «دعيني أخمن، السيد روكويل؟».

ثم تستدير وتغادر المكتب، وبشكل ما رحلت مُنتصرة، مما ضايقني أكثر.

أقول وأنا أحدق إلى الأزهار: «لم أكن لأمانع ما لم يكن مريبًا هكذا. هو يطلب مني مرافقته إلى العشاء، ولا أعتقد أنه يتوقع أن أرفض رغم أنني متزوجة».

- أتخيل أنه لا يُرفض كثيرًا.

- هذا صحيح، لا يناسب ذائقتي بالتأكيد.

أتنفس بعُمق وأشطب لقاء أليسون من جدول اليوم.

ثم أردف: «ربما عليَّ أن أرتِّب له عشاءً مع أليسون».

أضحك لمجرد الفكرة، ثم أكمل: «لماذا تتعامل معي بهذه الطريقة؟».

تقول روزماري: «تشعر بالغيرة منك. أنت أصغر سنًّا وأكثر نجاحًا، ولديك عائلة رائعة... على ذكر العائلة، أختك اتصلت وقالت إنها حاولت الاتصال بهاتفك المحمول أكثر من مرة، وتريد أن تتصلي بها في أقرب وقت».

فيبي.

نسيت فجأة الأزهار وأليسون ويومي المشغول وقلة نومي. اتصلت بي فيبي. أستعيد قائمة الاتصالات الفائتة على هاتفي وأنظر إلى الرقم غير المعروف. رقم من المملكة المتحدة. فيبي، أختي، قد عادت، والشيء الوحيد الذي أستطيع التفكير فيه هو: *لماذا الآن؟ لماذا وقد اقترب يوم عيد ميلادي؟*

-3-

أنا في المستشفى، عنبر رقم خمسة عشر. من الأفضل أن تأتي.

هذا هو كل ما قالته قبل أن تغلق الخط، وها أنا هناك وأعرف السبب. لقد خدعتني كي أذهب إليها.

هذا عنبر خاص، عنبر شيخوخة. أعبر عدة حجرات، ولا أستطيع أن أمنع نفسي من استراق النظر عبر فرجات أبوابها المواربة. في واحدة، رجل تغضنت بشرته حتى التصقت بخديه، شعره خفيف أشعث ينزلق ببطء إلى مصير قريب. في الحجرة الثانية مريض يشاهد برنامج «منازل تحت المطارق»[1] على شاشة تلفاز عالي الصوت. في الحجرة الأخيرة كرسي متحرك مطوي مُسنَد إلى الحائط، وامرأة تقرأ مجلة لأخرى عجوز تنصت إليها وهي ترشف الشاي، ربما هي أمها أو قريبتها. لقطات من الحياة، ولا أرغب في الوصول إلى الحجرة التي تحوي لقطة من حياتي.

سؤال الممرضة يفزعني: «هل أستطيع مساعدتك؟».

أجيبها: «أنا إيما آفِريل، أقصد إيما بورنيت، وأبحث عن فيبي بورنيت».

- إيما؟ ابنة باتريشيا بورنيت الأخرى؟

ها قد بدأنا!

- هل سجلتِ اسمك؟

---

(1) Homes under the hammer

هو برنامج يختص بتقييم المباني القديمة وتجديدها.

هي امرأة صاخبة مزعجة، حتى إن السيدة التي كانت تقرأ لأمها في الحجرة الأخرى توقفت عن القراءة ونظرت نحونا.

أبتعد عن الباب وأنا أقول: «آسفة، أنا...».

- إيما، نحن هنا.

فيبي، أختي الكبرى، تقف عند نهاية الممر. شعرها البني قد ازداد طولًا وقد تركته ينسدل بحرية على كتفيها. من الصعب أن تصدق أنها في الثانية والأربعين من عمرها وهي ترتدي سترتها الخفيفة الناعمة وبنطالها الجينز الأسود الضيق منتعلةً حذاءها المنخفض الشبيه بأحذية راقصات الباليه. لكن كل هذا يخفي حقيقة أن فيبي أبعد ما تكون عن راحة البال. نظرة أقرب إلى وجهها تفضح منظورًا آخر للقصة. التجاعيد ظاهرة على جبينها وزاويتَي فمها، ليست تجاعيد كخيوط العنكبوت، بل أخاديد عميقة كأنما خطاطيف الزمن تجذب بشرتها إلى الداخل.

أقول: «لقد كدتِ تُصيبينني بأزمة قلبية يا فيبي، ظننتك مريضة».

تنظر إليَّ مطولًا ثم تقول: «كم أن هذا غريب!».

- ما هو الغريب؟

- لكم تُشبهينها! تشبهينها في الماضي.

لماذا تعجز عن التفوه بأي شيء لطيف؟ *أهلًا إيما، أوحشتِني، كيف حالك؟ أنا فخورة بك.* كلا، يجب أن تقطع الشريان وتريق الدماء مباشرة. كأنها تستاء من محبتي. أحيانًا -الآن على سبيل المثال- أنا متأكدة أنها تستاء من محبتي.

- أنا لا أشبهها في شيء.

تهز كتفيها وتقول: «أنت لا تذكرين، لكنك تشبهينها في الماضي».

تعقد حاجبيها وتردف: «أعني... أنت تطابقينها! هذا مزعج إلى حد ما».

أرفض أن ألتقط الطُّعم فأقول: «لقد تركت عملي ظنًّا مني أنك أُصبتِ في حادث. إن كنت بخير، فيمكننا أن نتقابل لاحقًا».

بعد *عام أو اثنين* مثلًا.

- ما كُنتِ لتأتي لو أنني أخبرتك.

- الأمر بشأنها، أليس كذلك؟ أنت مُحقة، لم أكن لآتي، ولن يجبرني شيء على المكوث.

- أتقصدين أمي؟ هي ليست فولدمورت[1] كي تخشي نطق اسمها.

ثم تومئ نحو حجرة مغلقة وتردف: «هي بالداخل. لقد صدمتْ رأسها في مرآة حجرتها ليلة أمس...».

تتوقف عن الحديث حين أتراجع خُطوة إلى الوراء دون تفكير، ثم تكمل: «صدمتها مرارًا. تعاني ورمًا دمويًّا دماغيًّا يهدد حياتها، وظننت أنك ستودين معرفة أمر كهذا».

أنظر حولي وأعقد حاجبيَّ.

أسألها: «أين الحرس؟».

حينها فقط تضحك فيبي مُتفاجئةً وتجيب: «هي امرأة ضعيفة في الخامسة والسبعين، تعاني نزيفًا دماغيًّا خطِرًا، وهي لم تفعل شيئًا طيلة أعوام سوى الغمغمة والخَلط. بالكاد تُعتبر خطرة».

- مع ذلك كان عليهم ترك ولو حارس واحد.

كنت سأشعر بأمان أكثر لو أن هناك حراسًا، أو شخصًا ما يراقب الباب. مخاوف الطفولة تنشب مخالبها عميقًا.

تقول فيبي بفظاظة: «لم يعد أحد يهتم يا إيما بما فعلَت، بالإضافة إلى أنها كانت تعيش في وِحدة مؤمَّنة لا سجن».

. أحيانًا ما أبحث عن تلك الوحدة عبر جوجل، لكن عدد مرات البحث قلَّت مؤخرًا، لا أعرف السبب، لكن ربما تُريحني معرفة أنها مودَعة خلف عدة بوابات مؤمَّنة وقضبان مجازية.

وحدة دار هارتويل الوسطى المؤمَّنة *لحبس المرضى المُحالين إليها من نظام العدالة الجنائية، والذين يمثِّلون خطرًا على الآخرين*.. ولو أننا في فيلم خيال علمي، فسيطلقون على وحدة كهذه «مُؤسسة رعاية المجرمين المُختلين».

(1) لورد فولدمورت، ساحر شرير من روايات هاري بوتر، وكان السحرة يخافون منه، حتى إنهم يمنعون ذكر اسمه، ويشيرون إليه بعبارة «الذي لا يجب ذكر اسمه».

أغمغم: «لقد أودعوها هناك لأنها أكثر جنونًا من أن تودَع في سجن. وإن لم يعد أحد مهتمًّا بما فعلت، فأنا أهتم!».

والآن تعتبرني أنني أنا العنيفة!

أردف: «لا أصدق أنك خدعتِني كي آتي إلى هنا، وقد كنت واضحة في عدم رغبتي في رؤيتها أبدًا. الحقيقة أنا لا أصدق أنكِ هنا».

ثم تباغتني فكرة، فأسأل: «كيف جئتِ إلى هنا؟!».

كيف اتصلتْ بها الوحدة المؤمَّنة بحق الجحيم؟ أنا واثقة أنني الابنة الأسهل في الوصول إليها؛ فيبي لا تعيش حتى في البلد نفسه.

هزَّت كتفيها هزَّة لا يبدو فيها الضيق، وهذا يعني أنها في طريقها لإلقاء قنبلة أخرى.

قالت: «لقد كنت أزورها».

- ماذا تعنين بأنك كنت تزورينها؟ متى؟

- ليس بانتظام، لكني كنت أزورها خلال الأشهر الماضية.

- لحظة...

آخر ما سمعناه عن فيبي أنها تعيش في إسبانيا وتعمل لدى مؤسسة عقارية.

- أنتِ عُدت منذ شهور؟ ولم تتصلي بي سوى الآن؟ بحق الهراء يا فيبي!

هي تثير جنوني، أنا مشغولة ولا وقت لدي لأضيعه هنا وهي تعرف ذلك، وتعرف أنه ما كان لها أن تخدعني لآتي.

أستدير وأهرع عبر الممر كالإعصار. تشير لي الممرضة عند المكتب كي أسجِّل اسمي.

فأصيح فيها وأنا أعبر أمامها: «إيما -اللعينة- آفريل!».

يمكنها أن تدوِّن اسمي بنفسها.

***

أرتكن إلى سيارتي، النسائم تُبرِّد نيران غضبي. لا بد أن وقت الزيارة قد انتهى لأن أغلب الزوَّار بالداخل يخرجون مارِّين من أمامي قاصدين سياراتهم، وبعضهم كان هنا ليروا أمهاتهم بلا شك. أنا الابنة الأكثر عقوقًا في ساحة

الانتظار. الابنة الأسوأ للأم الأسوأ، لكنني لم أكن أسوأ أخت. أنا عاجزة حتى عن التعبير عن مشاعري بكلمات. هذه خيانة عُظمى من فيبي. كانت تزورها؟ ولم تُخبرني حتى أنها عادت إلى الوطن؟

أراها تهرول نحوي.

تقول: «إيما، انتظري!».

- لن أستطيع أن أتحدث معك الآن يا فيبي. لا أستطيع. ليست لديَّ طاقة لشجار في ساحة انتظار عمومية مع أختي.

- كنت أعرف أن هذا سيكون رد فعلك، وأنكِ ستتجاهلينني.

- لا تقلبي الطاولة عليَّ! لطالما كنتُ دائمًا إلى جوارك. دائمًا! أنت من ابتعدتِ.

- لو أن هذا يُشعرك بالتحسُّن، فلا بأس في أن تستمري في خداع نفسك.

يأتي دورها كي ترمقني بنظرة غضبى وهي تُضيف: «وأنا كنت إلى جوارك أيضًا مرات ومرات قبل أن تتحول حياتك هكذا».

تومئ نحو سيارتي الجديدة.

أسألها: «ماذا حدث لحياتك في إسبانيا؟ ووظيفتك؟».

- العودة كانت فكرة رئيسي في العمل. قيل لي إنها قد تتشافى إن أمضيت وقتًا معها.

- تمضين وقتًا معها، لا معي.

أنا باردة، وهي تدافع عن نفسها.

- لستُ مضطرة حقًا إلى تفسير خيارات حياتي لكِ يا إيما. كنت أعرف أنك ستشعرين بالحنق إن عرفت أنني أزورها. عمومًا، هي مُتخشبة مثلما كانت من وقتها، و...

- لا أريد أن أعرف شيئًا عنها، ولا أهتم بشأنها.

أجذب باب سيارتي. *أنا في سن الأربعين، وأكبر من أن أخاف الوحش.*

أقول: «لكن أنت؟ أنت جرحتِ مشاعري يا فيبي».

- وكأن مقابلتي ستُشكِّل فارقًا لديك. انظري إلى نفسك، سيارة جديدة، حياة براقة، انشغال دائم. لقد قرأت هذا الخبر عنك في الجريدة؛ نجمة

القانون الصاعدة. لم تُجرح مشاعرك، أنت فقط تحبين التحكم في كل شيء.

بدا عليها المرارة، ولا طاقة لي بالخوض في الجدال القديم نفسه مُجددًا.

تتراجع خطوة إلى الخلف وتضيف: «عمومًا، حالتها متدهورة للغاية، وربما تفيدك رؤيتها، ربما تحصلين على نهاية مناسبة لكل هذا. حرري مخاوفك».

- لست خائفة.

ألقي حقيبتي على مقعد الراكب وأركب السيارة.

- بالتأكيد أنت خائفة.

تمسك فيبي باب السيارة للحظة. عيناها الداكنتان حادتان، ويعلو شفتيها شبح ابتسامة.

وتقول: «ستصلين إلى سن الأربعين بعد نحو أسبوع، ولطالما كنتِ تخافين هذا».

- رحلة سعيدة إلى إسبانيا يا فيبي.

أقولها وأغلق باب السيارة بقوة، ثم أدير المحرك سريعًا. أستطيع أن أراها في المرآة الأمامية تراقبني وأنا أبتعد، وأنا واثقة أنها تبتسم.

كيف تثير أمر عيد ميلادي بهذا الشكل؟

السافلة! يا لها من سافلة!

-4-

أظل أحدق أمامي وأنا أنضم إلى زحام السيارات المُتجهة نحو المَخرج. تزعُم فيبي أن بلوغ الأربعين لم يُضايقها، لكنها تركت وظيفتها الثابتة وانقطعت اتصالاتها –اتصالاتها المتقطعة بالأساس- قبل بلوغها هذه السن بفترة، وقد اتضح أنها سافرت إلى مُنعزل لممارسة الطهي في مكان ما في شرق أوروبا، وهو تصرف غريب على فيبي. لتدَّعِ ما تريد، لكن بلوغ الأربعين ضايقها أيضًا.

ظلت مُختفية من وقتها، على الأقل بالنسبة إليَّ، والآن، وقبيل عيد ميلادي الأربعين تفترض فجأة –وبعد كل هذه السنين- أنني سأرغب في قضاء وقت مع أمنا. أنا عاجزة عن فهم منطقها.

كان وقت الغداء قد حل، وصار الطريق المتجه إلى الممر الدائري بطيئًا مُتعثرًا، يُغرِق مزاج السائقين الساخطين في بركة الحر الموحلة. أنقِص درجة الحرارة في مُكيف الهواء بسيارتي، فأنا بحاجة إلى تمالك نفسي.

لقد صدمتْ رأسها في مرآة حجرتها ليلة أمس.

أنعطف يسارًا؛ تصير حركة المرور أسرع أخيرًا. أحاول التركيز في جبال العمل المتراكم عليَّ في المكتب، وكيف سأضطر إلى الكذب على الجميع بشأن ذهابي إلى المستشفى، فحسب معلوماتهم أمي ميتة بالفعل.

سأتظاهر أن فيبي أُصيبت في حادث أو شيء من هذا القبيل، لكن تفكيري يظل يعود *إليها*، أمنا. المزاح القديم عن العُمر (مَم تخشين؟ *بلوغك الأربعين؟ تحولك إلى أمك؟*) يثير ذعري حقًّا.

تحوِّم الأربعون فوق حياتي كشبح -يرعبني أكثر مما يرعب فيبي- لأن أمنا لم تُطلق على فيبي اسم الطفلة المجنونة. كانت تهمس لي أحيانًا أنني سأُجن مثلها، تفح كالأفعى في وجهي بينما تنغرس أصابعها عميقًا في لحم ذراعيَّ وتقول إن دمي ملوَّث مثلها، وإن الجنون يجري في دماء العائلة.

كل ما أذكر من طفولتي مع أمنا مقتطفات ضبابية، فيما عدا اليوم الأخير. تذكُر فيبي أكثر؛ كانت في الثامنة بينما أنا في الخامسة. كنا أقرب إلى أختين وقتها، تربطنا صلة قوية، حتى جاءت تلك الليلة ففرَّقتنا.

أذكر الصباح أكثر، الصباح الأخير، أذكر ملمس البساط الخشن تحت رُكبتيَّ ونحن نصنع بطاقة تحمل رقمَي 0-4 على غلافها، رسمتْها فيبي بحرص ولوَّنتُها أنا. وأذكر بعدها أنها قبضت على كفي ونحن نهبط الدرج إلى الطابق السفلي.

للحظة عُدت إلى ذلك اليوم، ضللت وسط الذكريات، ثم أعادني صوت نفير سيارة قوي إلى الواقع. العمل! يجب أن أعود إلى العمل. حتى وأنا أوقف سيارتي، أشعر بشبح أمي يبزغ من أركان عقلي الأكثر ظُلمة، وأكاد أشعر بكف فيبي تقبض على كفي وتجذبني بعيدًا عنها.

أنت تبدين مثلها تمامًا.

أتمنى لو تنسياني، اللعينتان!

***

«هذا مُسلٍّ، أليس كذلك؟ تدمير حياتي؟».

كنت قد أوقفت السيارة وخرجت منها متجهة إلى المكتب، ولم أدرك للحظة أن الكلمات المبصوقة في غضب مُوجهة إليَّ حتى رفعت عينيَّ ورأيت ميراندا روكويل الحانقة، تسد عليَّ طريقي.

قلت: «سيدة روكويل، لو لديك أمر آخر تريدين مناقشته، أقترح أن تتواصلي مع...».

- أنت ساعدتِه على سرقة أطفالي مني!

وجهها مُحمر، وقد اختلط مكياجها، وراحت تضرب بقبضتيها مُقدمة سيارتي. أجفل قليلًا. السيارات المارة في الشارع تتجمع جوارنا. لا أعبأ كثيرًا

باحتمالية أن تهاجمني جسديًّا، لكني تحاشيت شجار ساحة انتظار مع فيبي، ولا أنتوي أن أتورط في واحد آخر هنا مع طليقة موكِّلي.

أقول بصوت بارد: «كلا يا ميراندا، أنا لم أفعل ذلك، بل هي فِعلتك أنتِ. لكن يمكن أن تتغير الأمور. لو استعنتِ بمختص، فيمكن أن تعيدي رفع...».

- أوه، والآن تُسدينني النصائح؟ الكل يعتبرني مجنونة. أنت تعتبرينني مجنونة.

تكشِّر عن أسنانها، ثم تطلق ضحكة، وتردف: «لقد أبلى بلاءً حسنًا، أليس كذلك؟ حوَّلني إلى امرأة مختلة لا تستطيع العناية بأطفالها. يا له من هراء!».

لقد نلت ما يكفيني من جنون هذا الصباح، وليس ما تتحدث بخصوصه من شأني. ليس بعد الآن؛ أُغلِقت القضية.

أقول بحذر: «معذرة».

وأنا بالفعل أتفهَّم شعورها. لطالما كنت أفضِّل مشاركة الأبوين في حضانة الأطفال، لكن تصرفاتها الشاذة جعلت هذا الخيار مُستحيلًا.

وأتابع: «تواصلي مع محاميكِ لو أردتِ إعادة القضية إلى الساحة».

- ربما سأفضِّل أن أنفِّذ القانون بنفسي.

تستدير مُتعثرة، وأدرك أنها أمضت صباحها في الشرب. تُضيف: «وسنرى ماذا سيكون رأيك أيتها *العاهرة السافلة*».

تصرخ بآخر كلمتين في وجهي وهي تبتعد، فأرتكن إلى سيارتي للحظات حتى تختفي هي عند المنعطف. رأسي ينبض. لا بأس، على الأقل ليس في الإمكان أن يسوء اليوم أكثر.

***

لاحقًا، أتسلل في نهاية اليوم دون أن أذهب مع الرفاق إلى حانة هاري، وأتعلل بضرورة ذهابي للاطمئنان على كاحل فيبي المصابة، هنا فقط أدرك أن اليوم قد ساء أكثر.

كنت مسرورة أنني سأعود إلى البيت مبكرًا عن موعد نوم ويل، وسأحظى بأمسية يوم جمعة عائلية، ثم رأيت سيارتي الجديدة. أول ما صدمني الرسوم المحفورة فوق الطلاء بمفتاح على جانب السيارة، الخط المُتكسِّر واضح فوق الطلاء الأزرق. ثم رأيت الملحوظة المُثبَّتة تحت مسَّاحة الزجاج الأمامي.

وريقة انتُزعت من دفتر ذي سلك حلزوني من النوع الذي لا أظن أن الناس يستخدمونه إلى اليوم، وبخاصة الأشخاص مثل ميراندا روكويل.

الكلمة مكتوبة بخط غاضب محفور على الورقة حتى إن ظهرها صار بارزًا كحروف برايل.[1]

عاهرة!

أحدق إليها، ثم أنظر حولي فلا أرى أثرًا لها، ولا أثر لأي كاميرات مراقبة. أخرِج هاتفي المحمول والتقطُ صورة لسيارتي على حالتها، وبالخدوش التي عليها، وكأنني سأستطيع إثبات أي شيء بها، ثم أدخل السيارة وأغلق الباب، وأرمي الوريقة داخل حامل الأكواب.

عظيم! كم أن هذا عظيم!

(1) طريقة برايل تعتمد على نقاط بارزة بدلًا عن الحروف لمساعدة المكفوفين على القراءة باللمس.

-5-

- مهلًا، أين أبي؟
- لا أعرف. أعتقد أنه في حجرته. هل أخوك مستعد للنوم؟

كنت قد عدت للتو إلى بيتي، أشرب كوب ماء في المطبخ وأنا أفحص البريد المكوَّم جوار غلاية الماء. بعض مراسلات شركة التأمين التي قد فرزها روبرت. كنت أريد أن أسأله عن سبب غلوها مقارنة بوثائق تأميننا القديمة عندما ظهرت كلوي تحوم عند الباب، تحمل جهاز الآي باد. هي أطول مني الآن، شقراء، ساحرة، واثقة من نفسها. ابنة أبيها حقًّا.

تقول: «أنشأتُ موعدًا على فيسبوك للمناسبة التي أرادها. اضطررت إلى إضافة بعض الآباء والأمهات من المدرسة إلى حسابي الخاص كي أستطيع دعوتهم. أعتقد أنني دعوت الجميع».

- أي مناسبة؟
- ألم يخبرك؟ قال إنه...

تستدير وتصيح عبر الردهة: «أبي؟ أبي! ألم تخبر أمي؟».

- لم يخبرني بماذا؟

بعد ثلاث دقائق أخرى، أجد نفسي في حجرة روبرت التي يختلي فيها بنفسه، أقف أمام التلفاز حاجبة عنه ما يفعله فريق ليدز[1] من أمور لا أفهمها تتيح لهم الفوز.

أقول له: «حفل عيد ميلاد؟ بربك!».

---

(1) ليدز، فريق كرة قدم إنجليزي.

- إيما، مهلًا، لا أستطيع أن أشاهد المباراة.

يميل روبرت في محاولة لرؤية التلفاز من خلفي. لا أتحرك، فيوقِف أخيرًا عرض المباراة.

- أخبرتك من قبل بأنني لا أريد أي ضجة.

أنا نَزِقة ولا أستطيع فعل شيء حيال ذلك.

- هذا عيد ميلادك الأربعون، وعليك فعل شيء. على كلٍّ أنا لم أرتب لحفل، بل مجرد تجمُّع أصدقاء احتفالًا ببداية حياة جديدة وما إلى ذلك...

يعقد حاجبيه في ضيق ويردف: «المفترض أن تكون هذه مفاجأة لطيفة. لماذا تضايقتِ هكذا؟».

لستُ مُضطرة إلى الإجابة. أعني... أنا مضطرة لكن الإجابة لا تهم أحد سواي.

تهتف كلوي: «تحمَّل النتيجة إذًا».

كلوي واقفة عند مدخل الحجرة، نصفها بالداخل ونصفها بالخارج. وعيت إلى أن وجودها في المنزل يقتصر على وقوفها عند الأبواب، بلا أي نية لمشاركتنا الأحداث. تلقي نظرة سريعة على الأمور ثم تعود إلى خصوصية غرفتها.

تضيف كلوي: «النظام الأبوي الذكوري هو ما يُقلق النساء بخصوص التقدم في العمر. يجب أن تُحبي سنك. الأربعينيات ستكون عِقد القوة بالنسبة إليك».

- ربما عليَّ البدء في إظهار قوتي الآن في رفض ذلك الحفل.

صاحت كلوي وهي تدس قبضتها في خصرها مُعترضة: «أمي! مهلًا!».

يقول روبرت: «ما هم إلا عشرون شخصًا، ليس تجمعًا كبيرًا».

- حسنًا.

أعترف أنني هُزمت، وقد تلقَّت كلوي تأكيدَي حضور على فيسبوك. لو ألغينا الحفل الآن فسيبدو الأمر غريبًا.

أقول: «كان عليكما سؤالي عن رأيي أولًا».

أستطيع أن أتخيلهما يديران أعينهما إلى بعضهما امتعاضًا. أعرف أنني بالغت في رد فعلي، لكن معدتي كأنما عُقِدت توترًا.

الأربعينيات. الأربعينيات قادمة بالفعل ولا شيء في يدي لأمنعها، أقول لنفسي إنه مجرد رقم، لكنني أشعر بأصابع الذعر تتحسس عمودي الفقري. هو مجرد رقم سيحل ثم يرحل قبل أن أدرك حتى.

***

كاد ويل ينتهي من غسل أسنانه، وقد ارتسمت ابتسامة مهرج بيضاء برغوة معجون الأسنان على شفتيه. جذب شفته السفلى إلى أسفل وراح يحدق إلى أسنانه.

ويسأل: «ألم تتلخلخ أيها بعد؟».

لا أعرف أيهما يريد أكثر، أن يحصل على فجوة سن ناقصة كأقرانه، أم زيارة جنية الأسنان. أيهما أو كلاهما، ويل يبدو مهتمًّا للغاية بأسنانه اللبنية الثابتة.

يهز رأسه في خيبة أمل ويقول: «ظننت أن رأسي المُتمايل سيجعلها تتأرجح».

ألمس جبهته. هو ليس محمومًا ولا يبدو شاحبًا أكثر من الطبيعي. أنظر إلى عينيه فأجدهما بخير.

أقول: «تقول إن رأسك مُتمايل، هل تعني أنك تعاني الصداع؟».

- كلا، فقط كنت أشعر بالدوار.

- هل أنت بخير الآن؟

- أجل.

ربما التقط عدوى من مكان ما. هو لم يعانِ أي تعب موسمي الفترة الماضية، وغالبًا هذا هو الموعد.

يهز كتفيه في حنق، ويعود إلى حجرته. يختار قصة «الدب بادنجتون يذهب إلى المستشفى» من صندوق قصصه المفضلة، ثم يتكور تحت الغطاء ذي رسوم الديناصور، وأجلس أنا فوق الغطاء جواره. اختيار القصة أفسد سعادتي باللحظة. الدب بادنجتون يصدم رأسه بـ «بوميرانج»[1] ويذهب إلى المستشفى.

(1) أداة صيد خشبية على هيئة زاوية دائرية الحواف، تُرمى نحو الهدف فتدور لتصدمه ثم تعود إلى الرامي من تلقاء نفسها.

لقد صدمت رأسها في مرآة حجرتها ليلة أمس.

جسد ويل دافئ، مريح إذ يرتكن إلى صدري. بمجرد أن انتهت القصة، ناولته الكتاب كي يتصفح الصور والكلمات بنفسه. من المفيد أن أحصل على بعض الدقائق الهادئة قبل أن أنزل إلى الطابق السفلي لتناول العشاء.

ستذهب كلوي للمبيت لدى صديقتها، لذا سيقتصر العشاء عليَّ أنا وروبرت. سيسألني عن يومي، وأي إجابة سأجيبها ستكون كذبة. لن أستطيع أن أخبره ما حدث مع فيبي. على حد علمه، وعلى حد ما سمحت له بالمعرفة، فأمنا ميتة، وقد أخبرته هذه الكذبة عندما التقينا أول مرة عندما كنت في الحادية والعشرين من عمري، وقد صدَّقتْ فيبي على هذه الكذبة، ولم أندم عليها. أكان سيتفهَّم لو أنني شرحت له؟ ربما، لكنني لم أرِد أن تكون قصة أمي جزءًا من حياتي بأي شكل.

سأقترح مشاهدة فيلم، سيغفو في أثناء المشاهدة، أو ربما أنا من ستغفو على الأرجح. أيًّا ما سنفعل، لا أريدها أن تكون جزءًا منه، لا هي ولا فيبي.

ومع ذلك، هأنذا أفكر فيهما. أنجرف نحو الماضي مرة أخرى، نحو اليوم الأخير، وتتقلب في عقلي صفحات ألبوم صور العائلة.

«ماما؟».

أنا غائبة عن العالم، فلم أسمع ويل من أول نداء.

يكرر نداؤه: «ماما!».

فتنتزعني نبرة صوته العالية من ذكرياتي على الفور.

يتململ وهو يقول: «أنتِ تُعانقينني بقوة».

أجل، هذا صحيح. أستطيع أن أشعر بتصلب ذراعيَّ حول جسده، وبأصابعي تنغرس في كتفه، تعتصره بقوة.

أقول: «أوه! آسفة يا صغيري».

أُفلته على الفور وأنا مصدومة مُرتاعة. لم أره ينظر إليَّ هكذا من قبل، حائر قلِق. لا أود أن ينظر إليَّ هكذا أبدًا.

وأتابع: «كنت شاردة. أتريد قصة أخرى من قصص الدب بادنجتون؟».

يبتسم ابتسامة كبزوغ الشمس من بعد الغيام، فأبدّل بالكتاب آخر. بمجرد أن أنهى الدب رحلته الجديدة، تنسى «ماما» لحظات اغترابها، ويندس في حضني.

لحظات اغتراب «ماما». لا أريد أن أفكر في تلك اللحظات.

***

مارسنا الحب. كان جيدًا مُنمقًا كأنما تدربنا عليه مرارًا، كل شيء تم في وقته وترتيبه الأمثل، وقد انتهينا راضيَين. هذا هو النظام الذي نتبعه منذ سنوات.

قلَّت لقاءاتنا الجنسية الآن، وقلَّت أكثر بعد ولادة ويل. من الصعب أن أصارح نفسي بهذا، لكن بمجرد أن انتهينا، شطبت المُضاجعة من قائمة مهامي الأسبوعية.

ذهب روبرت إلى دورة المياه بعدي، وفي ضوء المصباح أستطيع أن أرى أن حجرة النوم تحتاج إلى كنس، وأن سلة الملابس المُتسخة تفيض بحمولتها. الوضع بالأسفل لا يختلفِ عن هنا كثيرًا.

ذِكري لضرورة غسل زيِّ ويل الموحَّد، مع جو الاستياء العام الذي يتسلل بيننا ويبعِدنا عن بعضنا يُعطيني انطباعًا أن روبرت ليس مسرورًا بكونه الأب الذي يتولى أمور البيت، رغم أنه كان راضيًا بهذا الدور من قبل. لكن هذا هو الاتفاق الذي أبرمناه طيلة الأعوام الماضية. هو يريد هذا المنزل الفاخر، لكن وظيفتي هي ما تدفع ثمنه. ربما علينا أن نفكر في توظيف مَن ينظف المنزل، لكن هذه مصاريف إضافية. ثمة توتر يسري بيننا هذه الأيام، ولست واثقة متى بدأ، لكنني الآن أجدني مُتحسسة من وجوده أيضًا.

قررت أن أنظِّف بنفسي في الصباح، وسأفعل أي شيء لإنهاء ما تراكم من أعمال المنزل، لكنني أتساءل، لمَ ينتهي بي الأمر دومًا وأنا أتحمل مسؤولية كل شيء؟

لكن أحتاج إلى أن أنام لأنهي هذا اليوم المجنون.

***

-6-

لم أنَم. ظللت مُستيقظة حتى الرابعة والنصف، من بعدها أمضيت ساعتين في نوم قلِق قبل أن تسحبني ضوضاء المنزل من غفوتي في الساعة السابعة، وحين وصلنا إلى حفل الشواء في الثالثة عصرًا كنت مُنهَكة.

أول ما تفوهتْ به ميشيل حين فتحت لنا الباب: «إيما! تبدين متعَبة!».

أردت أن أدُس أصابعي في عينيها المُزينتين بدقة.

لكني أقول: «كان أسبوعي صاخبًا».

- هل جربتِ مشروب الكاموميل؟

أجيبها في أدب: «سأجرِّبه».

ميشيل واحدة من تلك النسوة التي لديها مُقترَح بشأن كل شيء، وهي مقترحات غير مُجدية بالأساس. تمنيت لو أن الظروف لن تضطرني إلى تجربته.

تقودنا عبر المطبخ حيث الباب المفتوح على حديقتهم الجميلة. تقول وهي تنظر خلفها: «الكاموميل مفيد، وبخاصة لو أضفتِ له قليلًا من الفودكا[1]».

أترك روبرت يتقدمنا في طريق انضمامنا إلى الضيوف الآخرين. مجموعة المدرسة، وهن صديقات روبرت أكثر منهن صديقاتي، ومع ذلك فقد أشار لي أن «البنات» دائمًا ما يدعونني للشرب أو العشاء أو مشاهدة الأفلام في السينما، لكن عملي عشر أو اثنتي عشرة ساعة في اليوم يجعلني غير قادرة على تلبية دعواتهن.

(1) مشروب كحولي قوي.

تضع ميشيل يدها على كتف ويل وتقول: «ماثيو يقفز فوق الترامبولين».

عبارتها الأخيرة أظهرت كم أن الجميع مندمجون. كل واحدة منهن تجلب أطفال الأخرى من المدرسة إن تأخرتْ عند مصفف الشعر، حضور تجمعات النوادي، وكل تلك الأمور التي يتشاركنها. تلك الحياة التي يعيشها روبرت ولا أعرف شيئًا عنها.

تضيف ميشيل: «هناك زجاجات عصير فروت شوتز في صندوق حفظ المُثلجات جوار منضدة تنس الطاولة».

يهتف روبرت: «تجهيزات رائعة».

تناوله ميشيل علبة بيرة وتقول: «نحن نعاني بسبب هؤلاء الأطفال طيلة الأسبوع».

يقول: «هذا صحيح. ماذا فعلتِ بشأن مشكلة تهجي الكلمات؟».

- لم تكن هذه مشكلة من الأساس، فقط عثرة تفكير! حصلنا على الدرجة النهائية هذا الأسبوع.

يضحكان، وأبتسم مُتظاهرة أنني فرد من المجموعة، بينما يبتعد ويل ويجول عند الناحية الأخرى من الحديقة حيث يلعب الأطفال. ابن ميشيل الأصغر -ماثيو- واحد من أقرب أصدقاء ويل، لكني لم أمِل قط إلى بِن، ذي السبع سنوات؛ هو عنيف يميل إلى فرض سيطرته. ابنتا بيتي هنا اليوم، أكبرهما في العاشرة، جميلة، وسيفعل ويل أي شيء تطلبه منه.

ثمة ترامبولين، ومنضدة تنس طاولة، بل إنهم جهزوا حوض سباحة مطاطيًّا صغيرًا رغم أن الطقس اليوم لم يكن حارًّا.

أما الكبار، فلم يكن هناك سوانا، ومُضيفَينا الرائعَين الوسيمَين ميشيل وجوليان، وبيتي وآلان اللذين أتيا إلى البلدة حديثًا من اسكوتلندا. كلهم – النسوة بالأخص- في مجموعة رسائل واتساب الخاصة بالمدرسة، وقد عرفهم روبرت من خلالها.

ربما سأطلب من واحدة منهن أن تُذكِّره بغسل زي ويل الموحَّد.

قال جوليان: «أتريدين نبيذًا يا إيما؟ أم تفضلين جِن مع تونيك؟».

كان جوليان قد نَصَب طاولة مشروبات جوار المشواة، وقد وضع عليها أطباقًا مُجهزة. أستطيع أن أرى فيها أسياخ جمبري خشبية، وقطع دجاج

مطهي على طريقة آسيوية، ولفائف سمك. أتمنى لو أنهم قد جهّزوا نقانق أو شيئًا من هذا القبيل للأطفال. أسأله: «هل أجد لديكم صودا خاصة بالحمية؟».

- مهلًا، اشربي معنا. احتفلي.

وصبَّ لي كأسًا من النبيذ الأبيض.

أسأله: «بمَ أحتفل؟».

- بطلاق باركر ستوكويل! قرأت الخبر في صحيفة محلية.

- أوه، حقًّا؟

مفاجأة لطيفة، وستروق للشركاء الذين سيسرُّهم الإعلان المجاني. سيساعدني هذا في الترقي كذلك.

يكمل جوليان: «الشركة التي أعمل فيها تُدير له بعض مشاريع الإنشاءات. هو شخص لا يحبذ العبث معه. لذا، هنيئًا لكِ! أحسنتم!».

ورفع كأسه تحيةً.

- شكرًا لك.

تفاجأتُ، حيث إنني عادة ما أكون بعيدة عن الأحاديث الرجالية، فالرجال لا يُشرِكونني في نقاشاتهم حول أعمالهم أو الجولف أو أيٍّ مما يحبون الحديث عنه، وأنا حقًّا لا أستطيع الحديث عن أمور الدراسة مع النساء، لذا فأعتبر حديثنا هذا نوعًا من التغيير.

أنظر نحو حوض السباحة المطاطي وأقول: «كلوي، هلا ذهبتِ وراقبتِ ويل قليلًا من أجلي؟».

كانت واقفة بالقرب مني، تشعر بالكلل مثلي.

قالت: «أنا ضيفة، لا مربية أطفال بلا أجر».

ثم نظرتْ نحو كأس الخمر في يدي وأضافت: «ويبدو كذلك أنني سأكون السائقة».

ضحك جوليان وهو يهتف: «لقد أوقعت بك يا كلوي! تعالي، أريد أن ألعب البنج بونج، فعلى أحد الآباء أن يراقب أولئك المسوخ الصغيرة».

ثم نظر خلف كتفه وأضاف: «نحن في انتظار حفل عيد مولدك يا إيما. أتمنى ألا تسمحوا للأطفال بالحضور!».

أجبر نفسي على الابتسام لدى ذكر اقتراب يوم ميلادي.

أشاهد كلوي تلكزه وتقول مُشاكسة: «حسنًا أيها العجوز، استعد للعب».

يبدو أن مزاج ابنتي المراهقة المُعتل دومًا لا يظهر إلا في وجهي.

يهتف: «أقبل التحدي».

ينظر إلى الآخرين وهو يضيف: «آلان؟ هلا جلبتِ برجر الدجاج للأطفال؟».

تبتعد كلوي وهي تضحك على شيء يقوله جوليان، ثم تضربه على ذراعه مازحةً قبل أن يتخذ كلٌّ منهما موضعه عند طاولة اللعب. حتى هي تشعر بالألفة مع هذا الجمع أكثر مني، وقد جالستْ أطفالهم من قبل -وهذا لأنها وُلدت في مطلع شبابي على غير رغبتي- ولو كنت صريحة مع نفسي، فسأقول إنني مسرورة أنها ما زالت راغبة في الخروج معنا كعائلة واحدة.

بدأت أحظى بوقت جيد عندما طُهي البرجر وجلس الأطفال يأكلون فوق ملاءة. النبيذ نفحني ببعض الخِفَّة، وسُخرية بيتي ذات الطابع الاسكتلندي تجعل مزاحها بذيئًا بعض الشيء، يغريني في ظروف أخرى بسهرة مرحة. كانت تسخر بلا هوادة من بعض أمهات التلاميذ، ورغم أنني لا أعرف عنهن إلا أسماءهن، حسها الفكاهي دفعني إلى الضحك. ربما أصير صديقة لتلك النسوة لو حاولت بجد أكبر.

أضيف تلك الصداقة إلى قائمة أعمالي اللانهائية. *حاولي بجد مع الأمهات*. ربما أدعوهن إلى بيتنا، أو الأسهل، أدعوهن إلى عشاء بالخارج.

تسأل ميشيل فجأة: «كانت لديك واحدة، أليس كذلك يا روبرت؟».

فيتوقف حديث بيتي على الفور وهي تضيف: «سيارة لاند روفر عتيقة؟ منذ زمن؟ هذه ذكرى ضبابية الآن».

كان صوتها عاليًا أكثر من اللازم. هل بدأت في تناول الخمور قبل وصولنا؟

- أجل. كانت لديه واحدة.

كنت قد نسيت كل شيء عن تلك السيارة الشبيهة بلعب الأطفال. كنت قد اشتريتها له في عيد ميلاده الخامس والثلاثين، بعد أن حصلت على درجة الزمالة.

أهتف: «كانت سيارة منحوسة».

قال روبرت بعد أن أفرغ البيرة في حلقه: «ظلت معي ستة أشهر فقط. حسنًا، هل أكَّدتم جميعًا حضور حفل عيد ميلاد إيما الأر...».

تسأل ميشيل: «كيف كانت منحوسة؟».

أضحك وأقول: «أنا أبالغ. كانت قديمة ورخيصة على أي حال، لكن دائمًا ما كانت تشكو من شيء، ومن ثم تخلص منها روبرت قبل أن نقرر الانتقال إلى المنزل الجديد، أليس كذلك؟ كنت مسافرة لحضور ندوة، وحين عدت وجدت زوجي مُصابًا وقد باع السيارة كخردة».

كيف نسيت كل هذا؟

يقول روبرت: «تعطلت عجلة القيادة، فاصطدمتُ في شجرة».

أقول وأنا أنظر نحو ابنتي: «خيرًا فعلنا بالخلاص منها، وإلا لكانت سيارتكِ الأولى يا كلوي. تخيلي أن تقوديها إلى الجامعة. هدية عيد ميلادك الثامن عشر».

تبدو كلوي غير عابئة بما أقول وهي تغمغم: «كنت أفكر في تأجيل انضمامي إلى الجامعة عامًا آخر».

هذا خبر مفاجئ بالنسبة إليَّ، لكنها تغيِّر قراراتها بتغيُّر الطقس. تركت الأمر لها كليةً، بينما الآخرون يسألونها عن السبب، ويذكرون ركوب القطارات عبر أوروبا والصيف في تايلاند، وكل ما كانوا محظوظين بفعله في شبابهم.

أخيرًا يقول آلان: «على الأقل ستحصلين على عام إضافي قبل أن تضطري إلى دفع المصاريف».

تقاطعه بيتي: «يا لسخفك! ألا تستطيع أن تفكر بعيدًا عن بُخلك الاسكتلندي هذا؟! معذرة».

يقول روبرت: «نحن نتحدث عن إيما هنا، لقد اتخذت تدابيرها وحفظت مصاريف الجامعة جانبًا. إيما ادخرت ما تشتري به سيارتها الأولى وهي في الرابعة عشرة من خلال عملها في توزيع الصحف والعمل أيام السبت في المقاهي».

ينهي عباراته بضحكة أزعجتني، وكأن حلمي بحياة أفضل جعل مني شخصية بخيلة.

يميل جوليان أمامًا ليملأ كأسه وهو يقول: «لا بد وأن الحصول على زوجة تستطيع الادخار أمر لطيف، والألطف أن تكون زوجتك قادرة على الكَسب. يا لك من محظوظ يا روبرت».

يرفع كأسه ويصيح: «نخب إيما».

تبدو ميشيل متضايقة، ولثانية أرى حرجًا حقيقيًّا في عينيها قبل أن تتمالك نفسها وتقول بصوت خشن كشظايا الثلج: «شكرًا لك يا عزيزي. ذكَّرني هذا أن أشتري حذاء جديدًا يوم الاثنين».

أقول: «ميشيل تعمل بجدٍّ، مثلها مثل روبرت. أراهن أن أعمالكما ليست أهون من أعمالي، ولا فرصة لدي كي أعمل كل تلك الساعات لو أن لروبرت وظيفة اعتيادية».

بعد أن أنهيت عبارتي، أدركت أن روبرت يبدو مروَّعًا.

قال: «في الحقيقة يا إيما...».

تقطع صرخة النقاش، فأقوم واقفة في كسر من الثانية، قلبي يتواثب في صدري. *هذا ابني*. قلب الأم يعرف. الترامبولين.

يقول بِن ويداه حول خصره، واقفًا جوار الترامبولين، بينما يجلس ويل على الحشائش يبكي: «المفترض أن يقفز، لكنه لم يفعل. كنت أحاول مساعدته!».

أسأله: «هل دفعته؟».

ثمة شبكة حماية حول الترامبولين، لكنها مهترئة متداعية تحتاج إلى استبدال.

أكرر سؤالي: «هل دفعته؟!».

أنظر إليه نظرة نارية، ثم أتحقق من سلامة ويل سريعًا. لا دماء، العظام سليمة. تباطأ انهمار دموعه وارتحت كونه بخير. أعيد انتباهي مرة أخرى إلى بِن بينما يبتعد الأطفال الآخرون في هدوء.

أقول: «انزل هنا واعتذر. لحسن حظك أن العواقب لم تكن وخيمة. فعلتك لئيمة خبيثة».

تظهر فجأة ميشيل بيني وبين ابنها الأكبر، وتصيح: «كان هذا مجرد حادث لعين! لا تصرخي في ابني!».

ميشيل تتمايل غضبًا. نحدق إلى بعضنا، ونحاول أن نتمالك أنفسنا وقد أدركنا كم نحن قريبتان من أن نتفوه بأمور لن يمكننا سحبها، وربما –بالتأكيد– سنندم عليها. هي ثملة وأنا مُتعَبة. حانَ وقت العودة إلى المنزل.

-7-

«السافلة!».

كانت كلوي مُتضايقة أكثر مني بسبب ما بدر من ميشيل.

- لا عليكِ. كنت لأفعل مثلها لو أنها صرخت في ويل.

أنا جالسة في مقعد السيارة الخلفي مع ويل، الذي كان هادئًا لكنه بخير، ينظر عبر النافذة. وكلوي تقود السيارة، فأشعر كأنما تبادلنا دورينا في الحياة.

أضيف: «ولا يصح أن تنعتيها بالسافلة. أين أخوَّة النساء التي تتحدثين عنها؟».

- أخوَّة النساء تسمح للسيدات أن يكن ما يُردن أن يكونَنَّه، وهي اختارت أن تكون سافلة.

تنظر إليَّ عبر المرآة الأمامية وتضيف: «أنا كذلك أقف في صفك يا أمي».

لقد صدمت رأسها في مرآة حجرتها ليلة أمس.

تستقيم كلوي في جلستها وهي تنعطف نحو شارعنا، وتقول بصوت مُتحمس: «انظري! أهذه... أهذه هي خالتي فيبي؟ هناك، عند عتبة بيتنا».

إلهي! يلتفت الجميع، حتى ويل يلتفت في كرسيه المُخصص للصغار. ها هي، فيبي، تقف عند المدخل. تلاقت أعيننا وأعتقد أنني لمحت شيئًا. لمحة تشفٍّ من مضايقتي؟ أيًّا كان، فقد كان شيئًا لحظيًّا، ثم ابتسمت ومدَّت ذراعيها كأن زيارتها هي أفضل ما يمكن أن يحدث.

يثب قلبي إلى فمي وأنا أرى ابنتي تهرع إليها، وتصرخ في حماس. على الأقل ما زال ويل يمسك كفي وينظر إلى المشهد في خجل.

تنادي كلوي: «تعالَ يا ويل، هذه هي الخالة فيبي!».

يترك يدي وقبل أن يُفكر تحمله بين ذراعيها وتلصق قبلتها على خده. يمكنها أن تقابل الدفء بدفءٍ إن أرادت. ويل لم يرَها منذ كان في الثالثة، لذا فهو لا يذكرها، مع ذلك كان مُرتاحًا، يقهقه بين ذراعيها وهي ترسم بقبلتها حبة توت على خده.

أشعر بالخيانة.

بدا روبرت مصعوقًا مثلي.

يقول وهو يقبِّلها على خديها: «يا لها من مفاجأة سارة».

تقول: «كنت في المنطقة، ففكرت أن أمر عليكم».

أقول: «كان من الأفضل أن تتصلي، لكنك لا تتصلين بنا على أي حال».

وأبتسم كأنني أمزح.

تسألني: «هل ستدعونني إلى الداخل؟».

ماذا تُخطط؟ لماذا جاءت؟

يقول روبرت: «بالطبع».

ويفتح لها الباب، فتتقدَّمه. ترتدي فستانًا قصيرًا قطنيًّا وتحته بنطال خفيف ضيق. أعتقد أنها استمرت في ممارسة اليوجا بعد عيد ميلادها الأربعين، فأستطيع أن أرى أن جسدها في حالة ممتازة.

تقول كلوي: «هل هو مطبوع يدويًّا بطريقة العُقد يا خالتي فيبي؟ هو ذو طابع قديم رائع».

- تقصدين الفستان؟ أجل. يمكنك أن تأخذيه إن أعجبك. سأرسله لك.

أتعجب لم صارت ترتدي تلك الملابس فجأة! الملابس التي كانت ترتديها حين كانت طالبة فنون في الماضي. أيٌّ منا لم تعُد صغيرة أو خالية البال. هي تبيع المنازل في كوستا برافا، وعلى الأرجح لديها خزانة مُتخمة بالبذلات التي لا تختلف عن بذلاتي، إلا كونها أرخص بالطبع. لماذا هذا المظهر؟ ومن تحاول أن تلفت نظره إليها؟ أنا؟ الأولاد؟ روبرت؟

تسألها كلوي: «هل عدتِ منذ فترة؟ لم نرك منذ قرون! رجاء قولي إنك عدتِ للأبد. أليس هذا رائعًا يا أمي؟!».

تنظر خلفها نحوي ونحن نصل إلى المطبخ، وروبرت يُحضر كؤوس النبيذ ويُخرِج الزجاجة من البراد.

أقول: «بالتأكيد».

ثم أنظر نحو روبرت وأردف: «سأشرب شايًا. سأحضِّره بنفسي. يجب أن أضع ويل بفراشه كذلك. هيا أيها القرد الصغير، يمكنك أن تجالس خالتك فيبي لاحقًا».

يظل ويل يدور حول ساقَي أختي، وينظر إليَّ من خلفهما.

تسأله فيبي: «هل أضعك أنا في فراشك؟».

فيهز رأسه موافقًا في سعادة. تقول: «حسنًا إذًا، هيا بنا. هل كبرت على قصص ما قبل النوم؟».

- الدب بادينجتون!

- فلتكن قصة للدب بادينجتون.

تحمل ابني مرة أخرى (هي حتمًا تعمل على زيادة قوتها العضلية؛ الولد لم يعد صغيرًا) ثم تتجه نحو الرواق.

تتلاقى أعيننا وهي تقول: «سأعود من أجل هذا النبيذ، ومن أجل ثرثرة أخوية».

تقول كلوي: «أريد أن أذهب معك. أريد السماع أكثر عن إسبانيا. هل ستظلين هنا حتى يوم عيد ميلاد أمي؟».

- لم أكن لأفوِّت هذا اليوم لأجل أي شيء في العالم.

أسمع إجابة فيبي رغم أنها اختفت، تاركة إياي وروبرت وحدنا. للحظة، عم صمت غريب مُقلق، ثم كسره هو أولًا وهو يملأ غلاية الماء: «تبدو بخير. هل كنت تعرفين أنها عادت؟».

- متى كانت فيبي تخبرني بما تفعل؟

أتحاشى الكذب المباشر، وأتشاغل بالبحث عن الحليب في البراد.

يقول روبرت: «سأشاهد المباراة في الإعادة وأترككما لتكونا على سجيتكما».

يأخذ كأسه، ثم يضيف: «لا تبدين سعيدة لمرآها».

أحاول أن أبتسم مُطمئنة وأنا أقول: «أنا فقط مُتعبة. كنت آمل في نوم مُبكر».

- لن تمكث طويلًا. هي لا تمكث طويلًا أبدًا.

***

كنا في الصالة الرئيسية، وهي حجرة نادرًا ما نستخدمها، لكنها أبعد موقع عن غرفة روبرت. كلوي بالأعلى، وويل قد نام على ما يبدو قبل أن تنهي فيبي القصة.

ظللنا نرمق بعضنا بعضًا في صمت لفترة، قبل أن تقول فيبي: «تبدو عائلتك بخير. كبرت كلوي».

- لماذا جئتِ يا فيبي؟ ولماذا لم تبعثي لي رسالة على الهاتف؟

لا مزاج لدي للتلاعب.

- ما كنتِ لتسمحي لي بالمجيء. راودتني رغبة مفاجئة في رؤية أبنائك رغم أن الأمور لم تؤل إلى خير بيننا أمس.

هي مُحقة فيما قالت، والأمور بيننا ليست بخير. لكني بالفعل لا أريدها أن تأتي إلى بيتي، على الأقل ليس والأمر الآخر –أمر أمي- يحوم فوقنا بهذه الطريقة.

تكمل: «كل هذه الأمور عن أمنا دفعتني إلى التفكير في العائلة، في الماضي. الزمن يمر، وكم سيكون لطيفًا أن نجتمع ما دمتُ هنا».

يعود الصمت للحظة، نكبت ضيقنا المُشترك، ثم تقول: «حالتها كما هي، لو أنك تتساءلين».

- لا أتساءل.

- بالطبع أنت لا تتساءلين.

تنظر إليَّ بتقزز خفي، ثم تضيف: «ولمَ قد تهتمين بأي شخص؟».

- لا أريد أن أفكر فيها الآن. ليس خلال هذا الأسبوع.

- آه، عيد ميلادك الأربعون.

تبتسم ابتسامة ضيقة محدودة ثم تكمل: «أعرف أن هذا يضايقك، يدفعك إلى التفكير في عيد ميلادها وما كانت تقوله لك، كما أفترض».

- كما تفترضين؟

إلهي! ماذا غير ذلك تظنه يزعجني؟

أقول: «والضيق هو سبيلي للتعبير عن هذا».

- لكن كل هذا وهم في عقلك، بينما احتضار أمي هو ما يزعجني أنا. كلا، الأدق هو أنه يُغضبني، وهو ما لن تصدقيه. أظن أن في وسعنا...

أنفجر فيها هاتفة: «قلتُ إنني لا أريد الحديث عنها».

- كل شيء يدور حولك أنتِ فقط، أليس كذلك؟ ستغضب السماء إن أزعجنا إيما الصغيرة.

تقوم وقد زالت ابتسامتها، وتُخرِج هاتفها المحمول وتقول: «سأتصل بسيارة أجرة. أرى أن وجودي يضايقك، ولن تدعيني ألوِّث حياتك المثالية بماضينا».

- كيف صرتُ شريرَ القصة فجأة؟!

ما الذي منحها حق المجيء إلى بيتي ومهاجمتي؟ وماذا تعرف هي بحق الجحيم عن حياتي؟ بعيدًا عن قضائنا عامًا أو نحو ذلك معًا في شقة واحدة أيام الجامعة، فنحن لا نمضي أي وقت معًا.

تسألني وهي تقرع بأظفارها الشاشة تطلب سيارة عبر تطبيق ما: «ولماذا يجب أن يكون هناك شرير في القصة؟ أنا كنت أحاول التواصل معك لأن أمنا -رغم كل مشكلاتها- في المستشفى، وغالبًا تحتضر، وربما، على سبيل الافتراض، ربما يفيدنا أو يُفيدك مواجهة الأمر».

أقول بصوت كالفحيح، رغم أن فرصة سماع روبرت لحوارنا مُنعدمة: «أفهم الماضي، ولا أريد العودة إليه. هذا لا يجعلني شخصًا مُذنبًا. وأنت تظنين أنك تعرفين كل شيء عن...»».

تقاطعني بنبرة لاذعة كالحِمض: «مهلًا، كل شيء صار على أفضل حال معك، أليس كذلك؟ بعد كل هذا! نلتِ عائلة ممتازة تَبنَتكِ. بالطبع، مَن قد يرفض تبني الصغيرة إيما؟ الجميع قد تصارع عليكِ».

- هذا ليس حقيقيًّا...

أردت أن أشير إلى أنه كان هناك عائلة تراجعت عن أخذي، وفي اللحظة الأخيرة ظهرت عائلة أخرى. لم يكن هناك سوى عائلتين، فمن «الجميع» الذين تتحدث عنهم؟

لكنها اندفعت في كلامها كالفيضان: «ومن ثَمَّ التحقتِ بالجامعة وحصلت على شهادة الحقوق، وبفضلي قابلتِ زوجك الرائع الوسيم، وأنجبت ابنيكِ المذهلين، وها أنت تعيشين في بيتك الفاخر وقد خططتِ لكل شيء في حياتك المثالية، ومع ذلك لا يبدو عليك أي سعادة مع كل تلك النِّعم، أو حتى اعتراف بحقي في الوجود فيها».

تضع كأس النبيذ بحرص على المنضدة، بحرص حتى بدا أنها تود لو تُهشمه.

كراك.. كراك.. كراك..

الشبح في عقلي يهمس بذكرى، فأبعِدها.

أقول: «أنتِ لم تريدي حياة مثل حياتي قط، عائلة وأبناء».

أرفض محاولتها لتُشعرني بالذنب. ليس ذنبي أنها عاشت حياة تَبنٍّ مختلفة عن حياتي، بالإضافة إلى أنني كدحت حتى أحصل على هذه الحياة.

تعود لبرودها وتقول: «أنت لا تعرفين ما أريد. لم تعرفي قط».

يئزُّ هاتفها، فتقوم وتعبر من أمامي، تتلهف للمُغادرة. لقد وصلت سيارة الأجرة.

- فيبي.

قلتها، فتوقفتْ.

- ماذا؟

- هم لا يعرفون شيئًا عنها. أنت تعرفين هذا، وأريد أن يظل أمرها سرًّا.

تقول بتعبير فشلتُ في قراءته: «أكنتِ تظنين أنني هنا لأخبرهم؟ لم يخطر هذا ببالي».

تضحك ضحكة خاوية ثم تردف: «لا عجب أنك قلقة بشأن تحوُّلك إلى أمي. أنت لستِ مُرتابة إلى حد المرض مُطلقًا يا إيما».

عبارتها الأخيرة تقطر سخرية.

لا أظن أنها ودَّعت روبرت، وخلال ثوانٍ اختفت كأنما لم تكن. فيبي الغامضة. الشبح. هي أختي الكبرى وأحبها، لكني وددت لو أننا قريبتان لبعضنا أكثر.

-8-

كيف يمكن أن أظل مستيقظة بعد كل هذا؟

أملأ غلاية الماء وأرتكن إلى منضدة المطبخ، رأسي ينبض بالإرهاق والتوتر. لم يكن النوم مشكلة بالنسبة إليَّ مُطلقًا، فوعيي ينطفئ فورًا كالضوء الكهربي.

اطمأننت على الأولاد، ولا يوجد ما يريب في المنزل، فماذا يكون سبب أرقي؟ هل ثمة خطب بي؟

لا عجب أنك قلقة بشأن تحولك إلى أمي. أنت لست مُرتابة إلى حد المرض مُطلقًا يا إيما.

متى توقفت أمي عن النوم قبل تلك الليلة، ليلة عيد ميلادها الأربعين؟

أحدق عبر النافذة، ولا أرى إلا انعكاس وجهي المُرهَق يرمقني، أنا أخرى محبوسة بالخارج في انعكاسي. الفكرة أصابتني بالقشعريرة وقد أدركت أن أي شخص قد يكون بالخارج الآن ينظر إليَّ من الجهة الأخرى.

أطفئ الأنوار بمجرد أن بدأ الماء في الغليان، وبعد لحظات تعتاد عيناي الظلام، ينسكب ضوء القمر مُشكِّلًا خطوطًا بيضاء على أرضية المطبخ، تقطعها ظلال الأغصان الكثيفة بالخارج.

أقترب من النافذة، ومرة أخرى أحدق إلى الحديقة. هذه المرة أرى مشهدًا مؤلَّفًا من الظلال الوحشية السوداء والرمادية، تتماهى مع محيط الليل عند الأفق.

أضيِّق عينيَّ. أكانت هذه بقعة من ضوء أصفر؟ أرمش، فيختفي كأنما لم يكن. قلبي يدق أسرع؛ هل كان هناك أحد بالخارج؟ أهي فيبي؟ لماذا ستقف فيبي في حديقتي في منتصف الليل؟ هل هذا تلفيق من خيالي المُتعَب؟

أرمش مرة أخرى. لا شيء.

لا يوجد شيء بالخارج. أزفر الهواء الذي كنت أحبسه في صدري، ثم أنظر نحو الباب الخلفي.

لم تكن أمنا دومًا مجنونة.

أتجه إلى الباب ثم أجذب المقبض، أديره إلى الأعلى والأسفل. الباب موصد. أتأكد مرة أخرى، ما زال موصدًا. ساعة الموقد تشير إلى الواحدة وثلاث عشرة دقيقة.

كلا، لم تكن أمنا دومًا مجنونة. هذا ما اعتادت فيبي أن تخبرني به على أي حال. ربما كانت غريبة الأطوار، لكنها لم تكن مجنونة.

يصدِر زر الغلاية تكَّة من خلفي. الشاي سيجعلني أتحسَّن. هذا طبيعي، الشاي يجعل كل شيء أفضل كما يزعمون، أيًّا مَن كان أولئك الزاعمون. زيارة فيبي جعلتني غير مُستقرة، هذا هو كل ما في الأمر.

أتمنى لكم حظًّا سعيدًا معها!

هذه هي العبارة التي صاحت بها فيبي منذ أعوام حين جاء آل تامسون كي يتبنوني.

هي مجنونة! *هكذا اعتادت أن تقول أمي. إيما ستُجن، الجنون يسري في دمها مثلي، ومثل العمة الكُبرى جواني!*

كانت مُحقة. أمنا اعتادت أن تقول هذا، واعتدت أنا أن أتذكر أي وقت كانت فيه أمنا طبيعية، لكني عجزت عن تذكر أي شيء سوى جنونها.

عندما فتحتُ البراد كي أخرج الحليب، كان أول ما رأيت صحفة بيض بلاستيكية موضوعة على الرف أمامي، ولم تُفرَغ في الرف المُخصص لها في باب البراد.

كراك..كراك.. كراك..

الذكرى تعود سريعًا. رائحة البيض الفاسد، أصابعها العظمية تنغرس في ذراعيَّ، وجهها يعلوني ضاحكًا، يتساقط على وجهي اللعاب الدافئ وهي تفح بكلماتها.

أنا فقط أريد أن أنام...

أغلق باب البراد. لا أحتاج إلى الحليب، سأشرب الكاموميل.

أتمنى لو أتذكرها غير مجنونة. أتمنى لو كانت دائمًا مجنونة. لا أعرف أي الحالتين أفضل. الفكرتان تحتكان ببعضهما... تنافر معرفي. لماذا يصير الماضي حيًّا إلى هذه الدرجة في الليل؟!

أشباح، أرواح، غيلان، ذكريات.

في الرواق، انزلق معطف كلوي عن الدرابزين وتمدد على الأرض الخشبية كجلد بشري مُفرَغ. أنحني وألتقطه، وأضع كوبي على الأرض كي أتمكن من جمع ما سقط من جيوبه من عملات معدنية وأحمر شفاه وأغراض مراهقين غريبة.

متى جُنت؟ ولماذا؟

أعيد آخر ما سقط إلى الجيوب، وقد أدركت أني في نفس مستوى الخزانة تحت السلم. الهواء يبدو أبرد، والباب أضخم من منظوري قرب الأرض، منظور عين الطفل. أستطيع أن أتبين كل ضربة فرشاة طلاء على الخشب بالأسفل. قلبي يدق كالطبل وتقبض عليَّ الذكريات مُجددًا.

أريد أن أفتح الباب. لا أريد أن أفتح الباب.

كم مر من الوقت قبل الليلة التي كففْتُ فيها عن النوم؟ كم مر قبلها ولم تنم؟

أحدق إلى الباب، أحدق خلاله إلى الفراغ خلفه.

لماذا قالت إنني سأُجن؟ لأنها كانت مجنونة، وهذا شيء يقوله المجانين. أكاد أضحك من تفكيري الذي ذكَّرني بالرسوم المتحركة التي يكتبها دكتور سوس.[1]

(1) ثيودور سوس كاتب قصص أطفال أمريكي، ورسام، ومنتج، كتب أكثر من ستين قصة للأطفال تحت اسم: دكتور سوس.

مع ذلك، أظل أحدق إلى الباب أكثر، فهو كل ما يمكنني رؤيته، كأنه هو العالم بأسره، الكون كله، ولا شيء موجود إلا هو.

إلهي، أنا مُتعَبة.

تتقلص عضلات قدمي فجأة، فأقف وأشهق ألمًا. الألم الشديد كالطعنات، أعلِّق معطف كلوي، ثم أرشف مشروبي. أجفل فورًا؛ المشروب بارد بلا طعم. لا يمكن هذا، فقد غليتُ الماء، أنا متأكدة. يزول التقلص العضلي ويسري التنميل في ساقيَّ الخدِرتين.

أنظر خلفي إلى باب الخزانة، فالبديل لتشتيتي أثار اشمئزازي. لا بد أن المشروب قد برد وأنا أحدق إلى الباب، لكني ظننت أنه لم يمُر على تحديقي سوى دقائق.

لكن حقًّا، كم مكثت في وضع القرفصاء هذا؟

-9-

تسعة أيام حتى يوم عيد الميلاد

أشرب كوب قهوتي الثالث، أشعر بخليط من طاقة غضب وإرهاق حقير. لا أعرف إن كنت أرى عائلتي من خلال مُرشح مزاجي السيئ، أم أنهم جميعًا وجِمون مثلي هذا الصباح؟

نزلت كلوي لمدة خمس دقائق قبل أن يرن إشعار وصول رسالة على هاتفها، فهرعت عائدة إلى حجرتها. أما ويل فكان يجلس إلى طاولة المطبخ، يرسم في دفتره في تركيز وهدوء بعد مداعبات صباحية باهتة مني. يظل مُتكورًا فوق رسمته يرفض أن يُريني إياها.

أقول: «هل أنت بخير أيها القرد؟».

لا يرفع وجهه. بالتأكيد هناك خطب ما.

- هل أفزعك بِن أمس؟

هل يعاني مواقف مماثلة مع بِن في المدرسة؟ دفْع طفل من فوق الترامبولين سلوك متطرف للغاية. ماذا لو أن ما فعل لم يكن إلا حلقة من سلسلة طويلة من التنمر؟

يقول روبرت وهو يدخل من الحديقة، ويضع طبق شطيرته وكوبه المتسخ جانبًا: «لا تدُسي الأفكار في عقله. غالبًا هو قد نسي ما حدث».

لا يزال مرتديًا منامته، ووجهه منتفخ من أثر نوم عميق. الآن فقط يمكنني تطليقه بدافع الحسد المحض. بعدما شربت الكاموميل عدت إلى الفراش وعجزت عن النوم، ليس قبل أن تبدأ الطيور في غنائها، وقتها فقط غفوت ساعة أو نحو ذلك. خلال كل هذا كان غافيًا في سلام إلى جواري كقط صغير.

غافيًا... غافلًا.

لن أتمكن من العيش بهذه الكيفية، أحتاج إلى أقراص منوِّمة. ثمة صيدلية في متجر أسدا[1]، غالبًا سأجد عندهم منوِّمًا.

أسأله: «هل سنحتاج إلى شيء من متجر البقالة؟ سأشتري كعكة للعمل. اليوم هو عيد مولد جايد».

جايد واحدة من المتدربين لديَّ، فتاة لطيفة تعمل بجد -على الرغم من خلفيتها الاجتماعية- كي تصل إلى حيث تتمنى، ولو كنت سأشتري كعكة بنفسي بدلًا من أن أطلب من روزماري شراءها، فستكون هذه الكعكة لها.

قال روبرت: «عظيم».

وهو يبعثِر ما خلف غلاية الماء: وصفات طبخ، وملاحظات، وقصاصات أخرى.

يناولني أخيرًا قائمة المشتريات وهو يقول: «كنت سأذهب لاحقًا، فلو كنتِ مسرورة بفعل ذلك بدلًا...».

- أنت تمازحني!

أنظر إلى القائمة التي أثارت حنقي. هذه قائمة مشتريات نصف أسبوعية كاملة، وليس غرضًا أو اثنين، بالإضافة إلى كل مستلزمات غداء ويل الأسبوع القادم.

- لا تبدئي الشجار يا إيما. اليوم هو الأحد. اهدئي.

- وكيف أبدأ الشجار؟

من الواضح أنني أنظر إليه بعينين متسعتين، لكن ماذا كان يتوقع؟ على قدر ما أنا شاكرة لقبوله دور المقيم في البيت، فإنه ينتهي بي الأمر وأنا أقوم على أغلب شؤون المنزل.

قال: «أنا لم أقل شيئًا».

---

(1) ASDA سلسلة متاجر بريطانية شهيرة.

- أنت تقول شيئًا الآن.

يشرع في ملء كوبه بالقهوة مرة أخرى. هل قتلَ زوجان بعضهما من قبل تحت تأثير فرط استهلاك الكافيين؟

يقول لي: «أنا لست ربة منزل لعينة. كتبت القائمة الجمعة، وكنت سأذهب لشراء ما بها لاحقًا لولا أنكِ تطوعتِ بالسؤال».

يفتح باب البراد، فأحاول ألا أفكر في البيض وأنا أقول: «كان يمكنك الذهاب بعد توصيل ويل إلى مدرسته. متجر أسدا في طريق عودتك».

- كُفي عن مُخاطبتي كأنني طفل. أنا رجل بالغ. فقدت الإحساس بالوقت ونسيت. ليس هذا هو نهاية العالم اللعين، ولو أنك تظنين أن حياتي كلها ستكون طبخًا وتنظيفًا وأعمالًا منزلية، فعليكِ أن تعرفي أنني لم أرغب في هذا. ويل في المدرسة الآن وأفكر في العمل بدوامٍ كامل، في أن أبني حياة عملية لنفسي.
- أكل هذا بسبب ما قلت في حفل الشواء أمس؟ كنت أريد أن أدعم صديقتك، لا أن أثير حنقك.
- صديقتنا يا إيما. ميشيل صديقتنا.

يرفع ويل رأسه عن رسومه، ينظر إلينا مُتفحصًا بعينيه الداكنتين. كان نقاشنا بريئًا لكننا بدَونا كأننا نحتك ببعضنا حتى نتقرَّح.

أقول وأنا أجذب مفتاح السيارة: «لنتحدث لاحقًا في هذا الأمر».

يقول روبرت بهدوء، يكاد يصل إلى التهديد: «لا يمكن أن يدور العالم في فلكك إلى الأبد. أحتاج إلى حياة خاصة بي».

***

ظللت مُشتَّتة وأنا أدور في أرجاء متجر البقالة المزدحم رغم أنه قد فتح أبوابه منذ عشر دقائق فقط. اشتريت منومًا من الصيدلية.

أجل، الأقراص من أجلي. كلا لست حاملًا، فقط هاتها.

ثم بدأت ألتقط الأغراض المكتوبة في قائمة روبرت. غضبي وضيقي هما ما يجعلانني أحيا. لا يعرف روبرت كم أكد في عملي كي أنفق على عائلتنا. أجل، أنا أحب عملي، لكن ضغوط الأمومة ولُقمة العيش تخنقني، والآن يلومني حتى على هذا.

وكأنني آلة، أملأ الحقائب بالمشتريات، ثم أحاسب وأدفع عربة التسوق إلى سيارتي.

الشمس ساطعة، يُعميني ضوؤها. أسمع عبارة «*ابتعدي عن الطريق أيتها السافلة*» ثم أرى عربة تسوُّق خاوية تضرب عربتي بقوة، كأن الضربة عن عمد. لم يكن أحد يدفعها، ثم أنظر مذهولة إلى ثلاثة شباب يعتمرون قبعات البيسبول ويرتدون قمصان ذات قلنسوة، ويقهقهون ساخرين وهم يتقدمون نحوي. اثنان منهم لا يزال معهما عربتا تسوق، يدفعانهما نحوي وهما يضحكان.

أصيح وأنا أدفع العربات عن طريقي: «اكبروا!».

كانوا مجرد أولاد في سن الخامسة عشرة. رغم أن دقات قلبي قد تسارعت، أرفض أن يُرهبني بعض الصِّبية في وضح النهار. سيارتي تبعد عني بضعة أقدام، ولم أتوقف عن السير، لكنهم أحاطوا بي.

- لا تخافي يا جدتي، نحن فقط نمزح.

- بو!

لم أكن أعرف أن هناك واحدًا آخر خلفي، لذا تفزعني صيحته وأقفز في مكاني. رائحة أنفاسه تعبق بالتبغ، أشعر بها دافئة على عنقي.

ألتفتُ وأصيح: «ابتعد من هنا!».

كان طويلًا، أكبر بقليل من الآخرين.

يتراجع بضع خطوات وهو يضحك ويقول: «أنت مجرد بقرة جافة عجوز».

أنا مرهَقة للغاية، حانقة. تتكور قبضتاي وأشعر برغبة عارمة في الاندفاع نحوه. ينضم إليه الآخرون ويتصايحون ويهرولون وقد تركوا العربات، واتجهوا نحو مطعم ماكدونالدز جوار محطة تزويد الوقود خلف ساحة الانتظار. آخذ نفسين عميقين، ثم ألتفت إلى عربتي. الملاعين. لن يكبر ابني ليصير مثلهم أبدًا. ولا حتى بعد مليون عام.

ألقي ما اشتريت على مقعد السيارة الخلفي، ثم أركب وأغلق الباب، أشعر بالإرهاق مرة أخرى. شعور مريع. كيف يعيش الناس دون نوم؟ كم تبقى حتى موعد النوم؟ ما زال أمامي الكثير.

اليوم دافئ. رحل الأوغاد ليضايقوا العاملين التعساء في مطعم البرجر. الهواء الدافئ القادم خلال غلالة النافذة يُهدئني. الساعة الحادية عشرة والنصف. لقد أنهيت التسوق سريعًا بالفعل. سأظل قليلًا هنا، ربما عشر دقائق؛ لا يوجد ما يحتاج إلى التبريد ضمن المشتريات. أغلق عينيَّ وأقتل أولى لمحات الصداع قبل أن تبدأ. أريد بعض الوقت لي قبل أن أعود إلى أعباء العائلة. لكم أحتاج إلى هذا الوقت!

أفتح النوافذ رغبة في المزيد من النسمات الدافئة، ثم أستند إلى مسند الرأس. هذا جيد. عشر دقائق فقط هي كل ما أحتاج إليه.

أستيقظ فزِعة (*من أنا؟ أين أنا؟*) بسبب طفل يبكي جالسًا في عربة تسوق تمر بجواري. رأسي ينبض وأشعر بالعطش. الجو حار هنا، هل غفوت؟ أمسح اللعاب الجاف عن ذقني، ثم أنظر إلى ساعتي متوقِّعة ألا يكون قد مر أكثر من دقائق. الساعة الآن الثانية عشرة والربع. غفوت ساعة إلا رُبع؟ إلهي!

أستقيم في مقعدي وأمسد عُقصة شعري التي أفسدتها الكهرباء الاستاتيكية، وأحاول أن أتنبَّه. أجد نصف زجاجة ماء في رف الباب، ورغم أن طعمها كطعم البلاستيك الدافئ فقد أنعشتني. ساعة إلا ربع من الراحة تُعتبر هبة من الله، ويبدو أن نومي كان عميقًا لأنني شعرت وكأنني نمت لحظة واحدة. حياتي الزوجية مستقرة تقريبًا الآن، فلدي نصف فرصة أن أواجه يومي بسلام. الآن أشعر أنني إنسان.

***

يقول روبرت: «أين الكعكة؟».

- أي كعكة؟

نُخرج المشتريات ونضعها جانبًا ولم يكن لديَّ أي فكرة عما يتحدث عنه روبرت. يبدو أنه كان يشعر بالذنب تجاه شجارنا فتخلص من النفايات حين كنت بالخارج.

يقول لي: «الكعكة، لأجل جايد؟ السبب الأصلي لذهابك إلى المتجر».

- أوه، إلهي!

الكذب يولِّد كذبًا. السبب الأصلي لذهابي إلى المتجر هو شراء علبة منوِّم –وقد أخفيتها في حقيبتي كخطاب غرامي– ويبدو أن ملامح وجهي فضحت كذبتي البيضاء لأن روبرت ابتسم.

يقول: «لا تقلقي، سأذهب وأشتري واحدة. كان المفترض أن أذهب في الأساس، فقد كانت مهمتي. سآخذ ويل معي في جولة، وربما نتوقف قليلًا عند حديقة الألعاب كذلك».

يلف ذراعه حول رقبتي ويقبِّل جبيني ثم يضيف: «نحتاج إلى الحديث عن عملي كذلك يا إيم، هذا دوري، أليس كذلك؟».

بعض شعيرات مُنفلتة من عُقصتي مضغوطة بقوة تحت ذراعه، وبدلًا من أن أميل نحو صدره بإرادتي، شعرت أنني محبوسة فيه.

هذا دوري، أليس كذلك؟ يبدو أن الأمر أكبر من مجرد وظيفة بدوام جزئي. لا أريد مربية، ولا أريد لمربية أن تظل حبيسة النوادي بعد الدراسة كل يوم، لكنني لا أستطيع تقليص أيام عملي. لن يستطيع أبدًا توفير نفقاتنا الشهرية، ولن أهجر مستقبلي المهني أبدًا.

أعرف أنني أهوِّل الأمور، لكن بحسب الطريقة التي يتعامل بها مؤخرًا لا أستطيع إلا أن أفكر إن كانت تصرفاته جزءًا من خطة أكبر.

أقول له: «أفهم أنك غير سعيد، وأنا آسفة إن كنت سريعة الغضب».

كل ما أريده هو أن أجد مسلسلًا بسيطًا تدور أحداثه في حجرة واحدة، وأغوص في الأريكة لأشاهده على شاشة التلفاز.

أكملُ: «يمكننا الحديث لاحقًا».

آخذ نفَسًا عميقًا وأهدأ. ربما يريد أن يعمل، لكنه لن يبحث عن وظيفة تنفيذية ويبدأ من أسفل سلم العمل وهو في الأربعين، لن يتحمل هذا. لماذا إذًا يجادل في أمر لن يحدث على الأغلب؟

-10-

كنت غائصة في الأريكة أشرب كوبًا من الشاي وأشاهد مسلسلًا تشويقيًّا رديئًا لكنه مُسلٍّ، حين سمعت صوت جرس الباب. كدت أن أنادي كلوي لتفتح لكني تذكرت أنها تضع سماعات الأذن كعادتها، مانعة اختلاط حياة عائلتها بحياة مراهَقتها.

لو أن مَن بالباب من أتباع شهود يهوه[1]، فما سيسمعونه مني سيكون أبعد ما يكون عن القدسية. لكنني وجدت سيدة في مثل عمري، أو ربما أكبر بعامين، ذات شعر أسود حالك تعقصه على هيئة ذيل حصان وترتدي زي الممرضات. كانت تبدو خرقاء مُرهَقة مثلي. مكتوب على الشارة المعلَّقة على ردائها اسم «كارولاين».

أقول: «أجل؟».

أهي ممرضة من المستشفى؟ أم من الوحدة؟ أهي هنا بشأنها؟ كيف حصلت على عنواني بحق الجحيم؟

تقول هي: «وجدت هذه. في ساحة انتظار متجر أسدا».

كانت تحمل محفظة... محفظتي!

تُردف: «وجدتها جوار ماكدونالدز. كنت سأسلِّمها للمطعم لكني وجدت عنوانك في رخصة القيادة، وكنت سأمر من هذا الطريق».

تهز كتفيها كأنما تعتذر في حرج، وفجأة بدأ مخي في العمل.

---

(1) شهود يهوه طائفة مسيحية لا تؤمن بالطوائف المسيحية الأخرى، واعتاد بعض أعضائها الذهاب إلى البيوت للتبشير بمعتقداتهم.

- أوه، إلهي! شكرًا جزيلًا لكِ.

أولئك الصبية الملاعين. آخذ المحفظة منها وأتحقق فورًا من وجود بطاقاتي بها.

أنظر إليها وأقول: «كان هناك أربعون جنيهًا».

تزايد غضبي، لا بد أنهم هم *أولئك الصبية الملاعين.*

تقسو نبرة صوتها قليلًا وهي تقول: «لم آخذها. ربما تكون مرتبات التمريض قليلة، لكننا لا نعوض الفارق بالسرقة».

تتوقف سيارة روبرت أمام المنزل، فتلتفت كارولاين تنظر إليها، ثم إلى سيارتي، ثم إلى منزلنا. لا بد أنني أبدو الآن كبقرة متغطرسة.

يحترق وجهي بلهيب الحرج وأنا أهتف: «أوه، أنا لا أتهمك...».

غريبة تُعيد إليَّ محفظتي، وأنا أتهمها بالسرقة!

أردف: «كان هناك بعض المراهقين... أعني... يبدو أنهم هم من أخذوا المال. كانت حقيبتي في عربة التبضع وقد شتتوني. بأمانة، أنا...».

- لا تهتمي. أنا أفهم. عمومًا يجب أن أرحل.

- دعيني أقدِّم لكِ شيئًا كشكرٍ على... لديَّ بعض المال بالداخل، لأجل المشقة التي تكبدتِها.

لأجل المشقة التي تكبدتها. هذه عبارة مما تستخدمها الجدات. كل ما في الأمر أنني لا أريدها أن ترحل وهي تظن أنني شنيعة.

- لا تعبئي، فقد كنت أمرُّ من هذا المكان.

تستدير سريعًا وتكاد ترتطم بروبرت المبتسم الذي يحمل كعكة لا أحتاج إليها. تعتذر وتبتعد، بل إنها تهرول مبتعدة، متسائلة على الأغلب عن سبب مجيئها لتسليم المحفظة من الأساس.

أصيح: «شكرًا جزيلًا لك!».

ترفع يدها قليلًا نحوي وهي تستدير لتغيب عند المُنعطف. أراهن أنها تنعتني بأبشع الصفات في نفسها. أتبع ويل وروبرت إذ يدخلان المنزل، ولا أخفي أنني سعيدة على الأقل لاستعادة محفظتي.

***

مر اليوم سريعًا -كعادة أيام الأحد- مُنجرفًا وسط أنشطتنا الخاملة: روبرت يشاهد التلفاز، وأنا أخرِج مقص البستنة وأقلِّم شجيرات الأزهار بالخارج. بحلول بداية المساء، ينتهي مخزون الهدوء الذي حصلت عليه في أثناء استرخائي في السيارة. أزعم أن الصداع يهاجمني –وكانت نصف كذبة مني، فقد كان هناك صداع ينمو في رأسي بالفعل- وأصعد لأرتاح بالأعلى وأجلب في طريقي كومة المناشف النظيفة من حجرة التخزين، وهو عمل آخر لم يقم به روبرت منذ أيام.

حين وصلت إلى الحجرة الإضافية كي أضع المناشف في خزانتها، وجدتها خانقة رغم حلول الغسق، لذا فتحت النافذة. أنفاسي تخنقني.

أرى فيبي تقف جوار سيارتي أمام المنزل، تحدق إليه، تقبض كفيها، شعرها يغطي وجهها، لكن وضعية وقوفها المتصلبة المشدودة تزعجني. بعد لحظة طويلة، تلتفت وتسير مبتعدة. كان يمكنني مناداتها عبر النافذة وإيقافها، لكني لم أفعل. كانت ستعود، ثم ماذا؟ كف من كفيَّ يتكور على هيئة قبضة.

كيف وصلنا إلى هذا الحال؟ أنا وأختي الكبرى؟

-11-

هذا أكبر من قدرة المنوِّم على الإصلاح.

أتحقق من مقبض الباب الخلفي، أهزه مرة أخرى كي أتأكد من إحكام غلقه. أتحقق من سلامة الطفلين، كلاهما نائم. روبرت -بالطبع- نائم كذلك. الحجرات الاحتياطية خالية. أنا وحدي مستيقظة.

يحدق إليَّ انعكاس وجهي في زجاج النافذة، شعري الطويل يخفي نصف وجهي. أبدو مرهَقة، يائسة. عزمت على ترك الأنوار مضاءة هذه المرة لأبعد الإحساس المقيت أن أحدهم يراقبني (*من قد يكون في الحديقة بعد الواحدة صباحًا؟*) لكني لم أستطع. أهرع إلى مفتاح النور وأغلقه، كما أغلق عينيَّ بقوة حتى تختفي الظُّلمة الخانقة تدريجيًّا.

الخانقة.

أعود إلى النافذة. انعكاس وجهي صار شبحيًّا. أنظر إلى الخارج فلا أرى أي ضوء. السحب كثيفة منخفضة تجعل الليل لغزًا. لا يوجد أحد هناك، هكذا أخبر عقلي الذي يهمس بإصرار أنه ربما يكون أي شخص بالخارج الآن، وليس بالضرورة فيبي. هي لم تجرؤ حتى على الوصول إلى الباب الأمامي. ماذا كانت تفعل قبل أن أراها؟ أكانت تحاول أن تعتذر لكنها لم تستطع إجبار نفسها على ذلك؟ لم يبدُ الأمر كذلك، لكن ربما يكون هذا بسبب أرقي.

لماذا لم يعمل المنوِّم؟ لمَ يجافيني النوم؟ بالكاد أنا في الأربعين من عمري. متى بدأتْ في فقدان القدرة على النوم *قبلها*؟

أشغِّل الغلاية الكهربية كي أصنع مشروب الكاموميل. هل أضيف بعض الفودكا إليه كما اقترحت ميشيل؟ أحدق إلى خزانة الخمر لدقيقة طويلة مغوية أكثر مما يجب قبل أن أستدير مُبتعدة.

كانت تشرب حين تُصاب بالأرق.

تنطفئ الغلاية، فأصب الماء، ثم أنظر إلى الباب الخلفي مرة أخرى. هو موصَد، أليس كذلك؟ أجل. أجل. لكني أتحقق مرة أخرى. هذا سخيف. هذا... ومنعت نفسي من نطق لفظة «جنون». كل هذا محض خيال من عقلي. ربما هو أمر هرموني. مؤشر على اقتراب *التغيير*. أدير رأسي يُمنة ويسرة ثم أرتشف المشروب الساخن. أنظر إلى الساعة فأجدها الثانية وخمس دقائق، الوقت يزحف بنا إلى صباح الاثنين.

أتوقف مرة أخرى عند الخزانة تحت الدرج، أجثو وأنظر إلى الباب. سيكون *هنا* نمور.[1] خطرت ببالي تلك العبارة رغم أنني غير واثقة من معناها. أضع الكوب على الأرض –ما زلت أشعر بحرارته في كفي- وأفتح الرتاج ثم الباب.

لم يكن هناك شيء إلا النفايات المعتادة. زوجا أحذية بلاستيكية ذات رقبة عالية، مضربا جولف قديمان قد استعارهما روبرت من أحدهم ولم يعِدهما قط. مكنسة كهربية محشورة بميلٍ غريب، فأمد ذراعي أعدِّل وضعها، لكن الفراغ الذي نتج عن فعلتي أزعجني. بدا لي كفجوة قد تسحبني ولا تعيدني مرة أخرى. بدا لي *كتلك* الخزانة. هممت أن أغلق الباب، لكنني أتوقف برهة، وأحرك أصابعي بخفة على الخشب. خشن، لكنه سليم، بلا خدوش.

أرتاح. هذا ليس الماضي، وأنا لست هي.

أرتاح أكثر حين أعود إلى مشروبي فأجده ساخنًا. لم أجلس القرفصاء طويلًا هنا هذه المرة. أذهب إلى مكتبي وأغلق الستائر (لا يوجد ما يُرى هنا) قبل أن أضيء مصباح المكتب. أكتب لفيبي رسالة نصية أعتذر فيها عما بدر مني من كلمات قاسية وأرسلها سريعًا قبل أن أغيِّر رأيي، ثم أفتح حقيبتي وأخرج دفتر ملاحظاتي وحاسوبي المحمول ومُسجل الصوت الصغير. لديَّ بعض الخطابات لأرسلها، فقررت أن أمليها على المُسجل وأجهِّز نفسي للغد.

---

(1) Here there be Tygers

هي قصة قصيرة لستيفن كينج -الاسم ليس به خطأ في الكتابة- تدور حول نمر ما ورائي يختبئ في حمام مدرسة وينتقم لأحد الأطفال ممن يضايقونه.

العمل مَرساتي، وخلال نصف ساعة كنت قد هدأت وكل أفكاري عنها -وإن لم تزل تمامًا- قد أودِعَت ركنًا متربًا من عقلي.

أفقد إحساسي بكل شيء في خِضم ملفات القضايا، ثم أسجل الرسائل التي أريد أن ترسلها روزماري. عندما انتهيت، كانت الساعة الرابعة قد حلَّت وعيناي توخزاني. كنت واثقة أن الساعة قد جاوزت الثالثة بدقائق منذ ساعة. الوقت يجري حين تسعى في إنهاء الزيجات.مكتبة سُر مَن قرأ

أغسل كوبي وأتأكد أنني أعدت كل شيء إلى سابق موضعه قبل أن ننام (لا داعي لأن يعرف أحد) ثم أتسلل على أطراف أصابعي إلى الأعلى بينما الطيور تغني على خلفية من سماء الفجر الزرقاء.

أنزلق تحت الأغطية جوار روبرت وأتمنى ولو ساعة نوم واحدة. أغمض عينيَّ وأغوص في عالم السلوان.

-12-

ثمانية أيام حتى يوم عيد الميلاد

لاحظت الإطار الفارغ بمجرد أن فتحت باب السيارة ولم تعد أجمة الأزهار تخفيه. روبرت ليس من الذين يرحبون بالخروج في السادسة صباحًا ليساعدوا في تغيير الإطارات، لكنه فعل. ظللت أراقبه وأتظاهر بأنني أتعلم كيف أغيرها بنفسي، لكني كنت أعرف أن كل شيء ذا صلة بالميكانيكا يستغلق على فهمي ويحوِّلني إلى عار على النسوية.

يقول روبرت: «أحدهم أفرغ الإطار عامدًا. انظري».

أرى القَطع، وكان لديه حق، القَطع نظيف محدَّد.

- لكن لماذا؟ من قد يفعل ذلك؟

- أراهن أنهم أولئك الأولاد الذين يتسكعون دومًا عند ملعب الكريكت. تقول ميشيل إنهم عصبة من المرضى المعادين للمجتمع. على الأقل لاحظتِ الإطار الفارغ وأنتِ هنا، ولم يحدث ضرر حقيقي.

لم يحدث ضرر حقيقي. ليس هو مَن كان سيقود السيارة.

أقول له: «أعتقد أنك أخبرتني أنك ستُركِّب كاميرات مراقبة خارج المنزل».

ينفِّض يديه وهو يقول: «سأفعل. أنا فقط لم أضع الأمر محل الاهتمام بعد».

أغمغم: «مثله مثل كل شيء آخر».

ثم أسكِتُ نفسي. يبدو أن بداية يوم الاثنين هذا غير موفَّقة على صعيد علاقتنا. حمدًا لله على نعمة العمل. أركب السيارة ولم نتبادل سوى وداع فاتر. حمدًا لله على ذلك.

يخطر ببالي وأنا في الطريق احتمالية أن يكون الصبية الذين قابلتهم في المتجر هم من فعلوا ذلك حين نمت في السيارة. أم أن هذا حدث ليلًا؟ عنواني كان مذكورًا في أوراقي في المحفظة، فهل عادوا لمشاغبتي مرة أخرى؟ هذا بدوره دفعني إلى التفكير في الممرضة التي أعادتها لي. كانت تبدو مرهَقة ضجرة مثلي. روح مثقَلة، ربما وحيدة كذلك. تتقلص معدتي حين أتذكر كيف عاملتُها. يبدو أن هذا سيكون آخر فعل خير تقوم به لفترة طويلة.

يصير الطريق أكثر وعورة من تحتي، فأبطئ سرعتي أكثر وقد عادت أفكاري مرة أخرى إلى الإطار المُخرَّب. يصفعني خاطر آخر: هل يمكن أن تكون الفاعلة ميراندا ستوكويل؟ أنا متأكدة أنها خدشت سيارتي وتركت رسالتها تحت مساحة الزجاج، لكن هل تعرف أين أسكن؟ هي ليست مستقرة نفسيًّا، وهذا جلي في كل الوقائع التي ضمَّنها باركر في ملفات القضية التي قدمناها للمحكمة. مئات المكالمات الهاتفية، رسائل بذيئة، ادعاؤها أمام الشرطة أن أولادها مخطوفون، اقتحام منزل الزوج وتحطيمه. هل وجَّهت غضبها تجاهي؟ ما حدود قدراتها؟ يجب أن أعرف.

***

آليسون موجودة وقد تركت باب مكتبها مفتوحًا كي تُمكِّنني من رؤيتها تعمل، لكني أبتسم وألقي عليها تحية الصباح ثم أضع مسجل الصوت على مكتب روزماري، وأترك لها ملحوظة أن تتصل بمختص لتغيير إطار السيارة قبل أن تُحضر قهوتي، ثم أضع الكعكة في المطبخ مع رسالة تدعو العاملين للأكل منها كما يشاؤون، بعدها أتجه إلى مكتبي وأرتمي على الكرسي مُتمنية لو أن عظامي لا تؤلمني إلى هذا الحد.

بعد أن أرتاح للحظات، أفعل ما يجب فعله، أتصل بباركر ستوكويل. الساعة السابعة والنصف، لكني أعرف نمط يومه. هو يستيقظ في الرابعة والنصف على الأكثر ويحافظ على هذه العادة كوسام شرف، ثم يتجه رأسًا إلى صالة الألعاب الرياضية، ثم إلى العمل في السابعة. إذًا هو كان مستيقظًا على الأغلب وأنا أندس في فراشي مرهَقة آملة في نوم ساعة.

صوته هادئ: «إيما، مرحبًا. يا لها من بداية يوم اثنين لطيفة».

أقول له: «أردت فقط أن أشكرك على الأزهار. ما كان لك أن تتكلف العناء، لكن أشكرك على الأزهار الجميلة».

- الأزهار الجميلة لا تُمنح إلا لسيدة جميلة.

هل قال بالفعل هذا؟ مقزز. ثم أدرك أنه ربما فهم تصرفي على أني صبرت حتى مرت إجازة نهاية الأسبوع كي لا أهاتفه أمام زوجي.

- كنت أتساءل، هل تواجه مشكلات من أي نوع مع ميراندا؟ أي نوع من التواصل أو المشاحنات بعد صدور الحُكم؟

- ميراندا؟ كلا، لقد سافرتْ إلى والديها في لندن. أنا متأكد أنهما أتيا يوم السبت وأخذاها معهما. هذا ما أخبرني به الأولاد وما قالته هي. ربما يساعدها قضاء بعض الوقت مع عائلتها.

- جيد. هذا ممتاز.

هذا جيد بالفعل. لو أنها غادرت «مدينة ليدز» يوم السبت فهي لم تخرق إطار سيارتي مساء الأحد. ربما الصِّبية من المتجر هم من فعلوها.

أضيف: «لو بدر منها أي تصرف مزعج أبلغ الشرطة بدلًا من الرد عليها، فاستفزازك سيكون مبتغاها».

- جميل أن أعرف أنك ما زلتِ تهتمين بي وتعتنين بشأني. أتشوق للعشاء...

- يجب أن أذهب الآن، آسفة يا باركر. لديَّ مكالمة تحتاج إلى ردي.

بالمصادفة يرن هاتفي، فترتخي عضلاتي. أنا بالفعل لا أريد الخوض في هذه الأمور بعد أن حصلت على المعلومات التي أريدها، بالإضافة إلى أنني قد أعطيته انطباعًا خاطئًا تمامًا عن نياتي.

أغلق مكالمتي معه وأنظر إلى هاتفي المحمول، رسالة من فيبي...

«أعتذر عن عدم ردي، كنت نائمة. آسفة كون أعصابي انفلتت، كلتانا مضغوطتان نفسيًا. بالمناسبة، هل استيقظتِ مبكرًا أم ستستيقظين مُتأخرًا؟ أعرف أنك قلتِ إنك لا تهتمين، لكن حالة الوالدة قد تدهورت قليلًا هذا الصباح. سأذهب إلى المستشفى. آسفة لأني لم أخبرك بأنني عدت».

هل استيقظت مبكرًا أم ستستيقظين مُتأخرًا؟ أحدق إلى هذا السؤال وثِقَله. أستطيع قراءة المعنى وراءه. هي لم تذكر أنها كانت أمام منزلي ليلة أمس كي تخبرني بتدهور حالة أمي، لكن نظرًا إلى سياق الرسالة فأعتقد أنها كانت ستعتذر لي فقط. من يعرف ما تفكر فيه فيبي؟ مع ذلك، حمدًا لله أننا لم نتشاجر اليوم على الأقل.

***

بحلول موعد الغداء -وأنا بعد بين القهوة والإرهاق- يبدأ إحساس الغثيان في التحوُّل إلى صداع وافتقاد الهواء النقي. أفتح النافذة أستنشق نفحات هواء المدينة النقي -إلى حد ما- وأميل إلى الخارج بقدر ما يسمح لي زجاج النافذة. أشعر براحة فورية، فأرتكن إلى الإطار أستمتع باللحظة وأشاهد المارة بالأسفل.

أتصلب وأعقد حاجبيَّ. لا أعرف حتى لماذا لفتت الواقفة عند الشارع الجانبي نظري. ربما ثباتها وحركة كل ما حولها؟ هل تنتظر شخصًا؟ مكان غريب للانتظار بينما يعج الشارع بالمقاهي والحانات. الشارع الجانبي لم يكن راقيًا، وهي امرأة مُسنة ذات شعر رمادي ترتدي معطفًا بنقشة المربعات يبدو غير تقليدي بالنسبة إلى سيدة في عمرها. نصف وجهها مخفي خلف نظارة شمس عملاقة. تنظر إلى أعلى نحو المبنى، وحين تلتقي عيناي بنظارتها تتراجع سريعًا إلى الظلال، وكأنها لا تريد أن يراها أحد.

أهي تراقبني؟ أم فقط أصابها الحرج من نظراتي؟

بصعوبة، أستطيع أن أبعد عينيَّ عنها وأنظر إلى الجهة المقابلة، فتبتعد عن مدخل الشارع وتنطلق عبر الطريق الرئيسي ولا تنظر خلفها، وأنا أتابعها.

قالت روزماري: «صديقة تسأل عنك، اسمها ميشيل وتسأل إن كانت لديك عشر دقائق لتقابليها».

أستدير خلفي نحو روزماري التي تقف عند باب مكتبي وتردف: «أخبرتها أنك في استراحة الغداء. أوه، ورشة الإصلاح ستعيد سيارتك في الساعة الثانية تقريبًا».

ميشيل هنا؟ ماذا قد تريد مني؟ أتعجب أنها تعرف مكان عملي. أنظر عبر النافذة مرة أخرى ولا أرى أثرًا للسيدة المسنة. لم تكن تراقبني. هذا خاطر

سخيف، لكنه جلب معه خاطرًا آخر عن شخص آخر رأيته عبر نافذة. فيبي تقف أمام المنزل ليلة أمس، هل هي من خرق إطاري؟ كانت تكور قبضتيها وقد غلبها غضب مكبوت. أيمكن أن تصل بها الأمور إلى هذا الحد؟ كلا – هكذا أخبرت نفسي- بل هم الصِّبية. لا بد أنهم هم. أغلق النافذة وأدفع عني الخواطر السلبية ثم أخبر روزماري بأن تسمح لميشيل بالدخول.

***

تقول: «ما نتحدث عنه هنا أمر سري، أليس كذلك يا إيما؟ لن تخبري أي شخص؟».

غريب أن أراها هنا، في مملكتي، لكنها اتخذت مقعدًا وأعفتني من مجاملتها، ولم تطلب قهوة. هي في كامل زينتها لكن بشرتها تبدو لي جافة وعيناها محمرتان قليلًا. ربما كانت تعاني الأرق هي الأخرى.

- أجل، هذا صحيح. سنعتبر جلستنا استشارة مجانية، وهذا يضمن لك السرية.

تومئ ثم ترمقني بنظرة نارية حادة قبل أن تقول: «أريد أن أعرف الإجراءات التي سأحتاج إليها إن أردت وجوليان أن ننفصل».

أُذهل. لاحظتُ توترًا بينهما في عطلة نهاية الأسبوع، لكن لم يكن هذا نذيرًا بقرار كهذا.

تكمل: «ولم أذكر نيتي هذه لأي من أصدقائنا، حتى روبرت، لذا رجاء لا تخبريه».

- بالتأكيد.

لست واثقة مما يجب أن أقول، فنحن لسنا صديقتين مقربتين. أسألها: «هل أنت بخير؟».

تحدق إليَّ بتعبير جامد وتجيب: «جوليان على علاقة بامرأة أخرى. أنا متأكدة من ذلك. علاقتهما مستمرة، منذ فترة فهو يعمل لوقت متأخر ويبتعد عن المنزل فترات طويلة».

- قد يكون مشغولًا في مشاريعه، فلديه مسؤوليات كثيرة، أليس كذلك؟

أحاول تهدئتها لكن الخبرة علمتني أن حدس المرأة مُصيب دائمًا في مثل هذه المواقف، ومن خبرتي أيضًا أعرف أن النزوات لا تُحتِّم نهاية الزيجات.

سألتها: «هل تحدثتِ إليه عن ظنك هذا؟».

- قال إنني أتحامق، هو لن يعترف لي مباشرة بالطبع، أليس كذلك؟

تنظر إليَّ مُتحدية ثم تردف: «لقد خانني من قبل، حين كنا أصغر سنًّا. نزوات ليلة واحدة في حفلات العمل، لكن أيًّا منها لم يعنِ شيئًا على الأقل بالنسبة إليه، حتى لو أن تلك النزوات أثقلتني لكنه كان يندم عليها ندمًا حقيقيًّا في كل مرة. أما هذه المرة فالوضع مختلف، هو بعيد، لا يطيقني، يخبئ هاتفه المحمول. تصرفات مبتذلة لعينة!».

أترك بيننا فترة صمت، ثم أسألها: «أتعرفين مَن هي المرأة؟».

تنظر إلى الحجرة من حولها ثم تجيب: «لا تبدو الأزهار من الهدايا التي قد يختارها روبرت».

غريب كيف تعرف تلك المرأة زوجي إلى هذا الحد!

أقول لها: «هذا صحيح، هي ليست هدية من روبرت، بل من أحد الموكِّلين».

أقولها متوترة، مُحرَجة، رغم أن لا سبب عندي لذلك. ربما لأنها كانت مُقتحمة أكثر مما يلزم لامرأة أتت لطلب المساعدة.

تبتسم بتكلف وتقول: «هدية من معجَب إلى إيما الماهرة. في نخب إيما».

كنت مُتعبة حتى إنني استغرقت لحظات حتى أفهم ما تعني، وحين فهمت ألجمتني الصدمة.

قلت: «أنا؟ هل تظنين أن زوجك يخونك معي أنا؟!».

- كلاكما يعمل لساعات متأخرة، كلاكما لم يعد مهتمًّا بممارسة الجنس مع زوجه...

يا إلهي! أنت من سرَّبت إليها هذه المعلومة يا روبرت، لنا حساب خاص لاحقًا.

تابعتْ: «وقبل أن يغلق خاصية تعقب الهاتف المحمول كان يترك سيارته في هذه المنطقة ويخبرني أنه في العمل».

- هذه المنطقة هي وسط المدينة يا ميشيل! ربما كان يقابل أي شخص، ربما كان في اجتماعات عمل. لكن أيًّا كان ما يفعل، فلم يكن يفعله معي. وبما أنك وروبرت تحدثتما في الأمر، فقلة ممارستنا للعلاقة الحميمة هي نتيجة وجود ابننا الصغير وعملي الذي ينهكني اثنتي

عشرة ساعة في اليوم، ومع ذلك فالإشراف على أعمال المنزل تقع أيضًا على كاهلي لأن الرجال عمومًا حمقى فيما يخص الملابس والأعمال المنزلية والالتفات إلى التفاصيل. الحقيقة أنا مرهَقة حد الإنهاك التام طيلة الوقت. ولأجل تسجيل الموقف، هو من جانبه لا يحاول مضاجعتي كل ليلة كذلك.

لم تبدُ مقتنعة، لكن على الأقل رأيت لمحة شك في ملامحها.

- إذًا لماذا يتغنى جوليان بمديحك طيلة الوقت؟

- لا أعرف، لكني أقسم بالله يا ميشيل ليس لدي طاقة كي أضاجع زوجي نفسه، وبالتالي ليس لدي وقت لمضاجعة زوجك.

باحت كلتانا بكل ما تخفيه، وصارت هي على شفير البكاء. أقول لها: «اسمعيني، ربما لديه ما يقلقه بخصوص المال أو العمل وأنت لا تعرفين هذه المنغِّصات، أو ربما يمر بأزمة منتصف العمر. يجب أن تتحدثا معًا، ويمكنني ترشيح الكثير من مستشاري العلاقات الزوجية البارعين».

- لن يذهب إلى أيٍّ منهم.

- لن تصدقي كم سمعت هذا من قبل، وكم غيَّر الناس من وجهات نظرهم وذهبوا.

أنظر سريعًا نحو الساعة ثم أضيف: «أنا آسفة بحق، لكن يجب أن أتصل الآن بموكِّل ثم أحضر مؤتمرًا. لكن كل ما قلتِه سيظل سرًّا، ولو احتجت إلى أن تعودي لنناقش تفاصيل التقاضي فأنا أرحِّب بكِ. اتفقنا؟».

- شكرًا.

تقوم. ما زلت مُتحفِّظة ولا أعرف إن كانت قد تخلت عن شكوكها بعد، أم أنها مُحرجة لحديثها معي.

أضيف وهي تتجه نحو الباب: «وأعتذر عما حدث في عطلة نهاية الأسبوع، انفجاري في بِن. لا أقضي وقتًا طويلًا مع ويل لذا فربما أحاول حمايته أكثر من اللازم».

تخرج دون أن تقول شيئًا آخر، فأتضايق لمحاولتي تلطيف الأمور. كان عليها الاعتذار عن ردها عليَّ يومها على الأقل.

تدخل روزماري وتقول: «إيما، ثمة مكالمات مهمة من موكِّلين يريدونك أن تتصلي بهم».

تضع أمامي أربع ملاحظات، ثم تبتعد مترددة.

أسألها: «هل هناك شيء آخر؟».

- أجل. الأمر هو... لدي مشكلة مع الرسائل التي أردتِ أن أرسلها. لست متأكدة. حسنًا، تبدو غريبة بعض الشيء.

أعقد حاجبيَّ وأسألها: «أيها؟».

تغلق الباب خلفها وتجيب: «كلها».

عمَ تتحدث؟

أقول لها: «لا أفهم. المفترض أن هناك ثلاث رسائل على جهاز التسجيل بخصوص قضايا مارشال وسميث ومايكلز. أنا سجَّلتهم ليلة أمس».

لوهلة لم تتحرك، ولم أرها من قبل غير مرتاحة إلى هذا الحد.

أخيرًا تقول قبل أن تناولني جهاز التسجيل: «لا بد أن شيئًا ما قد حدث».

تمسكه وكأنه يشتعل نارًا. في حيرة أضغط زر التشغيل. ثمة لحظات من شوشرة استاتيكية، ثم صوت فحيح، ثم يملأ الغرفة الهادئة صوت همسات سريعة غاضبة:

«... مائتان واثنان وعشرون مائة وثلاثة عشر مائة وخمس وخمسون مائتان وثمانية عشر مائتان واثنان وعشرون مائة وثلاثة عشر مائة وخمس وخمسون مائتان وثمانية عشر مائتان واثنان وعشرون مائة وثلاثة عشر مائة وخمس وخمسون مائتان و...».

كدت أسقِط الآلة الصغيرة وأنا أشهق. تستمر الهمسات وأكاد أقسم أن درجة الحرارة في الغرفة راحت تهبط مع كل كلمة.

«... وثمانية عشر مائتان واثنان وعشرون مائة وثلاثة عشر مائة وخمس وخمسون مائتان وثمانية عشر مائتان واثنان وعشرون مائة وثلاثة عشر مائة...».

هذه هي، هذا أول ما خطر ببالي. أعود إلى طفولتي وأمي تسير جيئة وذهابًا وتتمتم بتسلسل الأرقام ذاته. مرت عليَّ ثلاثون ثانية حتى هبطتْ فوقي الحقيقة المريعة.

لم تكن هي، بل أنا. بالكاد أتعرَّف على صوتي، لكني موقنة أنها أنا.

أغلِق الجِهاز وأقبض أصابعي كي أوقف الرعدة التي انتابتني. كيف سجَّلتُ هذا؟ لا أتذكر أنني فعلتها. لقد كانت خطابات... أنا سجَّلت خطابات.

لم أسجل أرقامها!

تقول روزماري في عصبية: «ساعة التسجيل كلها نفس المحتوى».

أنتزع ضحكة. *أرقامها تنطقها شفتاي.*

أقول وقد جف حلقي حتى ظننت أنني سأتقيأ: «حسنًا، أعتقد أني عرفت ماذا حدث. هذه حيلة لتصفية ذهني كنت أمارسها أمس كي تساعدني على النوم ويبدو أنني قد سجَّلتها بالخطأ فوق تسجيل الخطابات».

هل سجَّلتُ الخطابات من الأساس أم ظننت أني سجَّلتها؟ كيف أجهل شيئًا كهذا؟

تقول: «أوه. لا بأس إذًا».

رغم الثغرات العملاقة في حكايتي (لماذا قد أضع المُسجل جواري وأنا أحاول النوم مثلًا؟) تبتسم روزماري في راحة وتقول: «شيء يثير الحنق فعلًا».

- سأسجِّلها مرة أخرى اليوم قبل مؤتمر السيد ويزر عصرًا، اتفقنا؟

ظلت ابتسامتي متجمدة على شفتيَّ كابتسامة ميت متصلبة.

- سأجلب لك بعض الكعك والشاي؛ فاتك الغداء.

- لفتة لطيفة منك.

أنتظر حتى تغادر الغرفة، يغلبني القيء للحظة وأشعر برأسي يدور. هذه هي أرقام أمي. كم من الوقت عانت الأرق قبل عيد ميلادها الأربعين؟

كم من *الوقت قبل الليلة التي جُنت فيها؟*

***

-13-

أردد لنفسي أنني لن أُجن وأنا أنزل من سيارتي بعد أن استبدلوا إطارًا فاخرًا بذلك القديم، وأميل على السيارة للحظات قبل أن أدخل المنزل. يجب أن أفكر بمنطقية. يبدو أنني كنت نصف نائمة وأنا أسجِّل الخطابات بينما أفكر فيها. هذا هو كل ما في الأمر.

رغم أنني اقترحت على ميشيل في مكتبي فكرة العلاج، لا أستطيع أن أستحضر العزيمة الكافية لطلب الاستشارة النفسية. أنا فقط بحاجة إلى النوم. الليلة سأنام. الليلة ليلة مختلفة، وسأبدؤها مبكرًا.

***

آكل شطائر الدجاج «فاهيتا» التي تركوها لي، عندما ظهرت كلوي عند الباب وهي تدور حول نفسها.

تقول: «ما رأيك؟».

أعقد حاجبيَّ وأقول: «أليس هذا...».

- فستان الخالة فيبي. جاءتني به هذا الصباح. جميل، أليس كذلك؟

بينما تفضِّل ابنتي أن تموت على ألا ترتدي شيئًا من خزانتي، هي ترتدي الآن فستانًا قصيرًا مصبوغًا يدويًّا، ومثل فيبي بالضبط ترتدي تحته بنطالًا ضيقًا أسود اللون. كأنما فيبي اختارت هذه الملابس وهي تعرف أنها ستروق لكلوي وستطلبها منها. نقاط أخرى تُحتسب لفيبي، هي كانت هنا مرة أخرى، ولم تخبرني.

أقول: «تبدين رائعة».

- سأذهب إلى الخالة إيمي، وربما سأبيت هناك، حسنًا؟

- حسنًا. ابعثي لي رسالة نصية حين تصلين، وأكدي لي إن كنتِ ستبيتين هناك.

متى تغير الأمر من الاستئذان منا قبل الخروج إلى إعلامنا فقط؟

- رائع.

قالتها وهي تهرع إلى الباب الأمامي ومنه إلى الحرية.

أسأل روبرت وأنا أنظر إليه عبر الطاولة: «فيبي جاءت؟».

أمر كهذا لم يكن ليقلقني بعد الرسائل التي تبادلناها اليوم، لكن لماذا لم تخبرني بأنها قادمة؟

يقول روبرت وهو يضع بقايا شطائر الدجاج في طبقه ويجلس أمامي: «أجل. أحضرت الفستان ولعبت مع ويل خمس دقائق. هذا كل شيء. مجرد طلَّة سريعة».

هناك كوبان مقلوبان فوق مصفاة الحوض. هي مكثت أطول. قدر احتساء كوب شاي على الأقل وهذا بالنسبة إليَّ أكثر من مجرد طلَّة سريعة.

يضيف روبرت: «كانت هناك مشكلة في المدرسة اليوم. بلَّل ويل نفسه».

تختفي كل خواطري عن فيبي فجأة وأصيح: «ماذا؟! لماذا؟ هو لم يبلل نفسه منذ أعوام».

توقف ويل عن التبول على نفسه سريعًا بالنسبة إلى ذكر، وفي سن أصغر من كلوي، ولم يبلل نفسه بالخطأ منذ كان في الثالثة والنصف من عمره.

قال: «لست متأكدًا من السبب، يبدو أنه فعلها في أثناء استراحة الغداء».

يبدو روبرت غير مهتم.

يضيف وهو يفتح زجاجة بيرة: «لن يُجيب عن أي سؤال حول هذا الأمر، حتى فيبي لم تستطع الخروج بشيء منه».

- يجب أن أتحدث إليه.

يضربني شعور بالذنب الشديد تجاه اهتمامي بعملي. حتى أختي المتغيبة دومًا كانت هنا وحاولت مساعدة الطفل، بينما أنا أعمل.

- هو نائم يا إيما. سيكون بخير.

- ألم يقل أي شيء؟

- كلا، قال فقط إنه كان مشوَّشًا.

- لقد ذكر هذه الشكوى من قبل.

تمر أسوأ التفسيرات على عقلي، كل تلك الأمور التي لم أتوقع أن تصيب ابني بالذات.

أضيف: «ربما هو مريض».

- قال إنه بخير الآن.

ينظر إليَّ روبرت تلك النظرة التي يسددها لي عندما تجرفني الأفكار ويغلبني القلق.

ثم يردف: «هو بخير، وأشياء كهذه تحدث حين يذهب الأطفال إلى المدارس».

- على ذكر المدارس، ماذا قالت مُعلمته؟

- لم تبدُ مهتمة، فقط قالت إنه كان يلعب مع بِن حين حدث هذا.

الآن تتضح الأمور. يحل الغضب محل القلق في نفسي.

- بِن الذي دفعه عن الترامبولين في العطلة السابقة؟

- مهلًا، كان هذا حادثًا. بِن طفل لطيف.

- ألا ترى أنها صدفة غير مقنعة؟ يجب أن تتحدث مع المعلمة غدًا وتطلب منها أن تتكلم مع بِن.

يقول في ضيق: «أعرف كيف أدير مشكلات المدرسة يا إيما. هذه هي مهمتي، أتذكرين؟».

- أوه، كيف أتوقع أن تشكو ابن صديقتك المفضلة ميشيل؟

كنت حانقة تجاه حديثه معها عن حياتنا الجنسية، وحانقة أكثر لأنني عاجزة عن إثارة هذا الموضوع معه.

يقوم هاتفًا: «ماذا بكِ؟ سأتحدث مع إدارة المدرسة غدًا ولا داعي لتلك المعاملة المستفزة. سأتحدث مع ميشيل كذلك إن أردتِ».

- أريد أن يكون هذا برغبتك. لا أعرف كيف لا يثير هذا الموقف غضبك!

- وأنا لا أعرف لماذا يثير هذا الموقف غضبك إلى هذا الحد!

أحدق إلى الطعام في طبقي وأبتلع المزيد من الشجار.

- كان يومي طويلًا.

أرقام أمي...

أكمل: «وكان ويل معتلًّا منذ يومين مما أقلقني».

ربما سيتحدث روبرت مع المُدرِّسة عن الأمر، لكنني أعرف أنه سيقبل أي تبرير يقال كأنه نصٌّ مقدس، وستتحول المشكلة إلى قضية لعب صبيان، ثم سينتهي الأمر عند هذا الحد.

ويل في الخامسة من عمره، أمور مريعة يمكن أن تحدث في سن الخامسة.

يقول روبرت بهدوء: «لا تُخرجي ضغط عملك عليَّ. أنا أفعل كل ما في وسعي هنا».

يأخذ بيرته متجهًا إلى حجرته، ويترك طبقه المتسخ أمامي والمقلاة فوق الموقد. *هل حقًا تفعل ما في وسعك؟* أجد نفسي أتساءل: هل حقًّا تفعل ما في وسعك؟

أكره المطابخ الفوضوية، لطالما كنت أكرهها. صفة أخرى ورثتها منها.

أُصِر على أسناني وأبدأ التنظيف.

***

-14-

الليل مرة أخرى.. الأرق مرة أخرى.

أحدق إلى الخزانة أسفل الدَّرج. *هي ليست خواء. لن تبتلعني*. هي مُظلمة، هذا صحيح، لكنها مجرد خزانة. أشعر بالخدر في ساقيَّ بسبب جلسة القرفصاء، أنظر إليها. المكنسة الكهربية تجاور مضارب الجولف. هي مجرد خزانة. أغلق بابها وأقف. اندفاع الدم إلى ساقيَّ يدغدغهما. كنت قد تناولت قرصين من المنوِّم، لكني ما زلت هنا، مستيقظة، أرِقة.

أعود إلى المطبخ لأغسل كوبي. الباب الخلفي موصد، أعرف هذا لأنني تحققت منه حين نزلت في الواحدة وعشر دقائق.

عادات جديدة، سلوكيات قلق جديدة.

حين أضع الكوب جانبًا، أنظر إلى الطبقة العازلة البيضاء خلف الموقد. طبقة عصرية باهظة، يمكن أن تُستخدم كلوح كتابة سهل التنظيف يدوِّن عليه روبرت ملاحظات يومية عن نواقص المنزل والمهام التي يود تذكرها: موعد طبيب الأسنان، الأطباء، الهراء... في نهاية القائمة أقرأ «تحضير حفل عيد ميلاد إيما». هذا مريع. أمسحها فأجد أنني أمسح كل ما كتب. أحدق إلى الفراغ الذي خلَّفته. هذا مريح.

أنا محطَّمة، ولا شيء يُجدي. بعد لحظات آخذ نفسًا عميقًا. ربما أجرب العودة إلى الفراش وأحاول النوم. يجب أن أجرب بجدية أكبر.

أشعر كأنني مجرد صدى وأنا أنجرف نحو ظلام رواق الطابق العلوي. هل أعبر خلال أشباح نفسي نحو الجانب الآخر؟ ربما خلال أشباح نفسي من ليلة أمس، وأشباح نفسي من ليلة غد.

أمس عند قمة الدَّرج.. عليًّا، قابلت رجلًا خفيًّا..[1]

---

(1) من قصيدة «الرجل الصغير الخفي» للشاعر الأمريكي ويليام هيوز.

أرتعد. أنا متعَبة للغاية. أشعر برغبة عارمة في إلقاء نظرة على ويل مرة أخرى. لا أحتاج إلى ذلك؛ ويل بخير. مع ذلك أقف خارج حجرته للحظات وأنظر إلى ساعتي، الثانية وإحدى وعشرون دقيقة. يجب أن أدخل، يجب.

هذا شعور لا يُقاوم. لا يمكن أن يكون قد حدث له شيء منذ نزلت من الطابق العلوي، لكني *أحتاج* إلى الدخول. أستسلم وأتسلل إلى غرفته، أجهل ما أبحث عنه. هو نائم كما كان منذ قليل. أقف جوار فراشه وأراقبه. لَكَم يكبر سريعًا.

أعود إلى فراشي وأضع رأسي فوق وسادتي الباردة.

أريد أن أبكي. أريد أن أنام.

يسألني روبرت وهو يتقلَّب برفق: «هل أنتِ بخير؟».

- ذهبت إلى دورة المياه.

يغمغم: «عودي إلى النوم».

وكأن ما يطلبه سهل. أنقلب لأنام على بطني وأجذب وسادتي إلى جواري. أعتصرها لأمنع نفسي من الصراخ غيظًا.

بعد ساعة من الاستلقاء في مكاني وتسارُع دقات قلبي، أستسلم وأنزل إلى الطابق السفلي مرة أخرى. ربما كان النوم على الأريكة أسهل.

في المطبخ، أنظر إلى الحديقة بينما يغلي الماء في الغلاية، فلا أرى أي تهديد. *أنتِ ترتابين أكثر من اللازم يا إيما؟ بمن يذكِّرك هذا؟*

أصنع مشروب الكاموميل وأجد نفسي أمد يدي نحو زجاجة الفودكا. *سحقًا*. أضيف القليل إلى مشروبي. شرب الفودكا في الصالة في الواحدة والنصف صباحًا ليست فكرة جيدة. أعرف هذا، لكني لا أملك أي أفكار أفضل؛ الأقراص المنوِّمة ليست ذات نفع. أي شيء قد يساعدني على الاسترخاء يستحق التجربة. أريد أن يأتي الفجر، فهذه هي نافذة النوم الصغيرة المُنقِذة.

أكاد ألتفت لأعود إلى حجرة المعيشة، لكني أتجمد. أنا أذكر أنني قد مسحت المكتوب على اللوح الأبيض خلف الموقد -وأنا بالفعل فعلت ذلك- وأذكر أيضًا أنني تركتها خالية من أي كتابة. أنا متأكدة، لكنها لم تكن خالية. ثمة شيء مختلف مكتوب عليها. أحدق إلى الأرقام المكتوبة بخط متعرج...

أوه، كلا!

155218222131552182221 13

كلا.. كلا.. كلا..

-15-

سبعة أيام حتى يوم عيد الميلاد

نمت عند الفجر قرابة ساعة أو اثنتين. أتعجب كيف فعلتها رغم خوفي (أنا *أجَن*) لكني ما زلت أشعر بهلع كالموت. أشعر بالغثيان وأنفي يسيل. أمامي يوم طويل ممتد بلا نهاية. أحتاج إلى الكثير من القهوة، وربما بعض الكعك أو لفافات البيكون، أو كليهما لأجل دفقة طاقة. سأتناولهما في طريقي إلى العمل.

كل شيء يبدو عاليًا صاخبًا، والراديو يعمل، وروبرت يجهِّز الفطور ويعبئ حافظات الغداء للمدرسة. كل شيء صاخب عدا ويل، الذي ظل هادئًا بشكل غريب. طفلي الصغير قد تغير بالتأكيد ولم يعُد على طبيعته. كان من المفترض أن أستمتع بصحبته في هذا الصباح المتأخر (فلم أكن سأذهب إلى المحكمة اليوم، ولا مواعيد لدي قبل الحادية عشرة) لكن القلق والإرهاق يعتصرانني.

أقول: «هل أنت بخير أيها القرد الصغير؟».

أداعب شعره الأسود. ابني ليس أشقر مثل كلوي وروبرت. يومئ إيجابًا لكنه يظل منحنيًا فوق دفتر الرسم، يرسم بخطوط سريعة وبقلم أحمر. أحاول ألا أسترق النظر رغم فضولي. حاول روبرت النظر إلى ما يرسم منذ دقائق، فأغلق ويل الدفتر وأدار كتفه نحو أبيه في غضب. ما زال روبرت متضايقًا، فأعض لساني كي أمنع نفسي من تذكيره بالحديث مع إدارة المدرسة بشأن

بِن. يصب الحليب فوق رقائق الذرة لويل، فأضع قطعة خبز أمام الولد كلفتة حنان صغيرة. لا أعرف عادات الإفطار لديهم؛ أنا لا أشهد الفطور إلا مرة كل شهر لو كنت محظوظة. أحيانًا ما أشعر بالذنب تجاه عدم شعوري الكافي بالذنب!

قال روبرت: «هلَّا ناولتِني المزيد من الحليب؟».

لم تكن في الزجاجة التي ناولتُه إياها إلا الثمالة.

أجذب الزبد والمربى وأنا أقول: «هذا ما تبقى. هذا يوم مرور موزِّع الحليب، أليس كذلك؟».

لا بد أن روبرت يعرف أنني قلقة بشأن ما يحدث في المدرسة وبخاصة ومزاج ويل مُعتل. لمَ لا يخبرني بأنه لم ينسَ وبأنه سيتحدث معهم في المدرسة؟ أشعر بدفقة طاقة فجائية وأفطن إلى أن لدي وقتًا كافيًا كي أذهب إلى المدرسة هذا الصباح، وهكذا ستُحل المشكلة. لست مولعة بالمواجهات، لكن أحدهم ضايق ابني وضايقني فوق ما أعانيه من قلة النوم، لذا عليَّ أن أحل هذا الموضوع أو أتأكد من أن ويل آمن على الأقل اليوم.

يفتح روبرت الباب الخلفي ليجلب زجاجات الحليب التي تركها الموزِّع، فتعبر منه نسمة صباح منعشة. لا أعرف كيف أفاتحه فيما أخطط له.

يصيح فجأة في ألم تبعه بـ: «اللعنة، سحقًا!».

- انتظر مكانك.

يرفع ويل رأسه عن رسمِه، وقد شتته الصوت عما كان يفعل. أهرع نحو الباب في الوقت الذي يعود فيه روبرت متقافزًا إلى الداخل.

أقول: «ماذا حدث؟!».

فكه متقلص، فأساعده كي يجلس على مقعد. كان قد خرج حافيًا كعادته، وها قد ترك خطًّا من الدماء من أثر الجرح في قدمه. أجلس القرفصاء ثم أجذب قطعة الزجاج التي رشقت فيه، فيطلق المزيد من السباب.

قال ويل: «بابا؟».

يجيبه روبرت وهو يلهث من بين أسنانه: «أنا بخير. لمَ لا تشاهد الرسوم المتحركة على الآي باد بعض الوقت؟».

ربما كان ويل معتل المزاج، لكنه لا يحتاج إلى من يطلب منه أن يمضي بعض الوقت أمام شاشة، لذا رمقنا بنظرة أخيرة مُتسائلة قبل أن يأخذ دفتره ويهرع نحو حجرة المعيشة.

أقول: «انتظر».

أبحث في الأدراج عن علبة الإسعافات الأولية. يبدو الجرح أسوأ مما هو عليه بالفعل، لكنه ما زال مثيرًا للقلق.

يهتف من بين أسنانه: «الحليب اللعين. واحدة من الزجاجات كانت مكسورة والشظايا نثرها خارج الباب وكأن أحدهم قد نثرها متعمدًا».

- ماذا تعني بأن هناك من نثرها متعمدًا؟

أمسك قدمه بقوة وأصب المطهر عليها فيجفل. سوف يلتهب الجرح، لكنه لن يحتاج إلى خياطة.

يجيبني روبرت: «أعني أنها كانت منثورة هناك عن عمد!».

- أتظن أنهم أولئك الصِّبية مرة أخرى؟

لو أنه ركَّب كاميرات المراقبة بالخارج لكنا تأكدنا من هوية الفاعل، وكنت سأعرف من خرق إطار سيارتي. ربما سيركِّبها بعدما أثَّر إهماله عليه مباشرة.

- ربما. القذرون الصغار!

- ابقَ هنا واسترِح.

بحرص ألفُّ رباطًا حول ضمادة وألصقه، ثم أميل وأقبِّل قدم زوجي الجريحة كأنه طفل.

وأقول: «لستُ مضطرة إلى الذهاب إلى العمل قبل العاشرة. سآخذ ويل إلى المدرسة».

هو مُحق. زجاجة الحليب المكسورة كانت موضوعة عمدًا خارج الباب. أشباح أمي تتململ في عقلي، تتجلى للعيان، تبغي نظرة مُقرَّبة.

هناك الكثير من زجاجات الحليب في منزلنا، أليس كذلك؟ زجاجات مكوَّمة منذ كان موزع الحليب يأتي. *هل تذكرين ما اعتادت قوله؟* يجب ألا تكسريهم *حتى لا ترشق الشظايا في قدميك، وتعجزي عن الذهاب إلى المدرسة.*

مصادفة. هذا هو كل ما في الأمر. صِبية أشقياء ومصادفة.

-16-

أقول: «لا تقلق بشأن بابا».

كان ويل جالسًا بهدوء على أريكة السيارة الخلفية.

أردف: «هو بخير. أحيانًا ما تبدو الجروح أكثر خطورة مما هي عليه بالفعل».

يومئ وهو ينظر عبر النافذة. هذا ليس طفلي الشقي الثرثار. كيف لم تلاحظ معلمته؟ أحيانًا ما يدخل في نوبات هدوء قصيرة، لكن هذه المرة صمته قد استمر يومين تقريبًا.

يقول إن ذهنه ضبابي... مشوَّش!

- هل تشعر بالمرض؟ أنت هادئ أكثر من اللازم.

- أنا بخير.

ما زال يتحاشى النظر إليَّ.

- ألا تشعر أن تفكيرك ضبابي؟

لا يجيب، فأحاول حثه على الإجابة وأقول: «ويل؟».

- كلا.

- أنتَ لست مريضًا. ما بك؟ أنت تعرف أن في وسعك إخباري بأي شيء، فهذه هي مهمة الأمهات.

أنتظر ولا أحصل على رد.

أسأله: «ماذا حدث أمس؟ في استراحة الغداء؟».

- ما حدث كان رغمًا عني.

لا ينظر إليَّ، لكنه على الأقل يتحدث.

- هذا غريب عليك.

نكاد نصل إلى المدرسة، ولحسن الحظ فقد وصلنا في وقت مبكر لنتفادى الزحام.

أسأله: «هل كان بِن هناك؟ هو صديقك، أليس كذلك؟».

حاولت أن تكون نبرتي هادئة قدر ما استطعت وأنا أسحب المعلومات من ابني المُتحفظ.

- لقد صاح بي.

أشعر بغضب مفاجئ. كنت أعرف أن هناك سرًّا. كنت *أعرف*. أصيح بدوري: «صاح بك؟ لماذا؟».

يهز كتفيه، لكني لا أحتاج إلى الضغط عليه أكثر، لقد عرفت ما يكفي. أمسك يده بقوة وأنا أسير عابرة الملعب، مارة من أمام المرأة التي ألقت دعابة عن كون أبيه إجازة اليوم.

أقول لنفسي: *أبوه في إجازة لعينة دائمًا*. وأبتسم لها ابتسامة باردة.

كان على ويل أن يُذكِّرني أين فصله. هذه طعنة أخرى من شعوري بالذنب كامرأة محبة لعملها دائمة الغياب عن أسرتها. رؤية المكاتب والكراسي الصغيرة يقبض قلبي. أحيانًا ما أشعر أنه يكبر بسرعة، لكن هذا المكان يُذكِّرني بأنه لا يزال صغيرًا هشًّا.

بدت معلمته، الآنسة راسِل، كأنها دخلت للتو إلى الفصل. تنظر إلينا من فوق الأوراق أمامها وتبتسم.

تقول: «سيدة آفريل، صباح الخير».

- زوجي أخبرني بما حدث أمس. أنا قلقة للغاية.

- لا تقلقي، كان هذا مجرد حادث عرَضي. أشياء كهذه تحدث.

ثم تنظر نحو ويل وتقول: «لمَ لا تذهب لتعلِّق معطفك على المشجب ثم تساعدني في ترتيب الألوان لو أحببت؟».

أجثم وأقبِّل خده قبل أن يرد قبلتي بابتسامة باهتة ويرحل.

أقول للمعلمة: «لقد أخبرني بأن بِن سيمسون أفزعه. لقد كان بينه وبين بِن مشكلات من قبل».

هذه مبالغة مني، لكني سأستمر فيها وأضيف: «كان هناك حادث بينهما الأحد الماضي».

تبدو حائرة وهي تسأل: «أوه، حقًّا؟ بِن شقي، لكنه ليس متنمرًا بطبيعته».

- أو أنكِ لم تلاحظي هذا لأنك هنا وهم بالخارج؟

- الأولاد تحت الإشراف الدائم، و...

- أود أن يظل ويل في الفصل طيلة الاستراحة اليوم حتى نعرف أصل المشكلة. لا يبدو على طبيعته ولا أتوقع أن تعرفي الأطفال كما نعرفهم نحن، ومع ذلك لا أصدِّق أنك لم تلاحظي.

هي طويلة، وحتى وأنا أنتعل حذاء ذا كعب عالٍ، أنظر إلى أعلى وأنا أحدِّثها.

وتقول: «هو يبدو هادئًا أكثر من الطبيعي بالفعل. سأبحث في الأمر طبعًا. لكن رجاء لا تقلقي يا سيدة آفريل. أنا متأكدة أن ذلك كان...».

- رجاء، حددي ما حدث واحرصي على ألا يحدث مجددًا.

أنا صغيرة الحجم، لكن قوية.

أردف: «لا أريد أن أرفع شكوى».

- بالطبع.

كلامي أثار روعها. حين استدرت كي أغادر، شعرت أنني سيئة حقًّا. لقد صرت أمًّا شكَّاءة مُتطلبة فاسدة -الطريقة نفسها التي تصرفت بها مع كارولاين البائسة حين أعادت لي محفظتي- ولم أشأ قط أن أكون بهذه الصفات.

أقول برفق: «لم أقصد أن أكون فظة. يوم عملي عصيب ولا أريد إضافة هذه المشكلة إلى مشكلاتي الأخرى. أمر بيوم من تلك الأيام العجيبة».

والعديد من الليالي العجيبة.

تبتسم مسرورة بالهدنة وتقول: «هذا واضح».

تبدو مترددة وهي تنظر إلى سترتي الخفيفة وتضيف: «أعتقد أن السترة مقلوبة».

أرى الملصق الداخلي باديًا من جانب السترة، فأجبر نفسي على الابتسام وأقول: «أوه، شكرًا لك».

ذكرى أخرى تهمس في عقلي، رائحة الأنفاس العطنة العفنة تملأ أرجاء رأسي.

أنزل الدرج مع فيبي في اليوم الأخير، أحمل بطاقة تهنئة عيد ميلاد أمي الأربعين. أنظر إلى الأسفل لأدرك أن سترتي المدرسية مقلوبة.

***

حين عاد ويل، أقبِّله مرة أخرى، ثم أنطلق إلى الممر، أخلع سترتي وأقلبها ثم أرتديها مرة أخرى. ثمة شيء قد حل بي اليوم. ليس الإرهاق (*بل الأرقام*). ليس ويل (*بل زجاجة الحليب المكسورة*). بل شيء آخر (أيتها *العاهرة، الإطار المثقوب*). أنا متعَبة وقد نفد صبري، لكن ثمة شيئًا أكبر من كل هذا (*السترة المقلوبة*). قلبي يمتلئ بالرعب. هي في المستشفى. يوم عيد مولدي يقترب. فيبي مُحقة؛ أنا خائفة. لا أريد أن أصير مثلها. لا أريد أن أرتكب ما ارتكبتْ. لا أريد أن أُجن مثلها. لا أريد أن يكون دمي ملوَّثًا، ملعونًا.

أخرج من الفناء وأتجه عائدة إلى السيارة، فأسمع صوتًا مألوفًا خلفي: «أسرع يا ماثيو، لا تتلكأ. سأتأخر على تمرين اليوجا. لأجل الله يا بِن، أدخِل طرف قميصك في بنطالك».

أختبئ خلف شجرة، وأراقب ميشيل المضطربة تقود الولدين إلى المدرسة قبل أن تنظر إلى ساعتها وتعود مسرعة إلى سيارتها الواقفة جوار الرصيف. أمكث مكاني للحظات. يجري ماثيو مباشرة إلى الداخل بينما بِن يتسكع ويجول بين مدخلَي المبنيين اللذين كانا يفصلان فيهما البنات عن البنين في الماضي.

أقول للمرأة الباسمة عند البوابة: «معذرة، نسيت مفاتيح سيارتي بالداخل».

لم تلتفت لتتأكد أنني أعود إلى المبنى الذي كنت فيه، وكان هذا جيدًا، فلم أكن سأقصد ذلك المبنى.

-17-

أتنبَّه فزِعةً، بلا فكرة عن مكاني أو كينونتي.

ضوء ساطع. مقعد قاسٍ. شاشة حاسوب خالية. *سحقًا*. أنتصب فجأة في جلستي. العمل. أنا في العمل. متى ذهبت إلى المكتب؟ في أي يوم أنا؟ أي وقت؟ أهذا حلم؟

قبل أن أستجمع أفكاري (موعد الثانية عشرة والنصف قد أُلغي، وأنا الآن أستغل الوقت في تنظيم الفواتير للحاق بمواعيد سدادها. أنا أتذكر كل شيء الآن). أنزع لساني الجاف الملتصق عن سقف حلقي.

صوت يقطع دواري ويهتف: «إيما؟».

هذا هو أنجوس بَكلي، شريكي الأكبر، رئيسي، يقف عند باب مكتبي ويبدو مضطربًا.

- أجل. أجل. معذرة. أجل! لقد شردت قليلًا.

- للحظة ظننتكِ نمتِ.

ضحكته البسيطة توضح أنه ما زال يشك في كوني قد نمت حقًّا.

- كنت أمارس تمارين تمديد لعضلات رقبتي؛ أحاول مكافحة الصداع. هل تريد شيئًا؟

أبتسمُ في إشراق رغم كوني تائهة بعد في الأرض القاحلة بين النوم واليقظة الكاملة.

يجيبني: «يريد باركر ستوكويل أن يجلب لنا عملًا سيساعد في الجانب الدعائي. يقترح اجتماعًا لثلاثتنا على العشاء يوم الخميس. لقد حجز مكانًا في مطعم «إلدرفلاور جاردن»».

- يجب أن أنسِّق مع روبرت أولًا، و...

أرى تعبير وجهه يتغير ويتصلب، فأضيف: «لكني واثقة أن كل شيء سيتم كما خططتما».

- جيد.

عظيم. أمسية مع باركر ستوكويل. حين أغلق بَكلي الباب، استرخيت في مقعدي وأدركت أن هذا آخر همي. لقد نمت في أثناء العمل. يدق قلبي بعنف وعقلي يتشبع بتلك الحقيقة. هذا أسوأ مما حدث في السيارة. على الأقل وقتها اتخذت قرارًا واعيًا بغلق عينيَّ. أما هذه المرة فقد كنت أعمل ثم غبت عن الوعي فجأة وببساطة، كأنني نور وانطفأ. كم نمت؟ الساعة الآن الواحدة وعشرون دقيقة. فطنت إلى أنني نمت نحو نصف ساعة وكنت محظوظة أنه لم يدخل عليَّ شخص آخر المكتب. لا أعرف ما قد تظنه روزماري بعقلي بعد واقعة مسجل الصوت.

غفوتي جلبت لي شيئًا من الصفاء. لم أعانِ الأرق إلا خمس ليالٍ، لكنها بدت كعُمر. أتذكر فجأة كيف انفجرتُ في معلمة ويل، وكيف... حسنًا، هذا يكفي. لا يمكن أن أستمر على هذا المنوال. سينتهي أمري بفقد وظيفتي وزواجي.

في دورة مياه السيدات، أغسل وجهي بالماء وأغرِق به أغلب شعري. أصلح ما فسد من زينتي. ليس معي إلا ماسكارا قديمة في حقيبتي تتكتل على رموشي حين أستخدمها. ثمة هالات حول عينيَّ، وقد تقشر كريم الأساس عن جبهتي بسبب جفاف بشرتي تحته. أبدو بشعة، يتداعى جسدي كما تتداعى نفسي.

أخبر انعكاسي المُرهَق بأنني لست هي.

يحدق إليَّ انعكاسي، غير مقتنع، ولا يعجبني ما أراه على تعبير وجهي. *لا يوجد إلا طريقة واحدة للنجاة؛ عليكِ أن تذهبي إليها قبل فوات الأوان. فيبي محقة. حققي سلامك الداخلي قبل أن تقودي نفسك إلى الجنون.*

أصطدم بآليسون وأنا أخرج من المكتب.

تهتف: «تبدين شنيعة!».

قالتها بصراحة وأنا أحاول أن أعبر بجوارها.

- أعاني صداعًا نصفيًّا.

تقول وعلى وجهها قناع التعاطف، وعيناها تكذِّبانني: «لم أكن أعرف أنك تعانين نوبات الصداع النصفي. ربما تتعِبين نفسك في العمل أكثر من اللازم».

أقول لها بحدة: «أنا بخير. شكرًا لك».

أكمل طريقي نحو مكتب السيد بَكلي. أريد أن أرحل الآن قبل أن أغيِّر رأيي.

-18-

ترتجف يدي وأنا أكتب اسمي في دفتر الزيارة، ثم أهرول عبر الرواق إلى حيث تنتظرني فيبي خارج الحجرة. حجرتها.

تقول وقد تخلَّت عن نبرتها المستهزئة وبدت مسرورة بحق: «رسالتك كانت مفاجئة بالنسبة إليَّ، ولم أصدقها حتى هذه اللحظة التي أراكِ فيها هنا بالفعل».

- لن آتي مرة أخرى.

أشعر بالمرض، لكنني يقظة بفعل الأدرينالين الذي يُضخ في عروقي.

أردف: «زيارة واحدة فقط».

أحدق إليها كأنها كانت تجرني إلى هنا رغم كون المجيء فكرتي من الأساس.

تسألني: «هل أنتظر بالخارج أم تريدين أن أدخل معك؟».

- هل يمكن أن تبتعدي أو تذهبي إلى أي مكان؟ لا داعي لأن تدخلي من الأساس، وسأشعر بعدم الراحة وأنت تقفين بالخارج. أحتاج إلى بعض الخصوصية.

أصابعي تجذب الجلد حول أظفاري بشراسة، أشعر بألم حاد إذ يُنتزع بعضه. لم أفعل هذا منذ كنت طفلة.

تهز فيبي كتفيها وتقول: «إن كان هذا ما تريدين. فكَّرت أنك ربما تحتاجين إلى دعم. سأعود إلى المنزل ساعة أو نحو ذلك».

أسألها: «أين تسكنين؟».

هي ترتدي قميصًا كالذي يرتديه عُمال الحانات. لا أتخيل فيبي تعمل في حانة وتتحمل كل ما يقوله أو يفعله الثمالى. هي قادرة على ذلك، وإن كانت ستمكث هنا لشهور فقط، فربما يكون هذا عملًا مؤقتًا.

تُجيبني: «في مكان قريب من هنا».

تميل و -بالكاد- تقبِّل خدي، ثم تضيف: «ادخلي وتأكدي بنفسك أنه لم يعد هناك ما يخيف».

سهل عليكِ أن تقولي هذا.

أراقبها تبتعد، تبتسم للممرضة التي قامت من خلف مكتبها وخرجت مع أختي الكبرى التي لا ترتاح معي، وترتاح في الحديث مع الغرباء. أشعر بشيء من الحسد. لم تعد سن الأربعين تقترب من فيبي، ولم تخشَ قط من أن يكون دمها ملعونًا كما كنت أخشى طيلة حياتي. لم تَصِمها أمي بكونها وريثة الجنون. أشعر أنني وحيدة تمامًا، خائفة كأنني عدت طفلة في الخامسة، لكن هذه المرة لا يمسك يدي أحد وأنا ذاهبة إلى مقابلة أمي.

آخذ نفسًا عميقًا. ليتني في الخامسة. أنا امرأة ناجحة في عملها، لديها عائلة رائعة، يمكنها التغلب على هذا الخوف. أمسك المقبض، أديره، وأدخل.

***

الستائر مغلقة، إضاءة الحجرة الناعمة دافئة، وجهاز جوار الفراش يطلق صوت (وُش) هادئ، ثم صوت تكة في تناغم ثابت.

أنظر إلى مَن في الفراش. ها هي.

ما زال شعرها طويلًا، لكنه صار رماديًّا بدلًا من البني الداكن، منتثرًا على الوسادة. وجهها مُغضَّن حول عينيها الغائرتين المغلقتين (أخيرًا أُتيحتِ لها فرصة النوم إذًا) وذراعاها ممددتان خارج الغطاء. الشرايين والأوردة زرقاء غاضبة تتلوى تحت بشرتها الشاحبة. كفاها منقبضتان يُعرِّفاني كم أنها -رغم حالتها- تحبس الغضب داخلها.

لدهشتي، أنا هادئة، كأنني تركت كل مخاوفي بالخارج في العالم الحقيقي، عندما ولجتُ عبر هذه النافذة الزمنية. ربما لأن رؤيتها - كغريبة متداعية- أمر سريالي لا يُصدَّق. لا أستطيع استيعاب أنها هي.

ثمة إناء به أزهار نضرة على المنضدة الجانبية، باقة من ورود متنوعة مبهجة تقف وحيدة منفصلة عما حولها من كآبة. هناك المزيد من الأزهار مكتوب على البطاقة جوارها: نتمنى *لك الشفاء العاجل*. بداخل البطاقة أقرأ: أمي الحبيبة، مزيد محبتي، فيبي.

أنظر إلى رموز القبُلات التي وضعتها فيبي تحت عبارتها وأتساءل: كيف جرؤت؟ أتذكر أنني رسمت تلك القبلات على بطاقة المعايدة في ذلك اليوم. قبل المدرسة... قبل أن...

أقبض على الدرابزين وأجبر نفسي على الصعود، أضع قدمًا أمام الأخرى عُنوة. ساقاي خدرتان من طول تقلصهما. ومضة برق بارد أخرى تفزعني فأقفز في مكاني. أنا في الخامسة ومرتعبة، لكن الصالة بالأعلى خاوية، ورغم ذلك أسمع ضوضاء، أصوات غريبة لا أفهمها تنبعث من هناك، من حيث حجرتي أنا وفيبي.

أقول بهدوء: «ماما؟».

كفي ترتعش وأنا أضع البطاقة على المنضدة. أرتجف غضبًا، لا خوفًا. *ماما*. كانت كل شيء لا يجب أن تكونه الأم. رغم ما صارت إليه الآن من ضعف، فما زالت جمرة الخوف الذي شعرت به تلك الليلة تستعر بداخلي.

تفاصيل حالتها الصحية معلَّقة فوق فراشها، أميل أمامًا كي أقرأها. هناك العديد من المصطلحات الطبية التي لا أفهمها، ثم أقرأ عند قمة الصفحة:

سجلت كاميرات مراقبة الحجرات في وحدة هارتويل الوسطى المؤمَّنة إصابة مبدئية في الساعة 01:13 يوم 24-6. وُجدت المريضة في الساعة 02:00 في أثناء دورية المرور الاعتيادية، وقد نُقلت فورًا إلى مستشفى ليدز العام.

أحدق عاقدة حاجبيَّ.

الساعة 01:13 يوم 24-6.

الرابع والعشرين من يونيو. كانت هذه هي الجمعة الماضية. لقد فعلتها مساء الخميس. الخميس الماضي. يوم قضية حضانة ستوكويل ضد زوجته. أول ليالي أرقي. استيقظتُ ليلًا ولم أستطع النوم مرة أخرى. أذكر كل شيء بوضوح شديد. أذكر نوبة الذعر التي ألمَّت بي (*ثمة دخيل بالمنزل*) وعندما

نظرت إلى الساعة كانت الواحدة وثلاث عشرة دقيقة من يوم الرابع والعشرين من يونيو، نفس الوقت الذي ضربت فيه أمي مخها في المرآة.

كيف *هذا*؟ لا بد أنها مصادفة. أحاول أن أقنع نفسي بذلك، لكن الذعر الذي شعرت به حين استيقظت تلك الليلة ما زال ملتفًا حول نفسه بداخلي كثعبان، يثقِل روحي. *ماذا يحدث لي؟*

أصابع باردة كالثلج تلتف حول رسغي. أصرخ بصوت مكتوم مذعور، وأتراجع خلفًا غير مُصدقة. يدها كانت تقبض بقوة على رسغي، ومفاصل أصابعها بيضاء تحت جلدها البارد، لكن جسدها ظل ساكنًا، ميتًا.

لا يا ماما، لا!

تحتشد الذكريات، أشعر كأن أمي تجذبني نحو الخزانة أسفل الدرج مرة أخرى، قبضتها كالمِلزمة، أصرخ وأرجوها. وفي هلعي يندمج الماضي والحاضر ويصبحان خليطًا مجنونًا مضطربًا، وأوقن أنني سأفقد الوعي.

لا يا ماما، لا!

تنفتح عيناها على اتساعهما، مُحتقنة مصفرة، وتثبِّت نظرها عليَّ. أحاول أن أحرر نفسي من قبضتها، وأسمع أزيز أنفاسي إذ يحمر وجهي ويشتعل حرارة، وأوقن... أوقن... هذه المرة ستجرني إلى الظلمات، إلى الخواء المحبوسة فيه، وأشعر بالصراخ يعتمل في صدري، ثم...

بنفس السرعة التي قبضتْ بها على رسغي، تتركه. تهوي ذراعها إلى جانبها وكأنها لم تتحرك قط، وتنغلق عيناها مرة أخرى.

أتكور متداعية على كرسي الزوَّار، تتهدج أنفاسي. يستمر الجهاز في إطلاق صوت (وُش) ثم التكَّة، كي يبقيها حية. أنظر إلى الحجرة حولي غير مصدقة. لا يوجد أحد هنا. أنظر إلى أعلى، لا توجد كاميرات تراقب هذه الحجرة. لم ير أحد ما حدث.

أدلِّك رسغي وأشعر أن أصابعها الباردة ما زالت تقبض عليه. أحدق إليها، ترقد في سلام كأن شيئًا لم يحدث. ربما لم يحدث شيء بالفعل، ربما كان هذا بداية جنوني. بداية تحولي *إليها*.

01:13. في اللحظة التي بدأ فيها أرقي كانت هي تفتح دماغها بضربةٍ في المرآة.

كنت مخطئة، هي بعدُ قادرة على إفزاعي. ربما ابتعدتُ عن قبضتها، لكنها لم تتركني.

***

لم تكن هناك ممرضة خلف المكتب حين خرجت أترنح من الحجرة بعد قضائي فيها فترة قصيرة. كنت أتوق إلى هواء نقي، أتوق إلى الفرار.

لم أوقِّع على الدفتر. أهرع خارج المبنى وأصطدم بامرأة مُسنة في طريقها إلى الداخل. لم أتوقف لأعتذر، فقط أهرع إلى سيارتي، وأصل إليها قبل لحظات من تداعي ساقيَّ. دفقة من حرارة تُغرِق جسدي، تتكون بقع سوداء حول مجال إبصاري، وأوقن للحظة أنني سأفقد الوعي. أشغِّل التكييف وأعب الهواء بينما يتبخر العرق البارد عن جلدي ببطء.

ما كان ينبغي أن آتي. كان عليَّ أن أظل في العمل. لا يمكن أن يأتي خير من مرآها، كان يجب أن أدرك هذا.

يخفت أزيز أذنيَّ، ووقتها فقط أدرك أن هاتفي يرن في مكان ما في أعماق حقيبتي. يتوقَّف عن الرنين، ثم يبدأ مرة أخرى.

أخرجه من مدفنه، وأرى أن المَدرسة تتصل. هم يريدون مقابلتي. بالطبع يريدون هذا. الإرهاق ينخر عظامي. أغلق الخط وأقاوم رغبة مُلحة في الصراخ.

-19-

حين ظهر روبرت قلقًا فزعًا، كنت قد أمضيت في الانتظار خمس عشرة دقيقة خارج مكتب مديرة المدرسة.

أسأله في ضيق: «أين كنت؟».

قالت لي سكرتيرة المدرسة إنهم قد اتصلوا به ولم يتلقوا سوى رد مُسجل، ولم يرد أحد على هاتف المنزل. لقد أرادوا أن نحضر -كلانا- إن كان هذا ممكنًا. كنت قد حاولت الاتصال به ولم أستطع الوصول إليه، فتحوَّل قلقي مما يحدث في المدرسة إلى قلق على روبرت وما إذا كان قد صدم السيارة بشجرة أخرى.

قال: «معذرة، لا بد أنه كان هناك عطل في شبكة الاتصال. ماذا يحدث؟».

حمدًا لله، لم أُضطر إلى أن أجيبه، إذ ينفتح باب حجرة المديرة ويدخِلوننا، ثم يرجبون بنا في أدب.

إلهي، ليته لم يكن هنا ليرى هذا. ماذا سيظن؟ سوف يثور ولن ألومه.

أقول ونحن نتخذ مقعدَينا، وقد أردت أن أبدأ أنا بالحديث: «سيدة فينشام، لو اتصلتم بنا بصدد ما حدث في الصباح...».

ينظر إليَّ روبرت نظرة جانبية مُتفاجئة ويهمس: «ماذا حدث هذا الصباح؟».

تنحني المديرة نحو مكتبها، وتقول وهي ترمقني من فوق إطار نظارتها كأنني طفل مشاغب: «آه، تقصدين هذا. أجل، لقد جاءنا اتصال من أحد المارة وقد أقلقهم ما شاهدوا».

يشتعل وجهي حُمرة وأقول: «صدقًا، أنا آسفة للغاية».

- قالوا إنك كنتِ تهزين واحدًا من الطلبة، كنت تميلين نحو وجهه وبدا أنك كنت غاضبة وتتفوهين بشيء أرعبه كثيرًا. قالوا كذلك إنه كان يحاول التملص منك.

أعقد حاجبيَّ. لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًا. لقد أمسكت ذراعيه، هذا صحيح، وربما هززته قليلًا، لكني لم أهنه أو أقسُ عليه. لم أفعل هذا.

أقول لها والصوت في عقلي لا يريد التوقف عن تذكيري بحادث المُسجل والأرقام والزجاجة المكسورة: «لم أفعل هذا بالضبط...».

هل أنت متأكدة؟

- هم يعرفون أنكِ لست والدته لأنهم رأوها توصِّل أولادها. قالوا إنك كنتِ تهزين الولد بعنف حتى بكى.

تتوقف هنيهة ثم تضيف: «والطفل الوحيد الذي شوهد يبكي هذا الصباح هو بِن سيمسون».

يهتف روبرت حانقًا مُحرَجًا: «إيما! رباه!».

أشعر بطعنة غضب تجاهه إذ انقلب عليَّ بهذه السرعة. أعرف أنه لا يوجد ما يضحد كلامها، لكنني توقعت منه على الأقل أن يمنحني مزية الشك في ادعائها.

أقول صادقة: «أشعر بالأسف الشديد، وبالطبع سأعتذر لبِن. لكنني لم أفزِعه أو أؤذِه. كل ما قلته هو تحذير من أن يسيء إلى ويل مرة أخرى، وإن لم يحترس في أثناء لعبه معه في المستقبل، فلن يأمن العواقب».

تتسع عينا روبرت وهو يقول: «أنتِ هددتِ طفلًا؟ أخبرتك بأنني سأتحدث مع ميشيل. لقد تناقشنا في الأمر واتفقنا».

- لم أهدده، أنا...

تقول المديرة: «رغم أنني أتفهم قلقك على طفلك يا سيدة آفريل، لكن هذا النوع من التصرفات غير مقبول مطلقًا».

ترميني بنظرة حادة، فأخشى أن أشعر بدموعي تجري على خديَّ. دموع العار والذنب. أعرف أنه ما كان ينبغي أن أعود لأحادث بِن، وفكرة أن يراني أحد المارة ويظن أنني أهدده فكرة مروِّعة.

أقول: «أعرف. أنا أعتذر».

- على العموم، لقد تحدثنا إلى بِن، وقد قال إنك لم تُخيفيه، فقط طلبتِ منه أن يكف عن إيذاء ابنك. يجب أن نبلغ والدته.

أوه، شكرًا لك يا بِن، شكرًا لك.

لستُ قلقة بشأن رد فعل ميشيل. لقد جاءت إلى مكتبي واتهمتني بمضاجعة زوجها، وهذا اتهام لا يقارَن بما يتهمونني به. تُضيف المديرة: «لكننا لم نتصل بكما بهذا الصدد».

أرفع عينيَّ نحوها متسائلة، ثم أنظر نحو زوجي الذي كان مثلي، ذاهلًا.

تتابع: «هذا أمر أكثر حساسية، بشأن ويل. ربما يفسر هذا تغير مزاجه وتصرفاته مؤخرًا».

تدفع إلينا بدفتر ويل الأزرق بحوافِّه المثنية لاستمرار حمله له في كل مكان، ثم تردف: «وجدَت معلمته هذا اليوم».

يقول روبرت ونحن نميل نحو الدفتر: «دفتر الرسم؟ ما به؟».

- انظر داخله.

نتبادل النظرات، ثم أفتحه لأرى ما توقعت، رسومات ديناصورات وكلاب مسطحة وحيوانات.

أنظر إلى المديرة متسائلة، فتقول: «انظرا إلى الرسومات الأخيرة».

أقلب عدة صفحات، ثم أتجمد.

لا يمكن أن يكون ما أرى حقيقيًا.

أفكر كيف كان ابني الصغير يجلس محني الظهر فوق دفتره، يمنعنا من رؤية ما يرسم، ويقشعر جسدي. أهذا ما كان يرسم؟ كيف هذا؟

الرسم طفولي، لكنه مرسوم بتركيز وعناية. رسم لامرأة طويلة الشعر، يعلو وجهها تكشيرة، وتميل نحو فراش فوقه غطاء بنقوش رسم ديناصورات -مثل فراش ويل- وتحت الغطاء طفل عيناه على شكل (×) مرسومة بقوة ضغط حتى كادت تُثقب الصفحة.

تجذب أصابعي الجلد حول أظفاري، فتنزف. أنظر مرة أخرى إلى المرأة الحدباء الواقفة جوار الفراش، والمرسومة باللون الأحمر.

هي تمسك وسادة، تقبض عليها...

كأنها تنتوي أن تضعها فوق وجهه.

تقول السيدة فينشام بهدوء: «يقول إنها السيدة المخيفة التي تظهر في حجرته ليلًا، ولم يقل أكثر من هذا».

لا، لا، لا..

أقلب الصفحات إلى الرسومات الأحدث، نبضات قلبي تتسارع، كل صفحة تالية تحمل نفس المحتوى القاسي. في بعضها يظهر الوجه العابس كأنه بالون عملاق يحوم فوق الفراش، لكن كلها تحوي نفس المرأة المخيفة المجنونة وهي تنتوي خنقه بالوسادة.

كيف عرف؟ كيف عرف *ما فعلته؟*

يقول روبرت وقد ظهر انزعاجه: «ما هذا؟».

ينظر إليَّ، ثم أدركت أن كليهما ينظران إليَّ في حرص وقلق.

أطلق ضحكة مشطورة مصدومة وأقول: «أتظنان أن هذه المرأة أنا؟ هذه ليست أنا».

هي *بالفعل* تشبهني، لكنها ليست أنا. أعرف أنها ليست أنا. *لكن* كيف عرف؟

يقول روبرت: «أعرف أنك تعانين مشكلات النوم يا إيما، لا أجدك في الفراش في أي وقت أستيقظ فيه. هل يمكن أن تكوني قد فعلتِ شيئًا ربما أفزعه؟ عن غير قصد؟ شيء اختلط في عقله مع كابوس؟».

أقول وأنا أسمع الهيستريا تتبدى في صوتي تدريجيًّا: «هذه ليست أنا!».

تقول المديرة: «ظننت معلمته أنه ربما رأى المرأة في كابوس».

تصمت برهة، ثم تميل مُضيفة: «ثم رأت هذا».

تقلب الصفحة، ولا أرى فيها رسمًا، بل كلمة واحدة بخط كبير:

ماما.

-20-

أشعر أنني أردِّد نفس العبارة للمرة المليون: «لا بد وأن تكون فيبي».

الدفتر مفتوح فوق منضدة بيننا. يتركه روبرت سريعًا بمجرد أن دخل علينا ويل –في مزاج طبيعي- يحمل عصيرًا وجهاز الآي باد.

أقول لروبرت: «لو أنك تتركني أتحدث إليه».

- كما فعلتِ مع بِن؟ ماذا بك بحق الجحيم؟!

- أنا لم أؤذِ بِن.

أرفع الدفتر، رافضة أن أسمح له بإخافتي أو إلصاق العار بي، وأردف: «هذه ليست أنا. هذه أفعال فيبي. هي من وضعت هذه الصورة في ذهنه».

يحدق إليَّ وهو يقول: «ليس لدي فكرة عما تتحدثين عنه».

أقول له: «أحنا».

لا أصرِّح بالمزيد، يمكنه أن يخمِّن كما يشاء.

لكني أضيف: «لا بد أن فيبي كانت تحكي له عنها».

- وما علاقة والدتك بهذا؟

- لا شيء.

أدلِّك رسغي، وأشعر أن أصابعها العظمية ما زالت تقبض عليه.

أكمل: «ليس بالضبط. ثمة شيء فعَلَته عندما كنا صغارًا، قبل أن تموت. شيء له علاقة بي وبفيبي... أمر خاص».

أعرف أنني أهرِف، لكنه أمر خاص. قضيت عمري كله أتحاشى تأثيره.

أردف: «لكن فيبي لها علاقة وطيدة بكل هذا. لا يوجد تفسير آخر. لقد عادت، وجاءت إلى هنا، وأودعت ويل فراشه. لا بد أنها أخبرته شيئًا».

- لا أعتقد أن فيبي قد تفعل شيئًا كهذا.

ما قاله يدفعني للضحك. أقول متهكمة: «أوه، لكنك تظن أنني قد أفعل شيئًا كهذا؟ ماذا قالت تلك المعلمة؟ المرأة المرعبة التي تظهر في حجرته ليلًا؟ أتظن أنني هي؟ حقًّا؟».

يتردد، كأنه غير واثق من صدق استنتاجه، ثم يقول: «كلا، بالطبع لم أقصد هذا. لكن ما حدث لا يبدو كشيء قد تفعله فيبي».

- شكرًا لثقتك.

تضايقني مدافعته عن فيبي، وتشعِرني كأنه -بعد كل تلك الأعوام- قد أساء اختياري بدلًا منها.

- اسمعي يا إيما...

يرن جرس الباب ثلاث مرات متتالية مُلحة، فنعرف مَن قد يكون الزائر؛ ميشيل. يختفي تأثير محاولات روبرت للتسرية عني. هذه المرة المشكلة مشكلتي.

***

أقول: «أنا حقًّا آسفة يا ميشيل».

لم تدخل أبعد من خطوتين إلى داخل الردهة، وكانت غاضبة، لكن ليس بالقدر الذي توقَّعه روبرت. نظريتي صحيحة، فهي تولي كل انتباهها إلى مشكلة عاطفية أكبر، وأمر كهذا لن ينال أكثر من اهتمام بسيط.

أردف: «أيًّا ما قاله العابر الذي رآني، فأنا لم أؤذِ بِن».

تتسع عيناها تهديدًا وهي تقول: «لقد أخبرني. لكن ما كان لك أن تطلبي منه الابتعاد عن ابنك، وبخاصة وأنا لست هناك».

- أنتِ على حق، كان يجب أن أذهب إليك، لكن ويل لم يبلل نفسه منذ سنوات، لذا الأمر كان صادمًا بالنسبة إليَّ. أنا متأكدة أن ما حدث لم يكن أكثر من لعب أطفال تحول إلى شيء جدي، لكن...

تقاطعني هاتفة: «بِن لم يفزِع ويل حتى بلل نفسه، بِن كان يصيح به لأنه بلل نفسه».

أحدِّق إليها، وللحظة أشعر بحيرة.

يسأل روبرت: «ماذا؟».

كان يقف خلفي بعيدًا عن خط النار، لكنه الآن يقترب.

تقول ميشيل: «أخبرني بِن بأن ويل كان يحدق إلى الفراغ في الفناء بينما الآخرون يحثونه على اللعب. لم يتحرك أو حتى ينظر إليهم. ماثيو وأولاد آخرون من صف ويل خافوا وابتعدوا، لكن بِن ناداه ولم يستجب له، ثم رأى... معذرة، رأى ويل يبلل ملابسه. صاح فيه كي ينتبه إلى نفسه، وانتبه».

تنظر إليَّ ثم إلى روبرت ثم إليَّ مرة أخرى، وهي تضيف: «أيًّا كان ما أفزعه، فهو ليس بِن».

يقترب روبرت أكثر، ويعتذر وهو يقود ميشيل إلى الباب، بينما أنا أتذكر ما قاله ويل في السيارة، أن ما جرى كان خارجًا عن إرادته، ثم صاح بِن به. لقد أخبرني ويل بالحقيقة وأنا من فصلتُ بين عبارتيه وخلقت حقيقة خاصة بي.

إلهي!

يسأل روبرت بعد أن ودَّعنا ميشيل معتذرَين مرات عديدة: «إن لم يكن بِن من ضايقه، فما الذي جعله يبلل نفسه؟».

يعود الشك إلى ملامحه.

أقول في هدوء وقد تعبت من التبرير: «لست أنا. يجب أن نصحبه إلى الطبيب. كان يشكو من دوار من قبل، وحدق يومها إلى الفراغ. ألم تقل ميشيل هذا؟ أتكون هذه عدوى أذن داخلية؟».

- هذا لا يفسر الرسومات.

- سأهتم بهذا الأمر الآن.

فيبي اللعينة، فيبي. أخرِج هاتفي المحمول من حقيبتي وأتجه إلى المكتب ثم أغلق الباب ورائي. لا مكان لروبرت في هذه المحادثة.

***

بمجرد أن فتحتْ الخط، قلت بصوت كالفحيح: «فيمَ تعبثين بحق الجحيم؟ بمَ أخبرتِ ويل؟ حكيت له عنها؟ هو يعاني الكوابيس، وقد بلل نفسه في المدرسة. لم يكن لي ذنب في أي مما حدث في الماضي يا فيبي، ولن يكون، ولن أسمح لك بأن تُقحميه في حياة ويل. أشعر بالأسف كونك ما زلت مستاءة، أشعر بالأسف كونك تظنين أن حياتي صارت أفضل من حياتك، أشعر بالأسف كونك وحدك، لكني لا أريد أن تقتربي منا فترة. أتفهمين؟».

أرتجف حين أنهي خطبتي، ولا أسمع سوى الصمت عبر الهاتف.

أتابع: «أما زلتِ هنا؟».

تقول فيبي أخيرًا: «لقد ماتت».

- ماذا؟

- أمنا... ماتت.

تُفرِغ رئتاي الهواء في زفير طويل قوي، وأنسى للحظات أن أتنفس.

تضيف بصوت هادئ أجادت السيطرة عليه: «حين عدتُ إلى حجرتها وجدتها قد ماتت. كان يجب أن أنتظر معها».

تطلق زفيرًا مرهِقًا سمعتُ فيه كل العواطف التي تحاول احتواءها في نفسها.

ثم تكمل: «ماذا حدث يا إيما؟ لقد كانت بخير حين تركتها معك. *ماذا فعلتِ؟*».

-21-

أظل مستيقظة طيلة الليل، ما بين التحقق من أن الأولاد بخير، والنزول إلى الأسفل لممارسة عاداتي الليلية الجديدة التي غدت استحواذًا أكثر من كونها عادات.

رغم ذلك لم أستطع المجازفة. سريري مفروش بالتوتر. روبرت أولى ظهره نحوي، لكني أعرف أنني لست الوحيدة التي تعاني الأرق.

دينج دونج، *ماتت الساحرة.*[1]

توقعتُ بعض الراحة بعد خبر كهذا؛ أخيرًا يُغلق الباب بيني وبين طفولتي. توقعتُ الحرية، لكني لم أشعر بأي من هذا، ليس بعد، وكلمات فيبي ترن في عقلي.

ماذا حدث يا إيما؟

أغلقت الخط بعد سؤالها هذا، ورحت أدور في المطبخ بينما روبرت يُحمم ويل كي يضعه في الفراش. حين سألني عما قالته فيبي، أجبته بأنني لم أخرج منها بشيء، ثم غُصت في خواطري. أنا مستنزَفة نفسيًّا.

السقف كون مُحبب فوقي. ماذا تقصد فيبي؟ أهذه دائرة اتهام؟ أتهمها بأنها ملأت عقل ابني بتلميحات كابوسية من ماضينا، وتتهمني هي بما هو أسوأ؟

---

(1) Ding Dong! The witch is dead.

أغنية لهارولد آرلين ويب هاربورج من فيلم ساحر أوز.

يمر الوقت. أفكر في الجنون. أفكر كيف استيقظتُ في الواحدة وثلاث عشرة دقيقة. نفس الوقت الذي شجَّت فيه أمي رأسها، وأعجز عن النوم من ساعتها.

كل هذه مصادفات. يجب أن تكون كذلك.

أحاول الحديث إلى روبرت عشرات المرات بينما يدنو من حافة النوم ويبتعد مرارًا، لكن لا تخرج الكلمات من فمي.

لا أستطيع إخباره عنها. ليس الآن. ليس بعد ما حدث اليوم، لذا أستلقي صامتة، أشتهي الفرار من فراشي والتجوال في المنزل حتى يشق ضوء النهار عتمة الليل، فأحظى لنفسي بساعة نوم.

-22-

ستة أيام حتى يوم عيد الميلاد

«ظننت أنني سأقابل مستشارًا عاديًّا».

تتعرق كفاي وأنا أتخذ المقعد الذي أشارت إليه الدكتورة أندريا موريس. كانت تبتسم في ودٍّ. هي أكبر مني بقليل، في منتصف أو أواخر الأربعينيات، فاتنة بشكل عفوي.

ترد: «مما ناقشناه هاتفيًا رأيت أنك تحتاجين إلى شخص ذي اختصاص أوسع».

- إذًا تظنين أنني مجنونة؟

أحاول أن أمزح، لكن لا أظن أنني نجحت في هذا.

رغم ذلك تضحك ثم تقول: «كلا. لكنك قد تحتاجين إلى وصفة دوائية لأقراص أفضل مما قد تشترينه من دون وصفة لتساعدك على النوم».

- بالطبع، فالمنوِّم العادي لا يُشعرني بالنعاس حتى.

- يمكنني أن أصف لك دواء يمنحك بعض الراحة، لكننا نحتاج إلى علاج ما يسبِّب لك الأرق. أنت لم تكوني واضحة بما يكفي في أثناء المكالمة الهاتفية.

كنت قد اتصلت بها في طريقي إلى العمل كي لا أمنح نفسي فرصة للتراجع، وهي تقول في أدب إنني كنت أهذي. لكن من أين أبدأ؟

- أنا أقترب من عامي الأربعين.

تبتسم وتقول: «أنا أقترب من الخمسين. منظورك للأمور هو ما يهم. لنتحدث جديًا، ما الذي يقلقك؟».

- لا شيء يتعلق بالتقدم في العمر.

أرشف من كوب الماء، ثم أضيف: «سأكون سعيدة للغاية حين تمر سن الأربعين. لطالما خشيت الوصول إلى الأربعين طيلة حياتي. ليس للأمر علاقة بالسن، بل بأمي».

تميل خلفًا في كرسيها وتنتظر أن أكمل.

أتابع: «لم تكن طفولتي سعيدة، فيما عدا الأعوام المبكرة منها. أبي -الذي ليس لدي فكرة واضحة عن هويته- قد هجرنا بعد ولادتي بقليل، ثم مات بعدها بفترة قصيرة. تزعم أختي الكبرى فيبي أنها تتذكَّره بشكل ضبابي، لكني لا أتذكره. كما هو واضح، فالأمور لم تسِر على ما يرام بعد ولادتي. والدتي؟ يمكنني أن أحدِّثك عنها حتى موعد تقاعدك، ولا أظنك ستخدشين القشرة التي تسمح لك بمعرفة حالتها حتى. لقد كانت امرأة معتلة للغاية. قبل أن أولَد، تزعم أختي أن أمنا كانت طبيعية. أشك في قدرة فيبي على تذكُّر هذا من الأساس. أظنها تزعم ذلك كي تحظى بشيء لا أملكه. على أي حال، إن كانت حالة أمي النفسية مشروخة قبل ميلادي، فقد انكسرت تمامًا بعده. حين كنت في سن الخامسة، وقبل أيام من بلوغ أمي الأربعين، كانت...».

أتردد هنيهة، ثم أقرر أن أكمل حكي الحقيقة المؤسية: «كانت مجنونة. تتمتم لنفسها. لا تنام. كانت فيبي تساعدني في ارتداء ملابس المدرسة، وتتأكد من أنني قد أكلت، تحاول أن تحممِّني...».

أشعر بالدموع تلسع ما خلف عينيَّ وأنا أتذكر تلك الأيام، حين لم يكن لنا -أنا وفيبي- سوى بعضنا.

أردف: «لكن لم يكن هناك مكان نحتمي فيه».

آخذ شهيقًا ثم أضيف: «أعتقد أن حكم المحكمة أقر أنها كانت في قبضة الجنون التام يوم عيد ميلادها الأربعين».

لو أن الدكتورة موريس قد تفاجأت، فهي لم تُظهر ذلك.

أكمل: «اعتادت أمي أن تخبرني بأنني سأُجن مثلها. كانت تكرر هذا على مسامعي مرارًا، ولم تقل شيئًا مثل هذا عن فيبي. فقط أنا. الجنون متوارث في

عائلتنا؛ حدث هذا لأخت جدتي، ثم أمي، وسيحدث لي. الآن أتساءل إن كانت مُحقة. أنا أقترب من الأربعين، ولم أنَم منذ أسبوع كذلك».

- أين والدتك الآن؟

- ماتت. قضت آخر ثلاثين عامًا تقريبًا في وحدة مؤمَنة، لكنها ماتت أمس بعد أن قابلتُها لأول مرة منذ ليلة عيد ميلادها الأربعين.

أضحك ضحكة بدت أقرب إلى نشيج.

- كيف ماتت؟

- نزف مخي جرَّاء إصابة أحدثتْها لنفسها.

- آسفة لذلك.

تصمت لحظة ثم تسأل: «وكيف تشعرين أنت وأختك تجاه وفاتها؟».

حين أجبت، كنت كشريط ملفوف على نفسه بقوة لسنوات طويلة، وحين انفك كل شيء بداخلي انطلق من عقاله بلا رادع. أتحدث عن إخفاء فيبي زيارتها لأمنا عني. تترنح خطواتي في طريق ذكرى ما حدث ليلة عيد ميلاد أمي الأربعين، وأخبرها بأنني أؤمن بأن فيبي ما تزال مستاءة مني لأجل هذا، وبأن علاقتنا الوثيقة قد ضاعت بعد أن تبنَّت كلًّا منا أسرة مختلفة.

أحكي لها كيف أن ذكرى أمي وهي تخبرني بأنني سأُجن تغلِّف نفسي كما يغلِّف الدهن المحترق داخل الموقد بغلاف قذر خفي. أخبرها عن الوقت الذي تشاركتُ فيه وفيبي شقة واحدة عندما كنت أدرس في الجامعة، وكيف أنها كانت ثملة في ليلة وأحضرت معها شابًّا من الحانة، وبعد أن نامت ظللت أنا والشاب نتحدث، وبحلول الصباح كنا تقريبًا قد وقعنا في الحب، والآن لدينا طفلان ونعيش في سعادة، لكن مؤخرًا أشعر أنه يبغضني، ولا أعرف إن كنت أشعر تجاهه بالمثل.

ظلت تسمعني في صبر والساعة تدق. ألاحظ كيف أجذب الجلد حول أظفاري وأنا أتحدث عن أرقي وكم يفزعني، وعن حاجتي المُلحة إلى التحقق من سلامة أولادي ليلًا. حتى إنني في النهاية أخبرتها عن أرقام أمي، وتسجيلي لها صوتيًا وكتابتها على اللوح. لو لم تكن تظنني مجنونة في البداية، فلا بد أنها قد تأكدت من هذا الآن.

تقول أخيرًا: «لا عجب أنك مضغوطة نفسيًا. هذا أكثر من أن تتحمليه. أعتقد أنك تتعاملين مع الوضع بشكل مثير للإعجاب، كل شيء محسوب بدقة».

- حقًّا؟

كنت أظنها ستتصل بوحدة هارتويل المؤمنة وتخبرهم أن لديها امرأة أخرى داكنة الشعر تحل محل تلك التي ماتت.

- أجل. وأنت كذلك تتعاملين جيدًا مع فقدك لأمٍّ، صلتُكِ بها معقدة.

- ربما تظنين أن فقدها مهم لي، أو مؤثر.

- لكنه لا يزال فقدًا، حتى لو لم تكوني تحبينها -وهذا أيضًا أمر مقبول- فلا يوجد إجبار في الحب حتى وإن كان هذا الشخص فردًا من العائلة. مع ذلك فيمكن أن تمري بفترة حزن. لطالما كانت حملًا ثقيلًا لفترة طويلة، والآن وقد زال الحمل، لا تعرفين كيف تعيشين من دونه. أرى أننا بحاجة إلى جلسات أخرى، فما تعانينه لا يمكن علاجه سريعًا. نحن نتعامل مع صدمة طفولة مروعة.

- بالتأكيد. سأتصل بك في نهاية الأسبوع لتدبر الأمر.

أصمت لحظة ثم أسألها: «ماذا عن الأقراص المنوِّمة؟».

تخُط وصفة طبية، ثم تقول: «هذه وصفة طبية تكفي لأسبوعين، ثم نرى ما سيحدث بعدها. تناولي قرصًا واحدًا قبل نومك بساعة، ولا تشربي معه كحوليات. إن تحسَّن نومك، فقللي الجرعة إلى نصف قرص وراقبي النتيجة. لا نريد أن تتناولي هذه الأقراص سوى لأقصر فترة ممكنة، اتفقنا؟ من السهل أن تعتاديها. اتصلي بي لاحقًا حين تدبرين مواعيد عملك لنحجز جلسة أخرى. آمل أن تنتصري على قلقك الليلي بعد نوم منتظم لعدة ليالٍ».

تبتسم لي كأنه لا يوجد ما أقلق بشأنه، فأبتهج للغاية وأقول: «شكرًا جزيلًا لك. أنا بالفعل أشعر بتحسن، فيما عدا شعور الإرهاق الذي يحطِّمني».

تقودني إلى الخارج عبر الممر، ثم تومئ برأسها نحو حجرة أخرى في الطريق إلى الباب وتقول: «أعتقد أن لدي موكلًا لك كذلك. واحد من زملائي يخطط للطلاق وطلب مني ترشيحًا لمحامٍ مختص. سأرسله لك حسب مواعيدك».

يصدح صوت جرس وصول المصعد، فأقول لها: «عظيم. وشكرًا لك على كل شيء. حديثي عن هذا الأمر أراحني كثيرًا. أحيانًا ما أشعر أن من واجبي أن أحمل عن كل شخص همه، ولَكِم يربكني هذا. لم أكن أعرف من أين أبدأ الحديث مع روبرت عن أمي. لا أتذكر حقًا متى آخر مرة تحدثت عنها».

- مسرورة أنني استطعت مساعدتك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-23-

أذهب فورًا إلى الصيدلية وأصرف دوائي. الدكتورة موريس على حق، سأشعر أن كل شيء صار أفضل بعد نوم مريح، بعدها يمكنني أن أعرف كيف تسببت فيبي في إرعاب ويل بحكايات عن امرأة مجنونة تظهر في غرف النوم، وربما أستطيع إقناعها أن تزور طبيبًا نفسيًّا كذلك. لقد دمر الماضي كلتينا، ولا يحتاج الأمر إلى شهادة دكتوراه كي يتوصل أي من سمع تاريخنا إلى هذا الاستنتاج.

كنت في طريقي إلى خارج الصيدلية حين رأيت امرأة أوقن أنني أعرفها، تقف جوار رف المقويات والمنومات. أحدق إليها متسائلة إن كانت إحدى موكلاتي، ثم تذكرتها حين نظرتْ إليَّ ووجدتني أدقق النظر فيها. هذه هي المرأة التي أحضرت لي محفظتي.

قلت: «كارولاين؟».

لم تكن ترتدي زي التمريض اليوم. كانت ملابسها مكونة من بنطال من الجينز مبقع بالطلاء، وقميص بلا نقوش، وقد جمعت شعرها إلى الخلف على هيئة ذيل حصان مشعث، وبدت لي ضجرة مثلي تمامًا.

أقول لها وقد احمر وجهي: «أنا إيما آفِريل. أنت أعدتِ لي محفظتي وقد كنتُ قليلة الذوق معك إلى أقصى حد. أنا آسفة، فقد كنت أمر بيوم عصيب وكل ما كنت أتفوه به كان مريعًا».

- أجل. أذكرك.

تقولها ثم تنظر نحو الأرفف مرة أخرى في انزعاج. المفترض أن أبتعد عنها، لكني لم أفعل.

أسألها وأنا أرفع وصفتي الطبية وأشير تجاه الأرفف: «أتعانين الأرق أنتِ أيضًا؟ لا تجربي المنومات العادية؛ غير مُجدية. اضطررت إلى أن ألجأ إلى أدوية أقوى».

- أنا أبحث عن فيتامين هاء.

ثم ترفع أمامي زجاجة المقويات، وألاحظ ضمادة تغطي جانب كفها وفي منتصفها بقعة حمراء صغيرة.

- ماذا حدث ليدك؟

- أوه، ليس شيئًا مهمًّا. كنت أجدد بعض الديكورات، فتهشَّم لوح زجاج وجرح يدي.

أنظر إلى أسفل وأرى علبتَي طلاء صفيحيتين جوار قدميها. لا عجب أن جرحها ينزف مجددًا لو أنها كانت تحمل هذه العلب.

أقول وأنا أمد يديَّ نحوهما: «ادفعي ثمن المقويات وأنا سأحمل عنك هاتين وأوصلك إلى سيارتك».

- أنا أركب الحافلة. صدقًا أنا بخير.

- لا تكوني سخيفة.

أحمل العلبتين -وهما أثقل مما ظننت- كلٌّ في يد، وأنا آمل ألا يكون موقف الحافلة بعيدًا.

أردف: «أنا مدينة لك بخدمة».

أظهِر أمامها أكبر ابتسامة في حوزتي وأنا أكمل: «أنا مُصرة».

- حسنًا.

أشعر أنها مضطرة إلى الموافقة. أنا فقط أريد أن أعوِّضها عن وقاحتي معها، بالإضافة إلى أنها لن تستطيع حملهما ويدها مصابة.

تدفع ثمن ما اشترت، ونخرج من الصيدلية، غريبتان، مُحرَجتان. تبدو أصغر سنًّا وأقل حدة في غير زي التمريض، لكنها كانت مرهَقة بالفعل.

أسألها وأنا أفتح موضوعًا للحديث: «اليوم إجازتك؟».

- المفترض هذا. لكن المنزل بحاجة إلى بعض التجديدات قبل أن أبيعه. كان منزل والدتي. لا أستطيع استئجار من يجدِّده لي، فهذا يفوق

إمكاناتي المادية، لكني أحتاج إلى إنهاء تجديده، لذا فلا إجازة لي حتى أنتهي.

تبتسم ابتسامة صغيرة صادقة وتضيف: «آسفة. كان يومي واحدًا من تلك الأيام الثقال».

- أتفهم ما تشعرين به.

أشعر أنها تسترخي أكثر. شيء فيها يروق لي ويشعِرني بالدفء، وأعجز عن تحديد ماهيته. ربما في إمكاني مساعدتها. ربما تصير صديقتي، شخص بعيد عن أسوار المدرسة المقيتة.

تقرقر معدتي ونحن نمر من أمام حانة ويزرسبون، فأسمع نفسي أقول: «أتحبين شطائر البرجر؟ أعتقد أنهم يبيعون اثنتين بسعر واحد».

- الحقيقة عليَّ أن أعود إلى المنزل.

- لا تدفعيني إلى الإلحاح عليك مرة أخرى.

أردف محاولة أن يكون صوتي مرحًا قدر الإمكان: «أكره تناول الطعام وحدي والعبث بهاتفي المحمول متظاهِرة أنني مشغولة».

تنظر نحو موقف الحافلة، لكنها لم ترفض عرضي بعد.

أكرر عرضي: «هيا. نصف ساعة لا أكثر. أريحي يدك المصابة قليلًا. اعتبري هذه الدعوة امتنانًا لكِ لإحضارك محفظتي إلى منزلي. سأعترف لك بآثامي التي يمنعني وضعي الاجتماعي من التصريح بها، وأخبرك بأنني أعشق شطائر البرجر بالجبن الأزرق لديهم. شاركيني هذه المتعة وسأوصلك إلى منزلك بعدها. سيارتي تقف على بعد دقيقتين من هنا».

أبدو كأنني أحاول استدراجها إلى موعد غرامي.

تقول بعد أن تفحصتني للحظة: «حسنًا. يمكن أن أستفيد من هذه الاستراحة».

***

كنا قد جلسنا في كابينة خاصة وطلبنا الشطائر وزجاجة نبيذ صغيرة لكلٍّ منا.

تومئ نحو علبة دوائي وتسأل: «تعانين الأرق، أليس كذلك؟».

- ليس بالضبط.

ثمة ما لا يمكن البوح به. تنظر إليَّ في هدوء، فأفعل كما أفعل في المواقف المحرِجة دومًا، أملأ فراغ الصمت وأقول: «ابني يعاني بعض المشكلات في الدرسة، وتوفيت أمي أمس».

يظهر التعاطف على وجهها، فأردف سريعًا: «كانت مُسنة، ولم نكن قريبتين. هي قصة طويلة مملة، لكنها تسبب خلافًا بيني وبين أختي. مشكلات عائلية، أنت تعرفين حتمًا هذه الأمور».

- أنا ابنة وحيدة، لذا لا ليس لدي فكرة عن تلك المشكلات. أحيانًا ما أكون مسرورة كوني وحيدة، لكن هذا يُحمِّلني أحيانًا المسؤوليات كاملة بمفردي.

- إلهي!

يصل البرجر سريعًا.

قبل أن نبدأ التهامه أسألها: «أخبرتِني بأنك تجددين منزل والدتك كي تبيعيه. هل... هل توفيت؟».

- كلا. أسوأ. هي في دار رعاية مسنين.

تسترخي، وتحتسي عدة رشفات من النبيذ، ثم تمد يدها نحو رقاقات البطاطس وهي تقول: «يبدو قولي هذا مريعًا، أعرف. لكن هذه الأماكن تستنزف المال حتى لو أنك اخترت دار رعاية متوسطة المستوى. مع ذلك، كل شيء سيكون على ما يرام عندما يباع المنزل، وسيتبقى لي مبلغ أشتري به مسكنًا صغيرًا خاصًا بي. كنت أعيش معها وأراعيها صحيًا في الوقت الذي لا أعمل فيه».

- أتمنى لك التوفيق.

أمد يدي إلى طعامي، متسائلة إن كانت تعيش بمفردها الآن.

أقول لها: «الزوج والأبناء قد يستنزفون الأموال كذلك».

- طبعًا، وبخاصة إن كنتِ تبدئين عملًا جديدًا، أو على الأقل زوجك في بداية التحاقه بعمل جديد.

كنت منشغلة في الأكل حتى إنني احتجت إلى لحظات كي أفهم أنها تقصد زوجي أنا.

- أي عمل جديد؟

أضطر إلى انتظارها حتى تنهي مضغ قضمة كبيرة كي أحصل على إجابة السؤال.

تبتلع سريعًا ثم تقول: «الحانة! ألا تعرفين؟ لا تعبئي بما قلت».

- أي حانة؟

- أوه. لا شيء. يا له من يوم غريب. لم ألقاك اليوم فقط بالمصادفة، بل رأيت زوجك وأنا في طريقي إلى شراء الطلاء، وكان خارجًا من حانة معروضة للبيع في شارع ألبيون. في البداية لم أدرك سر ألفة وجهه، ثم رأيت سيارته فتذكرته.

لماذا يبحث روبرت عن حانة للبيع؟

تضيف كارولاين: «ربما لم يكن هو رغم هذا، فقد رأيته لثوانٍ أمام منزلك حين جئت إليك».

أراها تسأل نفسها عن حقيقة ما رأت كما أسأل نفسي عن حقيقة أفعال روبرت. هل هذه المصادفات أغرب من اللازم؟ كان يتحدث عن ضرورة عودته إلى العمل، عمل خاص به، ثم تراه كارولاين خارجًا من مكان محتمل لبدء مشروع عمل.

أحاول أن أحافظ على نبرة صوتي طبيعية وأنا أقول: «أوه، ربما كان هو بالفعل. لطالما كان يحلم بارتياد أماكن مماثلة، وأحيانًا ما كان يدخل حانات معروضة للبيع كي يرى ما بداخلها فقط. غالبًا هو قد مر أمام واحدة منها وقرر أن يستسلم لحلمه القديم».

تقول برقة: «من اللطيف حقًّا أن يمتلك المرء أحلامًا».

ثم نصمت تمامًا ونحن نكمل طعامنا. مناقشة حادة مع روبرت تدور في عقلي. يجب ألا أخبره بشيء. هو بالفعل لديه أحلام غريبة مماثلة، ودائمًا ما ينتهي الأمر إلى لا شيء. لكن كيف قد خطر بباله أن يمتلك حانة بحق الجحيم؟ هذا التزام يلتهم اليوم بأكمله.

إلا إذا كان يفكر في الطلاق.

الصوت يهمس في مؤخرة عقلي. إن فعلها فسيكون لديه وقت لعمل كهذا. أطرد الفكرة سريعًا؛ أولًا بيننا مشكلات كثيرة لكننا بعيدان عن نطاق أرض

الطلاق. ثانيا، وبشكل عملي، دون تحمُّلي دفع كل الفواتير، فلن يكون لديه فرصة لتحمل مخاطرة مالية كهذه.

بعد أن انتهينا، كنا قد تحدثنا عما يخص عملينا فقط. أحمل الطلاء إلى سيارتي ثم أوصلها إلى منزل أمها، والذي لم يكن بعيدًا لحسن الحظ. لا بد أن بَكلي يتساءل عن مكاني الآن، ويجب ألا أتهاون في ساعات عملي وبخاصة بعد لومي المتكرر لآليسون على تقصيرها.

المنزل صغير، على طراز فيكتوري، ذو شرفة سفلية، مثل أغلب منازل المنطقة. بدا أن المنزل كان جميلًا في الماضي، لكنه لا يزال في حالة تستدعي الإصلاح كما قالت كارولاين.

أقول لها وهي تخرج من السيارة وتأخذ علبتَي الطلاء من فوق الأريكة الخلفية: «حظًّا موفقًا. واعذريني إن بدوت غريبة الأطوار اليوم، أنا فقط لم أشأ أن أتناول الغداء وحدي».

تنظر إليَّ من مكانها على الرصيف وهي تقول: «أفهم يا إيما. أحيانًا ما تكون الحياة قاسية، أليس كذلك؟».

أومئ موافقة، وأشعر برغبة مفاجئة في البكاء. أرغم نفسي على الابتسام لها.

تسير على الممر الضيق المؤدي إلى الباب الأمامي، فأناديها هاتفة: «أود لو نتبادل أرقام الهواتف. ربما أستطيع أن أمر عليك بعد أن تنهي طلاء المنزل لنشرب كأسًا معًا أو نتناول طعامًا أو شيء من هذا القبيل».

أخرج هاتفي وأنا أضيف: «ما رقمك؟ وسأرسل لك رقمي في رسالة نصية».

تمليني الأرقام، فأرسل لها الرسالة. أشعر بتحسن إذ أفعل ذلك، بل إن الهدوء قد غمرني خلال الساعة الماضية، هدوء لم أشعر بمثله منذ بدأت مشكلتي مع النوم. ثمة شيء لطيف فيها، فهي ليست حادة مثل ميشيل أو باردة مثل فيبي، أو منشغلة بحياتها مثل باقي النسوة التي أعرفهن. ليست مثلي. هل يمكن أن أصير الصديقة التي تحتاج إليها؟

-24-

لأجل التغيير، أشغِّل المذياع على محطة راديو 6، وأستمع إلى الموسيقى. أدندن مع أغنية روك شعبية لم أسمعها من قبل، وغالبًا لن أسمعها مرة أخرى على محطتي الاعتيادية، راديو2.

أترك نسمات الصيف الليلية تدخل من نوافذ السيارة المفتوحة، وألاحظ أنني في مزاج حَسَن لأول مرة منذ دهور.

***

الآن أرتطم بأرض الواقع. أقرر أن أسأل روبرت مباشرة عما كان يفعل في حانة معروضة للبيع. أحاول أن أبدو فضولية لا أكثر وأتحاشى الصدام، لكنه يرُد كأنني وجدته متلبسًا في علاقة مع امرأة أخرى.

يقول: «هل تتجسسين عليَّ؟».

أحاول أن أضحك وأنا أقول: «لا تكن سخيفًا. لقد صادفتُ تلك المرأة التي أعادت لي محفظتي وتحدثنا قليلًا، وذكرت أنها رأتك. لم أخطط لشيء».

- أخبرتُ آلان بأنني سأذهب معه، هذا كل ما في الأمر. هو يبحث عن استثمار جديد ويعرف أنني أخطط لمستقبلي العملي. لقد قضيت خمس سنوات كأب مقيم بالمنزل للمرة الثانية، وقد اكتفيت.
- كان هذا اتفاقنا.
- أجل، منذ عشرين عامًا تقريبًا! أريد أكثر من المكوث في المنزل، لقد سئمت إضعافكِ لي.
- ما الذي تقول؟ تتحدث كأننا في الثمانينيات.

- أنا لا أمزح.

- أرى هذا.

آخذ نفسًا طويلًا. نقاشنا لن يؤدي بنا إلى أي نتيجة. ربما هو قد كره تبادل الأدوار الذي اتفقنا عليه منذ زمن، لكن يبدو أن ما يمر به روبرت أكبر من مجرد حماس عابر. يمكن ألا تكون تلك الفكرة مدمِّرة لو أنها جعلته أسعد، وأنا بالفعل أود أن يكون سعيدًا. أود أن نكون سعداء.

أسأله: «وماذا يريد منك آلان بالضبط؟ أن تُصمم له خطة التسويق؟».

- كلا، ليس بالضبط.

- ما دورك إذًا؟

- يريد أن أشاركه. ستكون هذه حانتنا. ليس هذا فقط...

ينظر إليَّ في تحدٍّ ثم يردف: «بل سنكون أنا وهو وجوليان شركاء فيها. سأشاركهم بخمسين ألف جنيه، وسأساهم بالعمل في المكان كي أغطي باقي مبلغ الشراكة».

- خمسون ألف جنيه؟ ليس لدينا...

- بل لدينا. لدينا مدخرات، وكلوي تقول إنها لا تريد الالتحاق بالجامعة لمدة سنة، لذا يمكننا إخراج المال من مخبئه. إن أرادت أن تذهب، فلنقترض ثم نغطي القرض لاحقًا.

لا أصدق ما أسمع.

- حانة؟ أعرف أنك تحوم حول أزمة منتصف العمر، لكن هذا سخف. وستشاركهما بالعمل ساعات إضافية؟ هذا يعني أنك ستخرج كل ليلة؟

- أنت تخرجين كل ليلة!

- وإلى متى كنت ستخفي عني هذا السر؟

أخرج زجاجة نبيذ من البراد، وأصب لنفسي كأسًا بينما هو يبحث عن البيرة.

- هذا ليس سرًّا. أنا حتى لم أرَ المكان قبل اليوم، ولم أخبرك من قبل لأنني كنت أفكر في الأمر. بالإضافة إلى أن لدينا مشكلة أخرى، علينا أن نناقش أمر رسومات ويل. حاولت أن أتحدث معه عنها لكنه التزم الصمت. ليس هذا من شيمه أبدًا.

يهبط الليل ببطء في الخارج، وتخفت الأضواء. يتسرب القلق والتوتر ويعودان إليَّ.

أقول له: «أنا أعرف ما حدث بالضبط. فيبي أخافته بقصة. اعتادت أمنا أن...».

أبحث عن كلمات لا تُعد كذبة بالكامل، ولا الحقيقة كذلك.

- ... اعتادت أن تدخل حجرتنا وتخيفنا ونحن نائمتان. وبخاصة فيبي.

- ولمَ قد تخبره فيبي بأمر كهذا؟

يتزايد غضبي وأنا أهتف: «لا أعرف يا روبرت. لماذا تجد أن اتهامي أسهل من اتهامها هي؟ وحيث إنني زوجتك، فأنا أقول لك إنني لم أفزِع ابني ليلًا. هلا عدنا إلى موضوع الحانة؟».

- لكنك لا تنامين، أليس كذلك؟

- إن كان لا بد أن تعرف، أنا ذهبت إلى طبيبة اليوم. قالت إنني بخير ولم تولِ أمر الأرق اهتمامًا خاصًّا. الآن سأذهب وأطمئن على ابني.

- إيما...

تقاطعه كلوي وهي تغلق الباب الأمامي بعد أن دخلت.

تقول: «ماذا يحدث؟».

كانت قد انزعجت من نبرة صوت أبيها وقرعات قدميَّ الغاضبة على الدرج.

أقول لها: «أبوك يريد تبديد المال المدخَر لمصاريف جامعتك. هذا هو كل ما في الأمر».

يرميني روبرت بنظرة نارية وهو ينظر إليَّ عبر باب المطبخ ويصيح: «بربك يا إيما!».

تنزِل كلوي حقيبتها وتهز كتفيها وهي تقول: «إن كان يحتاج إلى المال فليأخذه. ما زلت أفكر في أن أؤجل الالتحاق بالجامعة إلى عام آخر».

أحدق إليهما من أعلى. حبَّتا بازلاء في قرنهما. النصف الأشقر من عائلتي. أبتلع الكلمات التي ستزيد غليان الموقف.

هذا ليس ماله اللعين.

***

أتمنى لو يستيقظ ويل، فنتكور في الفراش معًا ويفتح لي قلبه بشأن الرسومات، لكني أجده نائمًا على جانبه ولم يتحرك حتى حين أضاء نور الممر الخافت بساط حجرته. ملاكي داكن الشعر. أنا أحبهما بنفس القدر، لكن عائلتنا تعاني من حالة «ابنة أبيها- ابن أمه».

أتركه ينام في سلام، وقبل أن ينغلق الباب خلفي تمامًا ألقي نظرة خاطفة عليه، وللحظة ظننت أن عينيه كانتا مفتوحتين، تراقبانني. إن كان الأمر كذلك، فهو قد أغلقهما سريعًا مرة أخرى. هل يرتعش جفناه؟ كلا، لا يمكن أن يكون الأمر كذلك. لمَ قد يتظاهر بالنوم؟ يزعجني هذا الخاطر، ويجد صدى ما في طفولتي.

أهو حقًّا لا يخشاني؟

***

بحلول العاشرة، كنا بالكاد نتحدث أنا وروبرت. أختبئ وسط عملي، بينما هو يشاهد فيلمًا في حجرته. حين ذهبنا إلى الفراش، كنت قد تناولت واحدًا من الأقراص المنوِّمة في التاسعة والنصف، ومع إضافة النبيذ إلى الخليط، غُصت في النوم بمجرد أن لمس رأسي الوسادة.

لكن النوم لم يستمر طويلًا.

أستيقظ وأنا أشهق، وموسيقى عالية تصدح في عقلي. تخفت الموسيقى سريعًا بمجرد أن أفتح عينيَّ، وتتحول إلى نغمة باهتة أعجز عن تمييزها.

أقوم جالسة، تتسارع دقات قلبي. أنظر إلى المنبه فأجد الساعة 1:13 صباحًا. *هذا الرقم يتكرر مرة أخرى، بالطبع يتكرر.* ألعن نفسي أنني أغلقت الستائر، الحجرة غارقة في ظلام دامس وأنا أحاول أن أستشعر أي علامة عن وجود أمر غريب بالمنزل.

هل تحققتُ من غلق الباب الخلفي قبل أن أنام؟ المفترض أنني فعلت. أتمدد على الفراش، أصابعي تنزع الجلد حول ظفر إبهامي تحت الملاءة.

يجب أن أمكث في الفراش. يجب أن أعود إلى النوم. كل هذا سخف. لو منحت نفسي فرصة فسيعود تأثير القرص المنوم مرة أخرى. يجب أن أحاول الاسترخاء.

نجحت في البقاء مكاني لخمس عشرة دقيقة، ورغم كل جهودي في التنفس العميق على طريقة اليوجا، ظل التوتر يتزايد حتى انقبض صدري.

أدفع الأغطية عني. على الأقل أحتاج إلى الاطمئنان على الأولاد.

قال روبرت: «إلى أين تذهبين؟».

أتجمد مكاني وقد أمسك بي. لقد استيقظ!

أقول له: «أحتاج إلى كوب ماء».

- الماء جوار الفراش.

هو مجرد ظل في الظلام، صوت منفصل عن الواقع.

أقول له: «هذا ماء قديم».

أقوم وأتناول الكوب وأنا أضيف: «سأعيد ملء الكوب. هل تريد شيئًا؟».

- كلا.

أخرج من الحجرة، ويصلني صوته باردًا، مُستاء ربما، ساخط بالتأكيد. يقشعر جلدي رغم دفء الليلة، وأنا أنزل الدرجات، تتردد الأغنية بصوت عالٍ في مكان ما من مؤخرة عقلي بشكل مستفز، لكن الكلمات ما زالت بعيدة عن استيعابي.

أهرع لأتأكد من غلق الباب الخلفي. تضطرب أعصابي وقد اختل التزامي بمواعيدي الليلية (هذا توقيت خاطئ، كان يجب أن أفعل ذلك في الواحدة وثلاث عشرة دقيقة) لكن مع ذلك أشعر بتحسن وأنا أهز المقبض وأتأكد أن الباب موصد.

أصب كوب ماء وأشرب، بينما أحدق إلى الليل الحالك، أتوقع أن أرى أحدهم على الجانب الآخر من النافذة يحدق إليَّ.

أنظر نحو الخزانة تحت الدرج وأنا أعبر من أمامها، أقاوم الرغبة في فتحها. لا يمكن أن أتحمل نوبة من نوبات فقدان الإحساس بالزمن تلك، ليس وروبرت مستيقظ. أعود مباشرة نحو حجرة النوم. حين أصل إلى منتصف الدرج أنظر يسارًا، للحظة بدت الظلال جوار النافذة كشخص يتخفى عن الأنظار ثم يتجه نحو حجرتي الأطفال. ألتفت. يجب أن أطمئن، لكن لا أحد هنا والممر هادئ.

أتجه نحو زجاج نافذتنا الجميلة ذات الطرف العلوي المقوَّس وأنظر إلى المنظر المظلم بالخارج. يدي تلمس الزجاج، كفي منبسطة فوق برودته. أرتجف، وتتقلص أصابع قدميَّ وتغوص في وبر البساط الكثيف.

أفتح فمي وأتنفس، فيخرج البخار من صرختي الصامتة ويغطي الزجاج. لو أن أحدهم يراقبني، ماذا سيقول عني؟ هل سأبدو كامرأة في ورطة؟ أم كمجنونة تجوب المنزل في الليل كشبح؟

انظر.. انظر.. شمعة وكتاب وجرس.. أضعهم خلفي..

تطفو كلمات الأغنية في عقلي كالفقاعات، ويلاحقني اللحن. هذه هي الأغنية التي سمعتها في المذياع. يجب أن أعود إلى الفراش، لكني قريبة للغاية من حجرتَي الأولاد، وسأطمئن عليهما على أي حال. هذا لن يضر.

أطمئن على كلوي أولًا، فأجدها غائصة تحت أغطيتها، هاتفها المحمول نصف مخبأ تحت وسادتها. يبدو أنها كانت تتبادل الرسائل مع أصدقائها ثم غلبها النوم. أجذبه برفق وأضعه جوارها. تضيء الشاشة برسالتين وصلتا إليها عند منتصف الليل ولم تفتحهما. لا أعرف من أرسلهما، فقد سجلتْ الأسماء بشكل «إيموجي» على هيئة قلوب وقبلات. أهو شاب ما؟ ربما، وربما لا. ربما تكون آندريا مثلًا، فلم أعد أفهم لغة الصداقة بين المراهقين.

أتركها وأقصد حجرة ويل. سألقي نظرة واحدة سريعة فقط. لن أستطيع العودة إلى النوم لو لم أفعل، سواء تناولت قرصَ منوِّم أو لا.

انظر.. انظر.. شمعة وكتاب وجرس.. هم هنا لِيُذكِّروني..

أفتح الباب وأرى ولدي الصغير نائمًا، فيسري الدفء في جسدي. هو بخير. بالطبع هو بخير.

«بحق يسوع يا إيما»!

يظهر ظل من الظلام عند ركن الحجرة، كوحش مُهدِّد في العتمة. أكاد أصرخ لولا يدٌ تمتد وتُغلق فمي.

يردف الوحش: «ماذا تفعلين هنا بحق الجحيم؟».

كان غاضبًا، عيناه تتقدان وهو ينظر إليَّ. روبرت.

يتابع: «كنت أعرف أنكِ ستأتين إلى هنا. كنت أعرف».

بدا من كلماته أن فعلتي فظيعة كأنني اقترفت ذنبًا. يكمل: «لا عجب أن الكوابيس تراوده».

يجذبني من ذراعي إلى خارج الحجرة مضيفًا: «لا يمكنك أن تقلِقي نومه كل يوم. لا يجوز».

أقول: «أنت تؤلمني».

قبضته قوية، لكنه يطلقني بمجرد أن نخرج إلى الممر.

أكملُ: «كل ما فعلت هو أنني اطمأننت عليه. أنت من كنت تختبئ في غرفته!».

يقول بصوت كالفحيح ونحن نعود إلى فراشنا: «ماذا دهاكِ يا إيما؟ ما خطبك اللعين؟».

-25-

خمسة أيام حتى يوم عيد الميلاد

أصل إلى العمل في الساعة السابعة إلا ربع صباحًا، يضج رأسي بالدوار من أثر قرص المنوم دون أن أستفيد منه بنوم عميق. لقد ظللت راقدة، مستيقظة نصف الليلة. كان في إمكاني أن أظل في الفراش لفترة أطول دون أن أضر بالعمل، لكنني أردت أن أخرج من المنزل وأتفادى أي جفاء من ناحية روبرت على الإفطار.

والآن، وبعد أكثر من اثنتي عشرة ساعة من الإجهاد، أبذل قصارى جهدي كي أبدو شِبه بشرية بينما النادل يصب الماء الفوار والخمر في كؤوسنا ونحن نتناول العشاء اللذيذ غير المشبِع. أومئ شاكرة له، وأنا أتظاهر أنني مهتمة بنوادر ستوكويل وبَكلي عن أيام شبابهما.

يقول بَكلي وهو يقهقه: «يا لجونسون المسكين. أعتقد أنه قد حطم رقمًا قياسيًّا في تلقي الإهانات والتنمر خلال عام دراسي واحد. كانوا يرفعون سرواله الداخلي إلى أعلى بقوة وسط الجميع».

- لكن هذا لم يؤذه. هو يعمل في وزارة الخارجية الآن، لكن حسبما أعرف، فهو لم يُنجب قط.

وضحكا مرة أخرى.

أسأله: «كيف حال الأولاد؟».

يجيب ستوكويل: «بخير. لقد اعتادوا المربية الجديدة. ميراندا لم تحب المربيات، والمربية الوحيدة التي أقنعتها بتوظيفها كانت شمطاء سليطة اللسان. المربية الحالية أصبى وأجمل على الأقل».

تخرج الكلمات مني ساخرة قبل أن أوقفها: «هذا ما يهم في المربيات».

يرمقني بَكلي بنظرة حادة. لذا أضحك وأحاول أن أتصنَّع المزاح.

يكمل ستوكويل: «اتصلت ميراندا عدة مرات، تريد الحديث معهم. دائمًا تبكي وكأنها لم تجلب هذا الوبال على نفسها».

يقول بَكلي: «النساء كائنات عاطفية للغاية».

أرشف النبيذ محاوِلة أن أهدئ ضيقي من لهجتهم المعادية للنساء.

يضيف باركر: «هذا ما يُسهل التنبؤ بتصرفاتهن».

يبتسم لي ويكمل: «إلا إن كن في ذكاء إيما. الجمال والذكاء خليط يخلب العقل».

أسنانه بيضاء أكثر من اللازم، واسمراره الصناعي أقرب إلى لون سيمون كويل[1]، مما أزال عنه أي وسامة طبيعية. لا يلفت نظري الرجال الأغنياء الذين يحصلون على كل ما يريدون.

أقول له: «هذه هي وجهة نظر زوجي كذلك».

أو هكذا كانت.

أسأله: «كيف يمكن أن أساعدك يا سيد ستوكويل؟ لقد انتهت قضية الطلاق».

- والفضل لكِ.

- إن كنت تسعى إلى مزيد من التعاون فيما يتعلق بشركاتك، فلا أظن أنني أستطيع المساهمة بالكثير في عشاء العمل هذا. أنا لم أعمل خارج نطاق قوانين الأسرة منذ زمن. هناك محامون أكثر خبرة مني فيما قد تريد.

- أنا أردت أن تكوني هنا كي أشكرك، وكي أتأكد أن بَكلي يعرف قيمتك.

(1) ممثل بريطاني معروف بلون بشرته الصناعي المائل إلى البرتقالي

يمد يده عبر الطاولة ويضغط على يدي مردفًا: «وبخاصة وقد سمعت أن هناك شراكات قادمة بينكما في العمل».

كفه جافة ساخنة للغاية. هل يحاول أن يحصل على أي فضل في شراكتي المُحتمَلة؟

أقول: «أتمنى ذلك».

أسدد نظرة جانبية نحو بَكلي، فيردُّ بابتسامة باردة. أيحاول أن يحذرني كي أتعامل بلطف أكثر؟

أضيف بابتسامة مشرقة: «لذا ربما وجب عليّ استعادة بعض مهارات عمل قانون الشركات. أظن أنني أعرف شخصا قد عمل معك من قبل، جوليان سيمسون. يعمل في المقاولات».

يهتز هاتفي المحمول فوق الطاولة. اتصال من روبرت. أنهي الاتصال. فلو أنه نسي أنني في عشاء عمل اليوم فهذه غلطته. يرن الهاتف مرة أخرى، فأنهي الاتصال وأدس الهاتف في حقيبتي.

يقول ستوكويل: «أجل، جوليان، رجل ماهر. لا عجب أنه يتولى إنشاءات ومقاولات كل شيء الآن».

ينظر إليه بَكلي نظرة استمتاع الرفاق معًا.

يردف ستوكويل: «مما سمعت، فخصيتاه محتقنتان من السعي خلف تلك الشابة الصغيرة التي تعده ولا تنوِّله. يبدو أنه لا يستطيع التفكير في شيء آخر سواها».

ثم يغمز لي ويكمل: «لا تلائمني السن الصغيرة هذه».

إلهي. إذًا فميشيل على حق. ثمة امرأة أخرى.

يبدو أن ملامح وجهي قد تجمدت لأنه ضحك وهو يقول: «أرى أنك كنت تجهلين كل شيء عن هذا. لا تقلقي، فزوجته معروفة بكونها تتجاهل مثل تلك الأمور».

يفرغ كأسه في حلقه ثم يردف: «يمكن إنقاذ زيجات كثيرة إن صارت الزوجات أمهر في فن التجاهل».

يضحك بكلي موافقا، كأنه هو الآخر قد اعتاد أن تكون له عشيقة أو علاقات ليلة واحدة. رغم أنني أعرف يقينًا أنه مخلص لبيندا. زوجته منذ ثلاثين عاما.

فجأة استطعت أن أتخيلهما أيام المدرسة. باركر ستوكويل، فتى وسيم صاخب مُتنمر، وبَكلي يكتب له أبحاثه مقابل صداقته.

أقوم وأنا أقول: «اسمحا لي بلحظة. أحتاج إلى أن أصلح زينتي».

كنت قد غيرت ملابسي في المكتب، وارتديت فستان عشاء أسود. أستطيع أن أشعر بعينَي ستوكويل تتبعاني بينما أعبر الفجوة بين الطاولات. لم يُحرك كرسيه، واضطرني إلى أن أضغط جسدي إلى ذراعه. للحظة تخيلت نفسي ألتقط زجاجة المياه وأهشمها على رأسه، ولا أتوقف عن ضربه حتى يتناثر مخه على الطاولة، ثم أفعل ذات الشيء مع بَكلي كونه بهذا الخنوع.

يا للرجال.

أشق طريقي إلى دورة مياه السيدات البعيدة عن صالة الطعام الوقورة، القريبة من المشرب المزدحم. أشعر بالضيق لسماحي لهذين الرجلين بإثارة حنقي. لقد تعاملت مع ستوكويل لشهور، وعبرنا فوضى طلاقِه، ورغم أنه لم يرُق لي قط، هو لم يضايقني.

دورة المياه الأنيقة خاوية. أحاول أن أهدئ نفسي. هذا مجرد عشاء، وبمجرد أن يحصل بَكلي على ما يريد من ستوكويل، يمكن أن أختفي أنا من الصورة. أنا متأكدة أنه سيجد امرأة أخرى تلفت نظره سريعًا. ربما تكون المربية المسكينة. هذا ما يضايقني، لقد خاض كل تلك الحرب كي يحصل على الوصاية على أولاده، ثم يتركهم لشخص آخر يربيهم.

عمومًا هذا ليس من شأني، لدي من المشكلات ما يشغلني.

«لطالما تساءلت كم سيحتاج من الوقت كي ينقل اهتمامه إليكِ».

ميراندا!

كنت أغسل يديَّ حين خرجَت من المقصورة المجاورة، وتعرفتها على الفور من صوتها الحاد شِبه الثمل. ميراندا ستوكويل، الزوجة المُزدراة. تبدو مختلفة، شعرها الطويل صار داكنًا، مُدلى على كتفيها بحرية. وزينتها كثيفة كمصاصي الدماء. ما كنت لأعرفها لولا صوتها.

أقول باهتمام غاضب: «ميراندا، ماذا تفعلين هنا؟ ما كان لك أن تكوني في هذا المكان».

- أنا أذهب حيثما أشاء.

- هل كنت تتبعينه؟

يخطر ببالي خاطر آخر يجعل دقات قلبي تتسارع.

فأردف: «هل كنت تتبعينني؟».

يلتوي ركنا فمها في ابتسامة مريرة، لكنها لا تقول شيئًا.

أستخدم صوت المحامية الرزين المتقن وأقول: «اسمعي. أمكنني ابتلاع أمر الوريقة التي ألصقتِها على زجاج سيارتي، لكن قطع الإطار أمر خطر».

تتمايل قليلًا وهي تنظر إلى انعكاسها في المرآة كأنها تنظر إلى غريب، ثم تقول: «سمعت أن لأولادي مربية جديدة. فكرت في مواجهته. جئت لمواجهته، لإحراجه. لكني لن أستطيع، أليس كذلك؟ أي شيء أفعله أو أقوله، مهما كان منطقيًا، سيتحول إلى عام آخر بعيدًا عن أبنائي».

- يجب أن تعودي إلى بيتك.

كانت تقف بيني وبين الباب، وأتمنى لو يدخل أحدهم.

فأضيف: «لا أظن أن الأمور ستسير في مجرى أفضل لو تحدثتِ إليه».

تبتسم، ويتحول تعبيرها إلى تعبير غاضب مرير وهي تقول: «لا يهم. أنا خفية. غير موجودة. ربما لم أكن بحاجة إلى تغيير لون شعري».

- ميراندا، أنا قلقة بشأنك.

- كلا، أنت لست قلقة.

للحظة ظننتها ستبكي، لكنها تردف وهي تميل نحوي: «أنت قلقة بشأن ما قد أفعل. أتعرفين شيئًا أيتها السيدة القادرة المتعالية إيما آفريل؟ يجب أن تقلقي. ربما أفعل شيئًا جنونيًا، شيئًا يشعرك بأنكِ غير مرئية مثلي».

أصيح: «يجب أن تكفي عن معاقرة الخمر، ويجب أن تتركيني وشأني. أنا لا أعاشِر...».

تخرج من الباب قبل أن أكمل عبارتي، وتترك ثلاث نساء يعبرن من الفرجة الضيقة ويمنعنني من ملاحقتها.

سحقًا، سحقًا، سحقًا!

لا أستطيع أن أراها في أي مكان وأنا أعود إلى طاولتنا. هل رحلت؟ هل تنتظرني بالخارج؟ هل أتصل بالشرطة؟ لقد لوَّحت لي بتهديدات ثملة واهية، لكنها لم تمسني فعليًا، لكني أظن أنها قد قطعت إطاري الأسبوع الماضي.

لا أعتقد أن ما سأقول سيجبر الشرطة على وضع مشكلتي ضمن أولوياتها. يجب أن أخبر بكلي. وربما أخبر ستوكويل كذلك. لا أريد لهذا الهراء أن يزيد ما يشغلني في حياتي.

النادل يقف جوار الطاولة. وثلاثتهم ينظرون إليَّ إذ أقترب. يبدو بَكلي محرَجًا.

قال: «هل كل شيء على ما يرام؟».

- اتصل زوجك بالمطعم. قال إنه كان يحاول الاتصال بك على هاتفك المحمول.

لقد ظننت أنه نسي فقط أنني هنا. ماذا لو وقع حادث؟ يهاجمني الفزع الذي أعانيه ليلًا. وأشعر بالغثيان.

أقول: «الأولاد...».

يقول النادل في أدب: «قال زوجك إن الأولاد بخير يا سيدتي. لكن يجب أن تعودي إلى المنزل».

أشعر أن المطعم بأكمله يدور بي. لكني لا أرى بوضوح إلا وجه المرأة التي تقف بين المشرب وصالة الطعام. وقد ثبّتت عينيها عليَّ.

ميراندا.

يكمل النادل بصوت أعلى من الضروري ويقول: «الشرطة هناك».

يتوقف لحظة عن الحديث مانحًا إياي فرصة استيعاب آخر كلماته. ثم يردف: «ويريدون التحدث إليك».

-26-

هناك سيارة شرطة خارج المنزل، مما سيروق الجيران. أوقف سيارتي سريعًا، وأهرع إلى الداخل وأنا أشعر بالإعياء. كلوي متسعة العينين تطل من غرفة الجلوس.

تقول بصوت منخفض وأنا أعبر أمامها: «هم في المطبخ. ماذا يحدث يا أمي؟ اللعنة!».

حقًا يا كلوي، *اللعنة*. كنت أريد أن أجيبها بصوت عالٍ بما خطر ببالي، لكني أغمغم شيئًا عن كون ما يحدث مجرد سوء فهم، وأن عليها أن تمكث مكانها أو تذهب لمرافقة ويل. ثم أرى فيبي تنزل الدرج كأن البيت بيتها. تنظر إليَّ كأنني سُم، وبالتأكيد نظرتي إليها لم تكن مختلفة.

يتصلب عمودي الفقري وأنا أسألها: «ماذا كنت تفعلين بالأعلى؟ على وجه الدقة، ماذا تفعلين في...».

يخرج روبرت من المطبخ ويهدر بصوت كالرعد: «إيما. هم هنا».

تقول فيبي من خلفي: «الأمر يخص أمنا».

كنت أقف بينها وبين روبرت، وأشعر أنهما حارسان يصحبانني إلى حجرة الإعدام.

ثمة شرطيان، رجل وامرأة، كلاهما في منتصف الثلاثينيات، يشربان القهوة في اثنين من أفضل الأكواب لدينا. قدَّما نفسيهما إليَّ وأظهرا شارتَي الشرطة وكأنني سأظنهما مُدعيَين.

أقول: «ماذا يحدث؟».

وجهي يشتعل بإحساس الذنب رغم أنني لم أفعل شيئًا.

أردف: «كنت في عشاء عمل مهم».

كانت هذه أولى كذباتي، لأنني كنت في المطعم كطُعمٍ لشبق باركر ستوكويل.

- هكذا قال زوجك. نأسف لإزعاج أمسيتك.

كانت المرأة هي من تتكلم، اسمها هيلدريث على ما أتذكر. هيلدريث وكاين، أجل.

تردف: «لكننا بحاجة إلى سؤالك بضعة أسئلة عن ظروف وفاة والدتك.

أحدق إليهما وأنا أعي أن عينَي روبرت تثقبان وجهي. تتقلص معدتي وقد أدركت أن أي شيء سيقولانه سيعني أنه قد عرف أن أمي لم تكن ميتة طيلة هذه الأعوام. كذبة عمري تنكشف الآن.

أقول: «كانت في المستشفى. أفترض أن في وسع الأطباء هناك إمدادكم بكل تفاصيل مرضها».

- هل رأيتِ والدتك يوم الثلاثاء؟

- كانت زيارة خاطفة، ثم أخبرتني أختي لاحقًا في نفس اليوم بأنها قد توفيت. ما الأمر؟

- أنت آخر من رأى والدتك حية.

- لا أعرف إن كنت كذلك أم لا، لكني سأعتبر أن ما تقولانه هو الحقيقة.

إلامَ يقود هذا الحديث؟ أحاول أن أتبين من ملامحهما الإجابة، لكن وجهيهما كانا جامدين.

- حدِّثينا عن زيارتك.

- بالتأكيد. لكن قبلًا، أخبريني ماذا تريدين أن تعرفي، لقد كانت امرأة مسنة تعاني إصابة بالغة، وقد توفيت. ما علاقة هذا بالشرطة؟

يرفع كاين عينيه عن قهوته ويقول: «لا يبدو أنك حزينة على وفاتها».

- لست حزينة. أنا اعتبرتها ميتة منذ كنت في الخامسة.

أجزع حين أفكر في رد فعل روبرت حين جاء. *والدتها؟ لكنها ماتت حين كانت طفلة. هكذا كانت تخبرني دومًا.*

- ومع ذلك ذهبتِ لزيارتها؟

أصيح: «والآن أتمنى لو لم أذهب. لأجل الله، ماذا يحدث؟».

تقول فيبي من مكانها في الركن: «كانت هناك وسادة على الأرض جوار فراشها. ظنوا أن أحدهم... ربما... لا أريد أن أتفوه بالكلمة».

يحل الصمت بعد عبارتها، وأحدق إليها، ثم إلى الشرطيين، والتداعيات تهبط فوق رأسي.

أنهار على مقعد جوار المنضدة وأنا أقول: «أتظنون أنني قد خنقتها؟ لماذا قد أفعل شيئًا كهذا؟ لقد كانت تحتضر وقد تركتها حية».

تقول هيلدريث ونبرة صوتها محايدة إلى حد مفزع: «لقد أرسلنا مسحات من طاقتَي أنفها للتحليل. لو وجدنا أليافًا قطنية فسيتضح الوضع أمامنا».

تنظر إليَّ مفكرة وهي تضيف: «لكن أحدهم رآك تهرعين خارجة من جناح المستشفى ويبدو عليك الكرب، وهو ما يماثل ما يبدو عليكِ الآن».

- حين كنت في حجرتها، قبضت أمي على رسغي للحظات، وقد أفزعني هذا.

تعقد فيبي حاجبيها وتقول: «لكن هذا غير ممكن. ليس مع إصابة مخها».

لمَ لا تكون في صفي ولو لمرة واحدة؟

أهتف: «بل كان هذا ممكنًا، لأنه ببساطة حدث. كنت أقرأ تقرير حالتها المعلَّق فوق فراشها، وفجأة فتحت عينيها وقبضت على رسغي للحظات، ثم تركته. لا أظنني مضطرة إلى أن أفسر ما سُجنت أمي لأجله، لذا فزعت. هرعت خارجة إلى سيارتي، ثم اتصلت بي المدرسة فذهبت إليها».

- في أي ساعة كان هذا؟

- لا أذكر، لكن توقيت المكالمة مسجل على هاتفي.

أقولها وأنا أقلِّب في محتويات حقيبتي.

تقول هيلدريث: «لا أعرف ما تأملين في إثباته من خلال توقيت المكالمة».

أبحث في قائمة الاتصالات على شاشة الهاتف، ثم أدفعه إلى يد هيلدريث هاتفة: «أوه، هذا سخف. انظري هنا، اتصلوا بي في الثالثة وخمس دقائق. في أي وقت توفيت؟».

- في الثالثة وتسع دقائق. لكن لا يمكننا التأكد من أنك أجبتِ هذا الاتصال في سيارتك.

- إذًا أنا كنت أحادث المدرسة بينما أضغط وسادة إلى وجه أمي؟ أهذا ما تظنينه؟

تضع هيلدريث الهاتف برفق على الطاولة في منتصف المطبخ وهي تقول: «المكالمة استمرت دقيقتين فقط. فكان بوسعك وقتها استخدام كلتا يديكِ».

أحدق إليها ولا أصدق أنها جادة. وجه هيلدريث كتاب مُغلق أعجز عن قراءته.

تقول بصوت واثق: «متأكدة أن كل هذا سيتضح حين يصل إلينا تقرير المعمل».

أشك أنها تتخيل أن النتائج قد تأتي في صالحي.

تردف: «تستطيعين الآن فهم سبب طلبنا الحديث إليك. ورغم ما قالت أختك من أنك لم تكوني تريدين أي صلة بوالدتك، وتتمنين لو أنها كانت ميتة، ذهبت لزيارتها... ثم ماتت».

يكتسحني الإرهاق وأنا أقول: «لقد ذهبت لزيارتها لأنها كانت تحتضر. ظننت هذا واضحًا. الآن انصرفا. أم أن هناك شيئًا آخر تريدانه؟».

- ليس الليلة.

- إذًا ارحلا.

يقودهما روبرت إلى الخارج. أنتظر حتى يرحلا، ثم ألتفت لأواجه أختي التي غمغمت: «إيما، لو أنك قد فعلت شيئًا...».

أقاطعها وأنا أخطو نصف خطوة نحوها: «ماذا أخبرت ويل يا فيبي؟ لمَ أفزعتِه هكذا؟ لمَ حكيتِ له ما فعلت أمنا؟ ولمَ الآن؟ قبل يوم عيد مولدي؟ ما خطبك؟».

تقول بصوت خفيض بارد: «لا أعرف عمَّ تتحدثين، ولا تقلبي الطاولة عليَّ».

تنظر خلف كتفها لتتأكد أننا وحدنا، ثم تضيف: «أنت لا تنامين، أليس كذلك؟ هذا ما قاله روبرت. يبدو أنك تعانين جنون الارتياب كذلك. لماذا تظنين أنني قد أخبر ويل أي شيء عن أمنا؟ لست مجنونة كي أفعل هذا».

ظلت عبارتها الأخيرة معلَّقة بيننا وهي تضيف: «ما خطبك أنت يا إيما؟ أعتقد أنك بحاجة إلى مساعدة. أنا قلقة بشأن عائلتك».

يحمر وجهي حنقًا؛ هي على بعد خطوة من نعتي بالجنون.

أقول لها بصوت كالفحيح: «هذه عائلتي أنا، لا أنت. ولن يصيروا عائلتك مهما تمنيتِ ذلك».

أخطو خطوة أخرى نحوها وأنا أردف: «تظنين أنني لم أعانِ كي أحصل على كل ما حصلت عليه. تظنين أنه ليس عدلًا أن أحوز أنا كل هذا ولا تملكين أنت شيئًا، لكن هذا عذرٌ اختلقتِه لنفسك. لم أجنِ شيئًا بسهولة يا فيبي. كل هذا ثمرة تعبي المضني. العلاقات تعب مُضنٍ، الأطفال تعب مُضنٍ. المستقبل العملي اللعين عمل مضنٍ. أنا أحاول الاستفادة بكل ساعة تمر عليَّ يا فيبي، وهذا هو الفارق بيني وبينك. تظنين أن العالم مدين لك بسبب ما فعلته أمنا، وبسبب معاناة طفولتنا، ولأنك كنت الكُبرى. العالم لا يدين لأي شخص بأي شيء. لذا اغربي عن وجهي يا فيبي، اغربي الآن وابتعدي عن بيتي».

تأخذ سترتها من فوق ظهر المقعد وهي تقول: «أنت آخر من رآها يا إيما، ولن تتدخل الشرطة بلا سبب. أتعتقدين أنني سأصدق هذا الهراء عن أنها قبضت على رسغك؟ بربك. هذا ممكن فقط في خيالك. لا أعرف ماذا بكِ، لكن أتمنى لك حظًا سعيدًا أيتها السيدة التي تحصل على ما تريد مهما كان الثمن. أيتها السيدة التي لا تُلام. ربما كانت أمنا مُحقة في قلقها. ربما أنت تُجنين مثلها».

صفعتها بقوة حتى إن كفي آلمتني، وصار خدها ملطخًا بالأحمر في كسر من الثانية. أستطيع أن أراه قبل أن تضع كفها عليه. لم تتحدث أيُّنا، وظل صوت الصفعة يدوي بيننا، وقبل أن أجبر نفسي على الحديث كانت قد رحلت.

أرى كلوي عند المدخل تحدق إليَّ كأنني غريبة، بينما تختفي فيبي عبر باب المنزل.

تهتف قبل أن تهرع صاعدة الدرج إلى حجرتها: «هذا خبال لعين».

لا ألومها. لا ألومها على الإطلاق.

يعود روبرت إلى المطبخ. نتبادل النظرات للحظات طويلة. أنتظر أن يصرخ فيَّ، لكنه حين تحدث كان هادئًا مما أزعجني أكثر.

قال: «هل لديك ما تقولينه؟».

يبدو مرهَقًا –وكأنه يعرف شيئًا عن الإرهاق الحقيقي– تائهًا، مرتابًا.

- أنا لم أقتلها.

عبارة سخيفة، وبخاصة حين نطقتها بصوت عالٍ. *أنا لم أقتل أمي*.

- ليس هذا ما أتحدث عنه. أنت أخبرتِني أنها قد ماتت. كل تلك الأعوام زعمتِ أنها قد ماتت وأنت صغيرة.

أقول ساخرة غير مبالية: «حسنًا. والآن هي ماتت».

- هذا ليس ظريفًا يا إيما. لمَاذا لم تخبريني بأنها حية؟

ينظر إليَّ كأنني كنت غريبة عنه كل تلك الأعوام. أملأ الغلاية لأعد لنا بعض الشاي. كوب الشاي الجيد هو المنقذ الأعظم من كل الصدمات العاطفية في تاريخ الأمة الإنجليزية، لكني أشك أنه قادر على علاج كل شيء هذه الأيام. الفائدة المرجوة من الشاي الآن هي أنه يُمكِّنني من إعطاء ظهري لروبرت في أثناء إعداده.

أهز كتفيَّ، ولا أعرف كيف أبدأ. *لم يكن هذا من شأنك اللعين*.

أرد: «كان هذا منذ وقت طويل، وهو أمر خاص كان من الأفضل والأسهل عدم الحديث عنه».

- كنت سأتفهم أنك لم تريدي أن تتحدثي عنها، لو أنك أخبرتِني ما فعلتْ».

نبرته أبعد ما تكون عن التفهُّم.

أسأله: «وكيف عرفتَ ما فعلتْ؟».

تبزغ الإجابة أمامي فجأة، فأردف: «فيبي أخبرتك بالطبع».

- لم تخبرني بالكثير. فقط أخبرتني كيف كانت أمك تخنقها حين رأيتهما. تحدثت الشرطة إليها أولًا اليوم، وفكَّرَت أن في مصلحتك أن أعرف قبل أن تصلي.

- بالتأكيد.

هكذا هي فيبي، دائمًا ما تفكر فيَّ. بالطبع لم يخطر له أنه كان في إمكان فيبي أن تتصل بي أولًا، فأحكي أنا له بنفسي.

أتابع: «أنا لم أخبرك عنها لأنها لم تستحق أن تكون جزءًا من عائلتنا. لقد كنت صغيرة للغاية».

أشعر أن الدموع تحتشد خلف مقلتيَّ، وأنفاسي تتهدج.

أكمل: «وحقًّا لا أعرف ما الذي دفعني لزيارتها. لقد أخبرتني فيبي بأن تلك الزيارة ستشعرني بتحسن، ومن ثَم سأتمكن من إخراجها من عقلي، لذا ذهبت، والآن تنهال كل تلك المصائب على رأسي».

أخيرًا يقوم، ويلف ذراعيه حولي. وجهي مُندس في ألفة صدره وهو يقول: «ثمة خطأ. نتائج المسحة ستكون لصالحك».

كلماته مُريحة، لكنه لا يبدو مقتنعًا بها.

يكمل: «سألغي مشروبات يوم عيد ميلادك في الصباح، وسنعبر كل هذا».

يضمني إليه بلا مشاعر حقيقية، ثم أصير وحدي مرة أخرى.

يقول وهو بعد يتحاشى تلاقي أعيننا: «موعد النوم. حاولي أن تنامي جيدًا حتى نستطيع مواجهة الغد بكامل استعدادنا».

- ربما يمكننا أن نشاهد شيئًا مضحكًا على جهاز الآي باد الخاص بك حتى ننام؟

لا أريد أن أتحدث إليه أكثر، لكني أحتاج إلى أن أكون جواره، أن أشعر بأن هناك من يقف في صفي خلال تلك الأزمة.

- فكرة جيدة. سأذهب وأتحدث مع كلوي وسأفهِمها أنه لا يوجد ما يقلِق.

- سأجلب الشاي معي إلى الأعلى.

يبتسم ابتسامة باهتة وهو يقول: «شكرًا لك. يا له من أسبوع عصيب!».

أعتقد أن كلمة عصيب لا تفي الأسبوع حقه. يصعد إلى الأعلى، فأنظر إلى كفيَّ المرتعدتين. هل تعتقد الشرطة أنني قتلت أمي حقًّا؟ هل تعتقد فيبي هذا؟

آخذ نفسًا عميقًا. كيف سأشرح الأمر لبَكلي غدًا في العمل؟

بينما يغلي الماء للشاي، أمسك هاتفي وأراجع كل اتصالات روبرت التي لم أرد عليها، وألاحظ رسالة من فيبي تطلب مني أن أتصل بها، وهي رسالة وصلت قبل أن يتصل بي روبرت. الآن أشعر بالحرج الشديد إزاء ضربي لها. لقد صفعتها حقًّا، وهي الآن تكاد توقن أنني من قتلت أمنا.

ثمة رسالة أخرى من باركر ستوكويل، يتمنى لي فيها أن يكون الأمر بسيطًا. ها هو موقف آخر يجب أن أتصرف فيه، وبالنسبة إليَّ، صارت ميراندا

الثملة في دورة المياه ذكرى منذ عقود. ستحب هي ما آلت إليه ليلتي وقد ظهر أن حياتي ليست بهذه المثالية.

أنظر عبر نافذة المطبخ. ليل الصيف يحل أخيرًا، وأعصابي مشدودة عن آخرها كأوتار قيثارة توشك على التمزق. كل شيء سيكون على ما يرام. الشرطة تؤدي واجبها ووجود وسادة على الأرض أمر مريب وبخاصة مع تاريخ عائلتنا العقلي. على الأرجح هي قد أصيبت بنوبة تشنجات قبل موتها فسقطت الوسادة من خلف رأسها. أنا حتى لا أذكر وضعية الوسادات قبل رحيلي، بل لا أذكر الكثير عما حدث بعدما قبضت على رسغي. ثمة فجوة في ذاكرتي لا أريد التفكير فيها.

أعود إلى الباب الخلفي، أتأكد أنه موصَد، وأغرس في عقلي أنه كذلك حتى إن قمت من نومي لا تراودني الشكوك. أتمنى أن يوقف هذا رغبتي العارمة في النزول ليلًا إلى الطابق السفلي ومن ثم أتمكن من النوم. ماذا عن روبرت؟ هل سينام بعد كل هذا؟ لقد كانت الشرطة هنا تتهمني بقتل أمي التي كان يظنها ماتت منذ أعوام. ثم هناك رسومات ويل، وتربصه بي في حجرة الولد الليلة الماضية رغم تأكيدي له أن فيبي هي من أفزعته. *توقفي عن إفزاع طفلنا بالوقوف جواره ليلًا*.

أفكر في الوسادة التي تمسكها المرأة في رسومات ويل، ثم في أمنا وما فعلتْه، ثم في الوسادة التي وجدوها جوار فراشها. كانت الشرطة ستجد ما تمرح بشأنه لو أن ويل أخبرهم، وأنا أعرف أن هذا الخاطر يجول في ذهنه طيلة الوقت.

أصب الشاي وأضيف الحليب إليه، ثم أذيب في كوب روبرت مكعبَي سكر. أسمع صوت أزيز هاتفي مرة أخرى. كدت ألا أنظر إليه خشية ما سينبئني به، لكنها كانت رسالة من كارولاين مكتوب فيها: **بالتأكيد. يبدو هذا رائعًا.**

ما الذي يبدو رائعًا؟ أبحث عن الرسالة التي أرسلتها أنا إليها قبلًا، فأجدها، وفيها أقترح أن نحتسي مشروبًا معًا في مكان ما. متى أرسلت هذه الرسالة؟ أنظر إلى توقيت إرسالها لأجده الثالثة والنصف صباحًا أمس. أذكر أنني في هذا التوقيت كنت أفحص رسائلي الإلكترونية وأنا محبوسة في فراشي. يبدو أنني أرسلت تلك الرسالة وقتها. رأسي ينبض. لا يهم ولم يفاجئني هذا. الليالي تختلط في ذهني.

أغلق هاتفي. رسالتها أشعرتني بنفحة دفء وسط فظاعة الأمسية. على الأقل هناك من يرغب في مصادقتي.

حان وقت الصعود إلى أعلى ومواجهة روبرت، وآمل ألا ينهار. واثقة أن أمامنا نقاشات نخوضها حين «يهضم» ما حدث. كما لا بد وأن الدكتورة موريس ستقول. أذكر الطريقة التي قبض بها على يدي أمس، وسحبي خارج حجرة ويل. أذكر الغضب والشك.

يتزايد إحساس التهديد بداخلي. فأنظر نحو الباب الخلفي. أتأكد أنه موصَد. أعرف أنه موصَد، لكنني ألقي عليه نظرة أخرى أخيرة قبل أن أصعد للنوم.

***

فعلتها حين ذهب روبرت لغسل أسنانه. أخذت قرص المنوِّم الذي وصفته لي الطبيبة، وقبل أن أجبُن، دسست في شايه قرص منوم عاديًّا وقلَّبته سريعًا بطرف قلم حبر من دُرج الكومود.

أجلس بشكل طبيعي. نبضي يتسارع. أتمنى ألا يشعر بأي مذاق غريب لا يغطيه طعم السكر.

أعرف أن ما فعلته خطأ. *بالطبع هو خطأ*. لكني قرأت نشرة المنوم وعرفت أنه لن يضره. وأنا لن أتحمل فكرة أن يظل مستيقظًا يراقبني طيلة الليل. آمل أن ننام جيدًا ثم تتصل بنا الشرطة في الصباح ويخبرونا بأن الموضوع كان مجرد شك سخيف بلا دليل. وقتها سأعود إلى روبرت وأقنعه أن الرسومات ما هي إلا غلطة فيبي. ولا يعود هناك ما يشغلني إلا مسألة الحانة، وبلوغي سن الأربعين.

لكن رجاء يا إلهي، امنحني أولا بعض النوم.

-27-

لست نائمة.

أنا داخل الخزانة أسفل الدرج، ملتصقة بالحائط، ركبتاي مُندستان تحت ذقني. المكان مظلم رطب، والغبار يحرق أنفي بينما تعصف الذكريات بعقلي.

لا يا أمي.. لا..

يُطوى الزمن حول نفسه، ويعيدني إلى تلك الليلة حين كنت في خزانة أخرى حبستني فيها أمي. الظلام مرعب كهاوية تريدابتلاعي، مرعب تمامًا كالأصوات على الجانب الآخر من باب الخزانة. صوت خطواتها إذ تذهب لتفتح الباب الخلفي، ثم تغلقه، ثم تصعد إلى أعلى، بعدها تهط إلى أسفل.

خطوات، خطوات، خطوات.

ثمة عاصفة، أذكر هذا. والآن العاصفة تنتقل إلى داخلي.

انظر.. انظر.. شمعة وكتاب وجرس.. أضعهم خلفي..

انظر.. انظر.. شمعة وكتاب وجرس.. ليُذكّروني..

الأغنية صاخبة للغاية في عقلي، وتمنعني من التكير. أنا مرهَقة جدًّا. لماذا زحفتُ إلى هنا؟ إلامَ سيوصلني هذا؟

أرى إصبعي بشكل شبحي ضبابي يمتد أمامي ويلس الباب.

في ذاك اليوم الأخير، عدت أنا وفيبي من المدرسة لنجدها جاثمة في الصالة، تخدش باب الطابق السفلي من الداخل وهي تغمغم: «مائة وثلاثة عشر مائة وخمس وخمسون مائتان وثمانية عشر مائتان واثنان وعشرون

مائة وثلاثة عشر مائة وخمس وخمسون مائتان وثمانية عشر مائتان واثنان وعشرون مائة وثلاثة عشر مائة وخمس وخمسون مائتان و...».

أكتب الأرقام بإصبعي على الخشب الناعم. 11315521822.

انظر.. انظر.. شمعة وكتاب وجرس.. أضعهم خلفي..

لماذا يحدث لي هذا كل ليلة؟ حلقي جاف من أثر القرص المنوم الذي لم يؤثر بي. لن أتناول واحدًا آخر. لا يوجد فائدة من ذلك. القرص يُمرضني ولا يُنيمني.

الأمر مختلف مع روبرت: قد انفصل تمامًا عن العالم بعد قرص منوم بسيط واحد.

انظر.. انظر.. شمعة وكتاب وجرس.. ليُذّكروني.

أكتب الأرقام الخفية على الخشب مرة أخرى. أشعر كأنني هنا منذ الأزل. ربما كنت كذلك، وربما أنا أعاني واحدة من نوبات فقدان الإحساس بالزمن.

في الساعة الواحدة وثلاث عشرة دقيقة أتحقق من غلق الباب الخلفي. أهزه. بالطبع هو موصَد. كنت أعرف أنه موصَد من قبل أن ألمسه، وأذكر أنني أغلقته، لكنني لم أستطع مقاومة الرغبة في النزول إلى أسفل بعد خسارتي لمعركتي مع الأرق. الأمر أكبر من مجرد رغبة، بل هو شعور أولي وحشي لا أستطيع مجابهته.

في الواحدة وخمس وخمسين دقيقة، أصعد إلى الأعلى وأحدق إلى خارج نافذة الصالة. كفاي مفرودتان على الزجاج. دقات قلبي تتزايد. والآن؟ أنا الآن هنا. أعود إلى الخزانة تحت الدرج، تمامًا كما كنت طيلة الأعوام الفائتة في منزل مختلف. لكن هذه المرة، أنا من أودعت نفسي الخزانة.

في طريقي إلى الأربعين، في طريقي لأصير نسخة أمي.

كل شيء يبدو غريبًا ليلًا. كل شيء في غير موضعه في عقلي. قطع أحاجي لا تُكمل بعضها بعضًا. ظننت أنني سأتحسن حين ماتت أمي، لكن حالتي تدهورت. الليلة شائهة، الأفكار مُتشظية ورغم ذلك قوية، تملؤني بالهلع والقلق والضيق.

كيف ماتت أمي؟ هل أنا قاتِلتها؟ هل يمكن أن أثق بنفسي؟ في وضح النهار يمكنني أن أثق في تصرفاتي بلا جدال، لكن الآن، وسط عتمة الليلة، لست متأكدة.

هل أنا راوي قصتي غير الموثوق به؟

كلا.

أصابعي تخدش الأرقام سريعًا على الخشب. أنا منهَكة. ربما أعاني انهيارًا عصبيًّا كذلك، لكني لم أقتلها. لا يمكن هذا. كنت سأعرف لو أنني قتلتها.

هل أنت متأكدة؟

هذا صوت أمي، يفح في أذني.

أنت تختبئين في خزانة تحت الدرج بلا هدف. الماضي يعيد نفسه. مجنونة *أنت مثلي. البنت مرآة أمها. الدم الفاسد.*

ينفتح الباب، ويظل إصبعي يكتب على الهواء. أشهق وأغطي فمي بكفيَّ، وأداري نفسي أكثر في الركن، أحاول أن أقلل من حجمي.

أنا مرتعبة حتى إنني ظننت أن الجاثم هناك هي.

لكنني لست في الماضي، والظل الجاثم ليس أمي كما كانت ليلة بلوغها الأربعين، بشعرها الطويل المشوش المتدلي عبر وجهها، تُميل رأسها وتنظر إليَّ.

ها قد وجدتك!

كأنما تفاجأت لمرآي، وكأنما لم تحبسني بنفسها.

الظل أمامي الآن أصغر من حجمها، في مثل حجمي وقتها.

- ماما.

همساته هادئة، لكن صوته حطَّم الحيرة في عقلي، كماء بارد صُب على وجهي. أعود إلى نفسي مرة أخرى.

ويل. هذا هو ويل. ينظر إليَّ تلك النظرة الغريبة، نفس النظرة التي رأيتها في عينيه حين ضممته بقوة إليَّ وأنا أقرأ له قصة بادينجتون. كأنما لا يأمن على نفسه في حضوري.

لكَم حطَّم هذا قلبي.

أزحف خارجة، وأرى ما ساعده على معرفة مكاني؛ كوب الكاموميل البارد على الأرض أمام الباب.

أقول: «لا تقلق».

أقبّل وجهه وأشعر بكفيّ مثلجتين فوق بشرته الدافئة.

أتابع: «لا تفزع».

ينظر خلفي إلى الخزانة، فأجبر نفسي على الابتسام وأردف: «لا تخبر أحدًا. هذا مخبأ ماما السري».

تعود عيناه إلى وجهي وأنا أكمل: «يمكن أن يكون هذا مخبأك السري أيضًا إن رغبت».

أتربع على الأرض أمامه وأجذبه ليجلس على فخذيَّ. جسده الصغير دافئ. ألف ذراعيَّ حوله وأضمه كما اعتدت أن أفعل حين كان صغيرًا، سعيدًا، يضج بالحياة.

أتأرجح معه أمامًا وخلفًا وأنا أهمس: «أهم ما يميز الأسرار، هو أنه لا يمكننا إخبار أي شخص بها. حتى بابا. اتفقنا؟ يجب أن يظل السر بيننا فقط. مأمننا. مكاننا المميز».

يومئ في جدية كرجل عجوز. فأرغب في أن أنزع ذلك الهدوء عنه لأستعيد ابني المرح الصغير مرة أخرى.

أزيح شعره عن عينيه وأسأله: «هل أنت بخير أيها القرد الصغير؟ أنا قلقة عليك. ألا تستطيع النوم؟ هل أفزعتك الخالة فيبي؟».

لم يُجب، لكنه لعق شفتيه. دائمًا ما يفعل ذلك حين ينخرط في التفكير في أمر.

أتابع: «ألهذا رسمت هذه الرسومات في دفترك؟ هل أخبرتْك شيئًا؟».

يلوك طرف شفته السفلى. أعرف معنى هذا أيضًا، هو يشعر بالخطر، ولا يعرف ماذا يقول. يتصلب جسده وينزع الجلد حول ظفره، مثلما أفعل.

قلت: «حسنًا يا صغيري. فقط أردت أن أعرف. ماذا كنت ترسم؟».

يتملص مني مبتعدًا، ويتعثر في كوب الكاموميل البارد المخلوط بالفودكا وهو يقوم على قدميه.

- ويل. انتظر.

يصل إلى درجة السلم الأولى ثم يتجمد في مكانه، يده على الدرابزين وهو ينظر إليَّ.

في النهاية يقول: «أنت يا ماما. أنت».

ثم ينطلق صاعدًا الدرجات كأنما يطارده وحش.

أنا.

أحاول النهوض، لكني أتهاوى الآن على الأرض. كيف يرسمني؟ أجل. أنا أطمئن عليه ليلًا، لكن هذا كل شيء. أنا أريد أن أبقيه آمنا. *ممَ أبقيه آمنًا؟* همس أمي يتردد في عقلي. هم يظنون *أنك قتلتِني. أنت حتى لست متأكدة من أنك لم تفعلي، أليس كذلك؟ أنت لا تذكرين أنك كنت تهمسين بأرقامي وتسجلينها. لا تذكرين كثيرًا مما حدث في المستشفى بعد أن قبضت على رسغك، لا تذكرين أي شيء قبل خروجك من الحجرة هاربة. ربما لا تذكرين أنك أفزعتِه كذلك.*

وظللت على الأرض طويلًا بعدها.

-28-

أربعة أيام حتى يوم عيد الميلاد

كنت قد أمضيت الليلة في قلق على ويل وما قد يخبر به روبرت عن رؤيتي داخل الخزانة -*لماذا* بحق *الجحيم* كنت في *الخزانة*؟- لكن كلوي هي من انفجرت على الإفطار.

أصنع كوبًا آخر من الاسبريسو المركَّز في آلة صنع القهوة التي نادرًا ما نستخدمها، بينما روبرت يفعل شيئًا على الآي باد، متحاشيًا إياي. الأجواء مشحونة للغاية، وادعاء كل منا أن كل شيء عادي لا يساعد في تقليل التوتر.

تقول وهي تجمع أغراضها لتستعد للمغادرة إلى مدرستها لأول مرة في موعدها: «أنا المراهقة. المفترض أن أكون أنا المختلَّة».

لم أذهب إلى عملي مبكرًا، فقد نمت أخيرًا في الخامسة صباحًا، ولم أستيقظ حتى صحا روبرت في السابعة إلا ربع. عمومًا، أردت أن أرى ويل لأتأكد أنه بخير وكأنه سيكون قد نسي ما حدث ليلة أمس.

هو يلعب فوق منضدة الإفطار بشاحنة صغيرة، مُطلِقًا أصوات «بِرررم» بينما يأكل حبوب الإفطار ويقطِر الكثير من الحليب على ذقنه. بدا أقرب للطبيعية مما كان عليه منذ بضعة أيام، حتى إننا -أنا أو روبرت- لم نُنهِه عن الصخب.

تكمل كلوي: «ما خطب هذه العائلة؟ كأن الجميع أصيب بالجنون».

الجنون. هذه الكلمة مرة أخرى. أمي بيننا.

أقول لها: «كل شيء على ما يرام».

تقول بنصف ضحكة: «على ما يرام؟ لديك تلك الأسرار التي أخفيتِها عنا، جدتي التي كانت حية كل تلك الأعوام مثلًا. بالإضافة إلى تصرفاتك الغريبة ومظهرك الكارثي منذ أكثر من أسبوع. والآن الشرطة ترتاب فيك، وجميعنا يدَّعي كأن كل شيء بخير».

- كلوي، اسمعي...

- وفوق كل ذلك، ويل ينهار تماما ولا يبدو أن أحدًا يكترث لهذا. وأنت يا أبي...

تحدق إلى روبرت وهي تردف: «أنت كذلك لست طبيعيًّا. أنت تخرج بمجرد أن أعود إلى المنزل، وأتولى أنا رعاية ويل. أنت وأمي لا تمكثان في المنزل هذه الأيام. ويل أخي وليس ابني، وليس من مسؤولياتي رعايته، ولو كنتما موجودَين لعرفتما أن هناك شيئًا يضايقه».

- أنا لست متغيبًا عن المنزل طيلة الوقت. لا تبالغي.

يبدو روبرت حانقًا، شاعرًا بالذنب، متهَمًا. ألهذا كان يقصِّر في القيام بواجبات المنزل مؤخرًا؟ كان يخرج ثم يتظاهر أنه كان في المنزل طيلة اليوم. لا أعبأ إن كان بالخارج لبعض شأنه، لكن ما يهمني هو أنه لا يخبرني. أهذا جزء من خطة «أزمة منتصف العمر وشراء الحانة»؟ أم هو شيء آخر؟

تنظر كلوي إلينا، وتنقل عينيها من واحد إلى الآخر وهي تقول: «هل ستنفصلان؟ لأنه إن كنتما ستفعلان، فأخبراني».

أقول حين تتوقف عن الحديث لالتقاط نفسها: «إلهي، كلا».

يضيف روبرت بعد ثوانٍ من عبارتي كأنما تردَّد للحظة: «كلا بالطبع. نحن منشغلان في بعض الأمور. هذا هو كل شيء».

أنظر إليه متفاجئة وأهتف: «حقًا؟ لم ألاحظ هذا».

يرفع ويل عينيه عن شاحنته وقال: «والد ووالدة فريدي انفصلا. والد فريدي يعيش الآن مع سيدة اسمها جين. والدة فريدي تقول إن جين عاهرة».

تقهقه كلوي وهي ترى الصدمة تعلو قسماتي. *عاهرة*.

أقبِّل رأسه وأقول: «لا يصح أن تستخدم هذه الكلمة. ليست كلمة لطيفة».

يقول: «والدة فريدي تستخدمها».

أقول: «نحن لن ننفصل. أما بالنسبة إلى الشرطة...».

أولي انتباهي لكلوي وأكمل: «كل هذا سوء فهم. وأنا أعتذر كوني...».

أهُم بالاعتذار. ثم أتوقف وأشعر بحرارة في بطني. عمّ أعتذر بحق الجحيم؟

أقول بنبرة أكثر حدة: «الحقيقة. لن أعتذر كوني أخفيت أمر أمي عنكم. هذا شأني الخاص. ماضيَّ من قبل أن تولَدوا. وكونكم أبنائي لا يعني اضطراري إلى إخباركما بكل شيء. أو حتى إخبار أبيكما كل شيء مما كان في الماضي. أنا واثقة أنني لا أعرف كل أسراركم».

أراها تتوتر قليلًا. هي مراهقة ولا بد أن حياتها دغل من الأسرار.

أكمل: «وثقي فيما أقول. الحياة معقدة بما يكفي يا كلوي. لا نملك كلنا رفاهية أن نكون مراهقين متحذلقين على دراية بكل شيء».

تحدق إليَّ طويلًا، ثم تغمغم: «إلهي. لا أطيق الانتظار حتى أخرج من هنا».

تنطلق عبر الصالة وتتركنا بعد أن تطرق باب المنزل بعنف خلفها.

يسأل ويل: «ما هي العاهرة؟».

يمكن أن تنتظر كل الأسئلة التي كنت سأوجّهها لروبرت الآن حتى أجيب عن سؤال هذا الصغير.

***

أقول: «أنا آسفة للغاية يا أنجوس».

أنا في مكتبه. على وجهي ابتسامة مجردة. أبدو مهندمة واحترافية وقد وضعت بعض مساحيق التجميل الباهظة تحت عينيّ لأخفي الظلال الداكنة.

أتابع: «لكن أحدهم حاول اقتحام المنزل. وتركه في فوضى».

ما زلت أشعر بالتفاؤل بعد مشاحنتي مع كلوي. ولا أرى سببا يضطرني إلى إخبار بَكلي بما حدث في الحقيقة. بالإضافة إلى أنني لم أفعل شيئا.

أكمل: «أيًا كان الفاعل. هم يظنون أنهم بعض المراهقين من الذين يتسكعون حول ملعب الكريكت ليلًا. طلبوا مني العودة إلى المنزل كي أتأكد

أن شيئًا من أغراضي لم يُسرق، وكي أهدئ ويل بالطبع. أعتقد أن زجاج النافذة المكسور أفزعه. هو شيء مفزع، أليس كذلك؟».

كنت مصابة بتوتر الإفراط في الكافيين، لكن تركيزي كان حادًا لحسن الحظ. صار الصباح كالماء النقي الذي يأتي بعد وحل الليل العقلي. أيمكن أن يُجن المرء ليلًا فقط؟ الأمور تسوء بالليل. هكذا كانت تقول راشيل أمي بالتبني، حين كانت تهدئني في نوبات فزعي الليلة التي كانت توقظ فيها أطفالها. ربما لديها حق.

أقول: «للحق، لقد أفزعني شخصيًا. يجب أن نركّب كاميرات مراقبة».

لا يتغير تعبير وجه أنجوس بَكلي. لا يغمغم أو يتعاطف، وهو شيء غريب عليه. أشعر بالعرق يتدحرج تحت بلوزتي حين تتلاقى أعيننا أخيرًا.

يبدو منزعجًا وقلقًا للغاية حين يقول أخيرًا: «كانت الشرطة هنا هذا الصباح، وقد رحلوا منذ قليل. كانوا يسألون عنك، متى كنت في المكتب، متى رحلتِ... أسئلة من هذه النوعية وهي ليست مما يسألون عنه في حوادث الاقتحام».

أوه. أولئك الأوغاد.

احمر وجهي وأنا أقول: «أفهم. حسنًا، أنا لم أفعل أي شيء».

كدت أتهاوى، حين استعاد ثقته الطبيعية وهو يقول: «أنا واثق من ذلك. لكن حتى تتضح الأمور، ربما من الأفضل أن تأخذي إجازة ليومين».

- لا بأس بالعمل.

- هذا ليس طلبًا يا إيما.

ما هذا القلق في تعبيراته؟

- على الأقل اعتبريها إجازة حداد على والدتك.

وقع كلماته ثقيل.

أسأله: «هل أخبروك عنها؟».

- ذكروا طبيعة استفساراتهم. اسمعي، لا شأن لي بحياتك العائلية يا إيما...

- يبدو لي أنك تجعلها من شأنك.

- هي من شأني إن أثرتْ على عملك، وليلة أمس تركتني في غاية الحرج في أثناء عشاء عمل مع عميل يستطيع جلب الكثير من المصالح لنا.

أحدق إليه. كل هذا الخراء الذي أخوض فيه وهو يهتم بعشاء عمل؟

أقول والاعتذار يختفي كلية من عباراتي: «بربك. أنت اصطحبتني إلى هذا العشاء لأن ستوكويل يريد معاشرتي لا أكثر، والآن تتحدث عن الإحراج؟ لقد كنت أشعر كأنني قطعة لحم معروضة للبيع، وهو ما أفكر الآن في أن أشكوك بسببه».

تتحول عيناه إلى حجَرين. الشركة تتباهى بسياساتها التي تدعم المساواة بين الجنسين، رغم أننا جميعًا نعلم أن سهرات ليالي الجمعة مع زملاء العمل في الحانة قد تتحول إلى سهرات... حساسة، أو على الأقل ترضي غرور الرجال منهم.

يقول بصوت خفيض بارد: «عودي إلى البيت يا إيما. سأتصل بك خلال يومين. دعينا نمنع تدهور الأوضاع أكثر مما هي عليه».

- مهلًا يا أنجوس. أنت حتى لم تسألني عن حالي أو عما حدث. لكن لا بأس. سأعود إلى البيت.

أدور على عقبيَّ محافِظة على انتصاب ظهري رغم ارتجاف ساقيَّ.

أردف: «شكرًا على الدعم».

أعود إلى المنزل؟ هذا هو آخر مكان أود الذهاب إليه. ليس وروبرت يحشد الأسئلة عن ماضيَّ. ماذا لو أخبره ويل في طريقه إلى المدرسة عن عثوره عليَّ في الخزانة ليلًا؟

أجمع ما أحتاج إليه من مكتبي: بعض ملفات القضايا التي أحتاج إلى متابعتها، دفتر ملاحظات، أوراق، شاحن الحاسوب المحمول الاحتياطي، ثم أحشرهم جميعًا في حقيبتي.

تدخل روزماري وتسألني: «هل أنت بخير؟ لا نتعرض لهذا النوع من الأحداث الشائقة مبكرًا هنا. لكني أفترض أن أيًا كان ما يجري فهو محض سوء فهم».

تمنحني ابتسامة لم يصل صدقها إلى عينيها. لمَ أتفاجأ وأنا من أعطيتها تسجيلًا لا يحوي سوى أرقام منذ أيام؟

آخذ التقويم عن مكتبي، وأنا أقول: «أمور عائلية».

- أجل. هذا ما قالوه. شيء يخص والدتك.

يقتحم ظل آليسون الأسود مدخل مكتبي، يكاد يدفع روزماري جانبًا كي يجد لنفسه مكانا.

ثم أسمع صوتها يقول: «أنا متأكدة أنك أخبرتنا بأن أمك متوفاة. ألم تمُت حين كنتِ طفلة؟».

أحدجها بنظرة ساخطة وأنا أجيب: «أجل. قلت هذا. وكما كنت أظن، فقد كانت ميتة. آسفة لتعرضكم لأسئلة الشرطة، لكن طفولتي كانت مُعقدة، أو هذا هو أقل وصف أستطيع أن أصفها به، والشرطة تؤدي عملها، حتى لو كانوا ينبحون حول الشجرة الخاطئة».

تنظر روزماري إلى حذاءيها، لكن آليسون ظلت تحدق إلى عينيّ أطول.

أكاد آمرها أن تغرب عن وجهي، لكنها تهز كتفيها وتقول: «ليست عائلتك من شأننا على أي حال. أنا شخصيًا لست مضطرة إلى مشاركة الآخرين ماضيَّ الخاص لو لم أشأ. لقد مررت بوقت عصيب حين تركني جيم وراح الجميع يتحدثون عن هذا. أتمنى أن ينتهي الأمر قريبًا».

تتراجع مختفية في الرواق خلفها، وقد سعدتُ لذلك لأنني كنت أغالب الدموع. من كان يصدق أن آليسون ستدعمني وتتفهم ما أمر به؟

أترك شعري يغطي وجهي كي لا تلاحظ روزماري تأثُّري بكلام أليسون.

وأغمغم: «الأفضل أن أرحل الآن. اتصلي بي إن طرأ جديد واحتجت إليَّ».

تتراجع لتفسح لي الطريق وهي تقول: «بالطبع، واثقة أن كل شيء سيعود إلى طبيعته بحلول الأسبوع المقبل».

مشيتها متصلبة وهي تبتعد، وأدرك أن أي لطف كان في علاقتنا قد زال. ربما تدَّعي عدم اهتمامها بالأمر، لكنها اعتبرت تزييفي للماضي خداعًا.

يا لها من حمقاء! أغلق حقيبتي وأضع حمالتها فوق كتفي، وأخطو خارج المكتب برأس مرفوع. هذا حقًّا ليس من شأنها.

-29-

كنت حانقة شاعرة بالمهانة حين خرجت من المكتب وركبت سيارتي، حتى إن عقلي ظل خاويًا بلا أي أفكار، ضائعًا في خضم جدالات تدور فيه، قلقًا بشأن الشرطة ورسومات ويل. لم أدرك وجهتي إلا حين وصلت، واكتشفت أنني دون وعي قدت السيارة إلى منزل كارولاين.

أحدق إلى بابها الأمامي، أريد أن أذهب وأطرقه، أريد أن أعرف ماذا تفعل، أريد أن أكون في صحبتها. صار ما أشعر به رغبة عنيفة، قهرية.

لقد أرسلت إليها رسالة نصية لم أذكر أنني كتبتها. لماذا أتحمس لصداقتها إلى هذا الحد؟ لم أكن قط من الأشخاص الذين يحتاجون إلى أصدقاء، لكني شعرت بشيء حين كنا نتناول الغداء معًا... نوع من تآلف الأرواح. كانت هذه شرارة واضحة. وأدرك وأنا هنا الآن أن تلك الرغبة تتنامى تحت جلدي، وتزيح كل هراء الليلة الماضية. لدي اشتياق إلى رؤيتها مرة أخرى.

تتعرق يدي وأنا أمدها نحو مقبض السيارة. أتوقف. لا يمكن أن أذهب وأطرق بابها قبل أن ترد على رسالتي. سيكون هذا غريبًا وستظنني ألاحقها. ستظن أن أغراضي حميمية، وبخاصة بعد إصراري على دعوتها على الغداء. ربما تظنني مجنونة كذلك.

كان هذا هو الخاطر الذي وضع لرغبتي حدًّا: *أنا لست* مجنونة.

بعد لحظات. ينفتح بابها. فأذعَر وأنحني في مقعدي مختبئة. نبضي يتزايد. أرفع رأسي بقدر ما أستطيع الرؤية، فألمحها وهي تركب سيارتها وقد ارتدت ملابس العمل، وجمعت شعرها إلى الخلف.

لحسن حظي لم تنظر خلفها. أنتظر حتى تبتعد، ثم أستقيم في جلستي. ما هذا الذي أفعل؟ هذا أثر الصدمة والإرهاق لا أكثر، وقد احتجت إلى أن أرى وجه صديق. أتحقق من البريد الإلكتروني عبر هاتفي، وآخذ وقتي في التدقيق، مُدعية لنفسي أن هذا جزء من احترافيَّتي، لكن الحقيقة أنا أمنحها فرصة حتى تبتعد خوفًا من أن أتبعها، ووقتها فقط سأكون حقًّا مجنونة.

بعد دقائق، أضحك على اختبائي في السيارة بدلًا من أن ألقي عليها التحية، وقد زال إحساسي أنني أفعل شيئًا خاطئًا. لكني لا أريد العودة إلى البيت الآن، لذا أفكر في البحث عن مكان أستريح فيه وأتناول غدائي. أفكر في الاتصال بالدكتورة موريس وإخبارها بأنني ما زلت غير قادرة على النوم، ثم أتراجع عن الفكرة.

أوه، الشرطة تظن أنك قتلتِ أمك؟ لا عجب أن المنوِّم لا يجدي نفعًا.

أعود إلى المدينة وأوقِف السيارة، وأختار مطعمًا عصريًّا شبابيًّا أعرف ألا أحد من زملائي يرتاده. المطعم جوار المدرسة، وأنا أكبُر العاملين به بخمسة عشر عامًا على الأقل، دعك من مرتاديه، لكن المرأة التي تعمل هناك لطيفة، والمكان من النوعية التي يمكنك المكوث فيها لساعات مقابل كوب قهوة واحد، ودون أن ينظر إليك أحدٌ نظرات قذرة أو يطلب منك الرحيل.

أتخذ مقعدي جوار النافذة، وأنتظر وصول الكابتشينو بحليب الصويا، وكيك الجزر العضوي. أنا لست جائعة حتى، لكني أحتاج إلى بعض الطاقة لو أنني سأواجه ما عليَّ مواجهته. ثمة شعور قارص في معدتي يأبى الرحيل، وأظل أتحقق من هاتفي كل بضع ثوانٍ في حال فاتتني مكالمة من الشرطة تخبرني فيها أن المسحة في صالحي وأن سبب وفاة أمي يعود بالكامل إلى إصابة رأسها، لكن تصيبني خيبة الأمل في كل مرة.

تمر ساعة وأنا أنقر الكيك بشوكتي، وقد بردت قهوتي. لا أستطيع الاسترخاء. أرَقي يجعلني أشك في كل شيء، حتى في براءتي. عقلي ضبابي بشكل دائم، والوقت يتسرب مني... أعرف هذا.

لقد نمت في المكتب. حين أنظر إلى شيء لوقت طويل أنزلق إلى مكان بين اليقظة والنوم، أغفو. هل يمكن أن أكون قد قتلتها ونسيت؟ لكني قطعًا كنت سأتذكر شيئًا كهذا. لماذا قد أقتلها؟ أنا حتى لا أعرفها. *لأنك تكرهينها؟ لأنك تخشين أن تُجني مثلها؟ لأنك لا تريدين أن تغزو أرقامها عقلك؟*

ظل هاتفي صامتًا. لم يتصل بي روبرت، ولم تتصل الشرطة، ولم تتصل فيبي، ولم يتصل المكتب. أنظر إلى ملفات قضية طلاق آل مارشال -يجب أن أتابع الصلح بينهما- وتلفت نظري سترة حمراء مألوفة يرتديها أحدهم بالخارج. أعقد حاجبيَّ في حيرة. تجلس الفتاة التي ترتدي السترة الحمراء في المشرب في الحانة الراقية المقابلة، وتشعل سيجارة.

هذه هي كلوي.

أحدق إلى ابنتي وهي تجذب الدخان وتملأ رئتيها، ثم تزفره. متى بدأت تدخن بحق الجحيم؟ كنت أظن أن مسألة السيجارة الإلكترونية ما هي إلا موضة، تحملها كقطعة زينة، وأنها لن تدخن سيجارة حقيقة أبدًا. كنت أظن أن السجائر عادة قديمة من القرن الماضي بالنسبة إليهم.

أنا أيضًا موقنة أنها لم تغادر المنزل مرتدية هذه الملابس. تبدو أنيقة، أكبر سنًّا. ماذا تفعل؟ أعرف أن جدول محاضرات المدرسة مريح في هذا الوقت من العام، حيث تحل محاضرات المراجعات محل محاضرات الشرح، لكني متأكدة من أنها من المفترض أن تكون في قاعة دراسية ما الآن. هل تسللت لتقابل شابًّا؟

أميل خلفًا مبتعدة عن النافذة كي لا تراني. لا ألوِّح لها أو أناديها لأن كل ذرة من غريزة الأمومة في جسدي تصرخ بي أنني أشهد فعلًا سريًّا، شيئًا قد تقطع ابنتي ذراعها مقابل ألا أتحدث معها عنه.

تبدو متوترة وهي تتحقق من شاشة هاتفها. متوترة أم متحمسة؟ ربما الاثنان.

أخيرًا تقف حين يصل الذي تنتظره. تطفئ السيجارة ثم يدخلان إلى عمق الحانة يدًا في يد.

يغوص قلبي في أحشائي، ثقيلًا كالرصاص، وتغوص معه الحقيقة.

أوه، سحقًا يا كلوي. سحقًا.

أطلب قهوة أخرى وأشربها على مهل، متمنية لو أن لي صديقة مثل كارولاين فأتصل بها.

أصير مُتيقظة الآن رغم الوخز في عينيَّ، وتتسارع ضربات قلبي الذي يخبرني بأنني منهكة. دفقة الأدرينالين ربما تغطي هذا الإنهاك. أرغم نفسي

على الصبر حتى تغادر الحانة وأسير تجاه المدرسة قبل أن أرسل لها رسالة نصية.

مرحبًا كلوي، سأنهي عملي مبكرًا اليوم. لا داعي لركوب الحافلة، سآتي إليكِ. امنحيني فرصة الدردشة قليلًا قبل أن نعود إلى البيت. أراكِ في الثانية والنصف. أحبك. ماما.

ثم أنتظر...

***

تقول: «قلت لك لا داعي أن تحملي هم اصطحابي».

ثم ترمي حقيبتها على المقعد الخلفي لسيارتي، وتأخذ آخر جرعة من سيجارتها الإلكترونية، ثم تركب وهي تقبض على هاتفها بقوة، وتضع جهاز التدخين في رف الباب جوارها.

أقول لها: «أعرف هذا، لكني أردت أن أقابلك، فلا يبدو أننا نمضي وقتًا معًا مؤخرًا».

- هذا لأنك في العمل طيلة الوقت.

- وأنت بالخارج طيلة الوقت. لكن لا بأس، لأن هذه هي طبيعة الحياة.

لا أريد لهذا الحوار أن يتحول إلى مواجهة حادة. هي ابنتي وأحبها وغضبي ليس موجَّهًا لها.

كانت قد ارتدت بنطالها الجينز مرة أخرى، وجمعت شعرها في عقصة، أما مكياجها فكان موجودًا لكنه صار أخف. لقد بذلت جهدًا كبيرًا حتى تتحول من هيئة امرأة باهرة إلى مراهقة عادية.

أتابع: «لكن أحيانًا ما أود الاطمئنان على أحوالك ومعرفة تفاصيل أكثر مما تحكيه لي في الخمس دقائق التي نلتقي فيها على الدرَج».

تنظر إليَّ نظرة جانبية ساخرة وتقول: «وكأننا سننفذ إلى أعماق التفاصيل خلال الربع الساعة التي سنقضيها في الطريق».

دفاعاتها ممتازة، لكني أبتسم ابتسامة مشرقة وأقول: «سوف أقود عبر طريق الريف. نحن نعرف كيف نمضي وقتًا عظيمًا، أليس كذلك؟».

لا تضحك لمزحتي. نصمت وأنا أشق طريقي عبر الزحام وأحاول التفكير في الطريقة المثلى لفتح الموضوع. كل التمهيدات التي فكرت فيها في المطعم تبخرت، واكتشفت أنني لا أعرف كيف أتحدث مع ابنتي. في العموم، هي فتاة رائعة، لكن ما حدث اليوم كان صادمًا.

كسرت هي الحاجز أولًا وسألتني: «ما خطبك يا أمي؟ بم تتهمك الشرطة؟».

- أنا لم أفعل شيئًا. هذا سوء فهم.

- أنا لم أسأل عن هذا، أنا أسأل عما يظنونك فعلتِ. خالتي فيبي كانت غاضبة للغاية، وكان أبي يتصرف بغرابة.

- أخبرتك أنني لا أريد الحديث في هذا الأمر، وهو شيء لا يستحق قلقك.

أريد أن أحوِّل هذا الاستجواب إليها، لكنها تكمل: «سمعت أنك تجولين بالليل. تنزلين إلى الأسفل. لا تنامين. سمعت فيبي تحدَّث أبي عن شيء بخصوص بلوغك سن الأربعين».

تنظر خارج النافذة وهي تردف: «أعني... بحق يسوع يا أمي، أهذا ما يجعلك بهذه الغرابة؟ السن مجرد رقم، ولا شيء يستدعي كل هذا القلق. عليكِ أن تشعري بالسُّلطة التي جنيتِها. أنا أتوق إلى أن أصير ناضجة».

أضحك إذ أعرف بظنها أن كل هذا التغيير نابع من خوفي من التقدم في العمر.

- شكرًا يا كلوي. سآخذ هذا الأمر بعين الاعتبار. بالحديث عن عيد ميلادي، ما أخبار الحفل؟

- لقد لغاه أبي. هكذا قال، وبخاصة بعد المشكلة مع بِن، وبعد ما حدث معك.

- سيكون حفلًا لطيفًا، ولن يكون هناك غرباء. هم أصدقاء أبيك من المدرسة وأنت تحبينهم، أليس كذلك؟

- لا بأس بهم.

تهز كتفيها وأصابعها تعبث في الهاتف وهي تغمغم: «لكن الحفل أُلغي. يظن أبي وفيبي أن...».

تصمت، كأنها أسكتت نفسها لمنع شيء ما كان لها أن تتفوه به.

أستقيم في جلستي خلف المقود وأقول: «ماذا يظن أبوكِ وفيبي؟».

منذ متى تقاربا مرة أخرى؟

تهز كتفيها وتقول: «يظنان أنك تعانين... جنون الارتياب... بسبب والدتك. هذا ما قاله أبي على أي حال».

تضغط قدمي قليلًا على دواسة السرعة، فتنطلقُ السيارة كانطلاق غضبي. لقد أخبرني بأنه سيُطمْئن كلوي أن لا شيء يستدعي القلق، وبدلًا من ذلك أقلقَها.

أقول بصوت يزداد حدة: «أبوكِ لديه أسراره كذلك. موضوع الحانة على سبيل المثال. أعتقد أنه يمر بأزمة منتصف العمر. أو ربما أكون أنا المرتابة أكثر من اللازم».

تنعكس أشعة الشمس أكثر على الزجاج الأمامي وأنا أزيد السرعة. جنون الارتياب! كيف تجرؤ على اتهامي بشيء كهذا؟ وكيف يجرؤ على الحديث عني مع فيبي بهذه الطريقة؟ لماذا لم يحدِّثني أنا عن كل ما حدث؟

أحاول تهدئة نبرتي وأنا أقول: «هل الارتياب هو ما يجعلني أعتقد أنكِ تضاجعين زوج ميشيل أم أنها هي الحقيقة التي رأيتُها اليوم؟».

تتسع عيناها وينفتح فمها.

أقبض على المقود وأضيف: «لا تفكري حتى في الإنكار. لستُ غبية، ومع ذلك كيف تكونين أنت بهذا الغباء؟ ماذا عن إيمانك بالنسوية وأخوَّة النساء؟».

لا تتفوه بكلمة، لكن وجهها يصير عاصفًا متأججًا.

أكمل: «جوليان يكبرك بعشرين عامًا على الأقل. لقد كنتِ ترعين طفليهما يا كلوي، بحق المسيح! أنت نموذج مبتذل جنسي يسير على قدمين! هذا مقرف».

تنظر إليَّ في دفاع عن نفسها وقد امتدت البقع الحمراء من وجهها إلى رقبتها وهي تهتف: «هذا ليس مقرفًا، أنت فقط تجعلين الأمر يبدو كذلك. أنا لن أنكر. سأبلغ الثامنة عشرة خلال شهرين، ولم أعد طفلة. أنا امرأة ناضجة. وأنا أحبه».

تنظر عبر النافذة إلى الطريق وهي تردف: «وأبطئي سرعتك أو توقفي. أنت تقودين بسرعة زائدة».

- حب؟ تظنين أنك تحبينه؟

لا أستطيع إيقاف السيارة وسيارة أخرى خلفي. بالكاد أسمعها ورأسي يضج بالحنق. *أنا* مصابة بجنون الارتياب؟ زوجي *الذي* يحبني ويُفترض *أن* يقف *إلى* جانبي يظنني مجنونة؟ وكيف لكلوي أن تضيف فعلتها هذه إلى كل المصائب التي أعانيها؟

أكمل: «أنت لا تعرفين ما هو الحب. هذا ليس حبًا. وما هو إلا خطأ أحمق. هو يستغلُّك. وجودك يرضي غرور هذا الرجل المُسن لا أكثر».

- هو في السادسة والثلاثين. وليس مُسنًا إلى هذا الحد.

ليس مُسنًّا إلى هذا الحد؟ هذه عبارة تكشف بدقة عن عمرها العقلي الحقيقي.

أنظر إليها وأقول: «ميشيل تعرف. هي لا تعرف بالطبع مع من يخونها. لكنها تعرف. لقد جاءتني كي تناقش خيارات طلاقها. هي تعرف أن شيئًا ما يحدث من ورائها، وكانت تظن أنه يخونها معي، بحق الله!».

- أنت؟

تضحك ضحكة بغيضة، كأن ما قلته أسخف استنتاج في العالم. وكأن فكرة أن يريد أحد مضاجعتي فكرة هزلية لا تُصدّق.

تكمل: «لن يقترب منك».

أستشعر نبرة غيرة في عبارتها. أدرك وأتذكر طاقة الحب المُهلكة لدى الشباب. لقد مررت بهذا مع روبرت في الماضي. كنت أشتعل غيرة إن ضحك مع فيبي أو فعل أي فعلة تذكِّرني أنه قد جاء إلى المنزل مع فيبي في تلك الليلة.

أنا وفيبي كومة متشابكة من الاستياء والغيرة والحب. وجنون *الارتياب*.

أرد: «من الأفضل له فعلًا ألا يقترب مني. لأنه إن فعل فسأعيده إلى بيته وذيله بين فخذيه ككلب مذعور».

ثم يخطر ببالي خاطر فأضيف: «هو يريد أن يشاركه أبوك في مشروع الحانة هذا. أكانت هذه فكرتك؟».

تهز كتفيها مرة أخرى رافضة ما أقول: «أعرف أن أبي قد سئم من مكوثه في المنزل، وظننت أن هذا سيفيده. جولز يحبه و...».

- وماذا سيكون رد فعل أبيك حين يعرف؟

جولز؟!

أكمل: «يريد أبوك أن يستثمر كل مدخرات مصاريف جامعتك في هذا المشروع الأحمق. تلك المدخرات التي عملتُ بكدٍّ حتى أوفِّرها لك. ماذا سيحدث لهذا المال حين يكتشف علاقتك؟ إلهي! يا ليتني لم أركما معًا. الآن زاد همي أكثر وعليَّ أن أتعامل مع هذه المصيبة».

تنظر إليَّ وتقول: «أنا مسرورة أنك عرفتِ. هو يحبني وسيتركها وسنعيش معًا. هو فقط ينتظر انتهاء الامتحانات».

جاء دوري في الضحك.

أقول لها: «بالطبع. أثق أن جوليان يهتم لمصلحتك للغاية، وأثق أنه سيولي ظهره لبيته الكبير وعائلته الجميلة ليضاجع مراهقة أنانية غبية لا تستطيع أن تراه على حقيقته».

أدور عند المنعطف، وأشعر بالسيارة تميل من سرعتها.

أتابع: «سيضاجعك حتى يمَل، ثم سينسى كل شيء عنك».

- أكرهكِ.

تقولها ببرود وهدوء وهي تحدق إلى كفيها. نبضي يتزايد. لقد صرت شرير الرواية مرة أخرى. روبرت لا يوضع في هذه الخانة أبدًا، فقط أنا.

- أنا أحبك يا كلوي، لكن انهِ هذا الأمر الآن ولن أخبر أباك. لن يعرف أحد.

- أكرهك.

تقولها بصوت أعلى هذه المرة. أراها بجانب عيني كأنها صارت في الثانية من عمرها مرة أخرى، تغلي وهي تحاول احتواء نوبة غضب قادمة. ينعقد حاجباها بقوة حتى يظلِّلان عينيها. شفتاها مزمومتان وعضلات فكها متقلصة.

- كلا، أنت لا تكرهينني، فقط تتصورين هذا.

أستخدم نفس نبرة الصوت التي كنت أستخدمها معها وهي طفلة، لكنها ما عادت صغيرة.

فجأة تنطلق صائحة: «كلا، أنا أكرهك. أكرهك حقًّا».

كانت تهدر بقوة، ثم تلتفت بجذعها نحو الباب. ماذا تحاول أن تفعل؟ هل تريد أن تقفز من السيارة لتبتعد عني؟

أمد يدي وأمسك بها، أجذبها بقوة نحوي وأنا أهتف: «كلوي، بحق الله!».

تتملص مني وهي تقول: «اتركيني».

تدفعني بعيدًا عنها. رُحنا نتدافع وأنا أحاول أن أبقي عينيَّ على الطريق.

تصيح وهي تضربني: «ما خطبك؟».

تتمايل السيارة تحتنا. أدفعها بقوة لأحمي نفسي، فتضرب رأسها في زجاج النافذة جوارها.

- كلوي، اهدئي!

ليس أمامنا إلا انحناءات الطريق الريفي. أنظر خلفي فأرى سائق السيارة يبتعد وقد خاف من قيادتي المترنحة.

- أمي، احترسي!

صوت النفير العالي يملأ السيارة. يكاد قلبي أن يتوقف حين أدرك أنني قد انتقلت إلى حارة الطريق المقابل وأرى الشاحنة تقترب منا. أدير المقود بقوة إلى اليسار، وجسدي كله يرتعد. كلوي تتكور في مقعدها، وتغمض عينيها وهي تحمي وجهها بكفيها. وقتها فقط أرى جهاز التدخين الإلكتروني ولم يكن في رف الباب، بل تحت قدمي. لقد كانت تحاول فقط التقاطه من رف الباب. أضغط البدال بينما السيارة تدور. الشيء الوحيد الذي أراه هو الشجرة تقترب منا بسرعة فائقة، ثم أغلق عينيَّ.

-30-

نحن محظوظتان رغم كل شيء.

سيارتي –التي كانت جديدة- صارت في طي النسيان. الجانب الأمامي من ناحية مقعد القيادة قد انبعج بفعل الارتطام. وتموّج هيكل السيارة من خلفه. على الأقل قد نجحت في آخر لحظة في لف المقود حتى لا يصيب الارتطام ناحية كلوي.

تمزقت شفتها ونزف أنفها جرَّاء اصطدامها بالوسادة الهوائية، فيما عدا ذلك لم تُصب سوى بالذعر. لم تنفتح وسادتي الهوائية، فاصطدمت ذراعي اليمنى وكتفي بقوة، وكُدِمت ركبتي. بدأت أشعر بتلك الإصابات أكثر حين وصلت سيارتا الشرطة والإسعاف، لكن غلبني شعور الارتياح لسلامة كلوي.

بعد الاصطدام مباشرة، راح جسدي يرتجف وخفت حتى أن أنظر إليها، وحين استطعت، هالني منظر الدماء على وجهها وقميصها فصرخت وأنا أتفحصها لأتبين موضع إصابتها. في النهاية لم تجد سوى الصراخ في وجهي كي أتوقف، ورفعت قميصها كاشفة عن جذعها السليم كي أطمئن أن إصابة أنفها وشفتها هي مصدر الدماء. حتى بعد هذا، احتجت إلى ثوانٍ كي أهدأ. كل ذعر الليل من إصابة طفليَّ بمكروه، وفي النهاية أكون أنا من يقتل ابنتي الغالية؟

كادت تبكي وهي تنظر إليَّ وتقول:

«ماذا كنتِ تفعلين يا أمي؟ لمَ هاجمتِني؟».

- لم أهاجمك! لم أهاجمك! أنا فقط ظننت أنك كنت تحاولين الخروج من السيارة حين مددت يدك نحو الباب لتجلبي جهاز التدخين. هذا هو كل شيء.

الهلع الذي أصابنا من الارتطام لم يهدئ التوتر بيننا، بل ربما زاده سوءًا. ظلت بعيدة عني، مضطربة كحيوان جريح حتى وصلت الشرطة والإسعاف.

لم نخبرهما أننا كنا نتشاجر. قلت إنني تشتتُّ حين عبر حيوان الطريق مسرعًا، وفقدت السيطرة على السيارة. نظروا إليَّ باعتباري حمقاء، لكنهم بالتأكيد قد سمعوا ما هو أكثر حماقة.

بعد ساعة أخرى، توصِلنا سيارة الشرطة إلى المنزل، وقد زال تأثير الأدرينالين، فأشعر بتعب وغثيان، وبأن جسدي كله محطم.

أقول لكلوي بهدوء ونحن بعد في سيارة الشرطة: «لا يمكن أن تستمر هذه العلاقة يا كلوي. أنت تعرفين هذا».

لا ترد عليَّ، فقط تنظر عبر النافذة وهي تقضم جلد إبهامها. أنظر عبر نافذتي وأرى انعكاسي يحدق إليَّ. عيناي محتقنتان، وشعري مبعثر، وبشرتي جافة لونها غير متجانس.

لا عجب أن عائلتي تظنني أُجن.

***

قال: «ماذا حدث بحق الجحيم؟».

أنا وكلوي في الصالة، ننظر إلى بعضنا، ونبدو كناجيتين وحيدتين في فيلم رعب. رحل الشرطي الذي أوصلنا إلى المنزل، فأطل علينا روبرت بوجه ممتقع وهو يهتف: «هل جُرحتِ؟».

ينطلق نحو كلوي ويحاول ضمها، لكنها ترفع يديها لتمنعه وتقول: «أنا بخير».

أقول لها وهي تصعد الدرج: «سأنقع قميصك في بعض الماء».

دون أن تلتفت تهتف: «أمي تفقد صوابها، هذا هو ما حدث».

أصيح فيها: «هذه ليست الحقيقة وأنت تعرفين هذا».

لكن ما قالته لم يكن بهتانًا كذلك.

ينظر روبرت إليَّ ويسألني: «عمَّ تتحدث؟».

- هل تذكر كيف ارتطمتَ أنت بشجرة من قبل؟

يحدق إليَّ في حيرة، فأكمل: «حسنًا. أنا أيضًا ارتطمت بشجرة».

- سحقًا يا إيما. كيف حدث هذا؟

- مثلما حدث معك. الحوادث أمر اعتيادي. أحتاج إلى الاغتسال قبل أن تتصلب عضلات رقبتي تمامًا.

هو حتى لم يسألني إن كنت بخير.

أردف: «سأتصل بعدها بشركة التأمين».

- ماذا تعني كلوي بقولها إنك تفقدين صوابك؟

كانت نيتي أن أخبر روبرت بكل شيء، لكنني الآن أجد أن موضوع كلوي وجوليان المؤسف قد تعقَّد والتصق بحلقي. يجب أن أخبره، بالطبع يجب أن يعرف، والله وحده يعلم ما سيفعله.

هل سيلتف حول الموضوع؟ هل سيتشاجر مع جوليان؟ سيحاول قتله؟ كلوي هي طفلته الصغيرة وستظل كذلك.

ربما ينهي جوليان الأمر فورًا بمجرد أن يعرف أنني عرفت. خوفه من انكشاف أمره سيغطي على أي شيء آخر.

أقول: «أنا بخير. شكرًا لسؤالك».

أنظر إليه فيبدو نادمًا على نسيانه السؤال عني. همَّ أن يقول شيئًا لولا قاطعه صوت جرس الباب.

فأقول له: «اتركه. يمكن لأي شيء أن ينتظر. أريد أن أحدِّثك في أمر».

- ربما كانت الشرطة مرة أخرى. هل نسيتِ شيئًا في سيارتهم؟

يجذب الباب فيفتحه، ونتجمد مكاننا. أمامنا أفراد من الشرطة فعلًا، لكنهم ليسوا من الذين أوصلونا من مكان الحادث. نرى هيلدريث وكاين وخلفهما سيارة تدور فوق سقفها الأضواء في صمت، ويقف أمامها ضابط في ملابس رسمية.

بدأ قلبي يتواثب مجددًا وروبرت يتمالك نفسه ويدعوهما للدخول. يغلق الباب ونقف جميعًا صامتين للحظات، وكلهم يحدقون إلى وجهي.

أسأل مرتجفة كأرنب مذعور: «ماذا حدث؟».

- لقد وصلتنا نتائج تحليل مسحتي فم وتجويف أنف والدتك.

نبرة هيلدريث لا مبالية. لكن تعبير وجهها هادئ، بارد.

تتابع: «ووجدنا أليافًا تطابق ألياف غطاء وسادة المستشفى في كلتا المسحتين».

تعالى التشويش كصوت المحيط في أذنيَّ وأنا أغمغم: «لا يمكن أن تكون هذه النتائج صحيحة. هذا يعني أن أحدهم...».

ينظر إليَّ روبرت وأنا أضيف: «أنا لم أقتلها. لست أنا القاتل».

يخطو روبرت خطوة إلى الأمام، فيسد الفراغ بيني وبينهما وهو يقول: «لقد مرت لتوها بحادث سيارة. ألا يمكن أن ينتظر هذا حتى الصباح؟».

هذه المرة صار روبرت محط تركيز نظرات هيلدريث الثقيلة.

فتقول: «كلا. لا يمكن أن ينتظر الأمر حتى الصباح. نريدك أن تذهبي معنا إلى المخفر يا سيدة آفريل. لا أفضِّل أن ألقي القبض عليك، لكني سأفعلها لو اضطررت».

أعي أن كلوي تتابعنا من وراء الدرابزين، وأعي أن شفتَي روبرت تتحركان، لكني لا أسمع سوى ضربات قلبي. أعتقد أنني قد أفقد الوعي.

يقترب كاين ويمَس ذراعي. فيتهاوى العالم من حولي.

ما يحدث حقيقي...

يبدو روبرت مذعورًا كأنه هو من يصطحبونه إلى الزنزانة. يهتف: «سأتصل ببَكلي. لا بد أنه يعرف شخصًا يساعدنا».

- كلا. لا تتصل به.

عقلي يئز. آخر ما أتمناه هو أن يُجَر أنجوس بَكلي إلى هذه القضية. لكن من قد يساعدنا؟

يخطر على بالي اسم فأقول: «دارسي جونز. رقم هاتفه في دفتر العناوين في مكتبي. اتصل به».

ثم ينتزعانني حرفيًّا من عائلتي، ويخرِجانني من بيتي. آهٍ يا ربي. أتمنى ألا يكون دارسي قد غيَّر رقم هاتفه.

-31-

«وكان هذا كل شيء؟».

يميل دارسي أمامًا وأنا جالسة على المقعد جواره متعرقة الكفين. تؤلمني عظامي. أكاد أقسم أنه بدا مستمتعًا.

يكمل: «أهذا هو كل ما لديك؟ لنواجه الأمر. يمكن أن تجد ألياف الوسادة طريقها إلى الأنف والفم بسبب ممرضة كسولة أو متعبة قد تعاملت مع المريضة بخشونة زائدة وهي تقلبها في الفراش. أو ربما تصل الألياف إلى المريضة عن طريق تشنجات ألمَّت بها قبل وفاتها بلحظات. لم يكن هناك أحد ليجزم بما حدث».

ربما توقعت المحققة هيلدريث أن أحضر محاميًا بارعًا، لكنها لم تتصور أن أصل إلى توكيل دارسي جونز نفسه، عضو مجلس مستشاري الملكة، ومحامي الجنايات الاستثنائي. حتى في أيام الجامعة، كنا نعرف جميعًا أن دارسي سيكون من نوعية المحامين الذي يبثون الرعب في النفوس. هو ساحر، ساخر، حاد كمسمار، ذو غريزة صيد كقرش حين يصادف جدال المعارضين.

الشيء الوحيد الذي تعلمته بمتابعة مسيرته العملية عن بعد هو: لو أنني عشت حياة أخرى، لكنت السيدة جونز الآن، وأتساءل عما ستكون عليه أموري وقتها.

لا يعبث أحد مع مستشار الملكة دارسي جونز.

دارسي لا يخسر، ولو أن في قضيتك أدق ثغرة، فهو قادر على النفاذ منها، كما يفعل الآن مع هيلدريث وكاين.

تميل هيلدريث أمامًا هي الأخرى وتقول: «بالاستناد إلى شهادة عائلتها وزملائها، فقد ادعت السيدة آفِريل طيلة حياتها أن والدتها قد توفيت منذ أعوام طويلة».

- وما الجريمة في هذا؟ لقد انقطعت علاقة موكلتي بوالدتها، ولم تعد ترغب في استعادة تلك العلاقة، لذا من الطبيعي أن تختار ادعاء أن والدتها متوفاة. ماضيها هو شأن خاص بها.

تنظر إليَّ وتقول: «إيما، أختك فيبي تقول إنك لا تنامين».

أتحدث بعد أن أومأ لي دارسي موافقًا وأقول: «الجميع يمرون بمشكلات في النوم من وقت إلى آخر».

كانت كلماتي قليلة للغاية طيلة التحقيق، فدارسي كان كالنمر الهادر يسد الباب، ولا يسمح إلا بإجابات عادية حتى لا أظهر بمظهر من يرفض التعاون.

- تدهورت حالة والدتك العقلية بعد أن بدأت تعاني الأرق، أليس كذلك؟ خلال تلك الأسابيع التي سبقت عيد ميلادها الأربعين.

- لقد كنت في الخامسة، ومن الصعب أن أجزم. لكن نظرًا إلى ما اتضح لي، فيمكنك قول هذا.

تلمس كف دارسي كفي ليُسكتني، ويفاجئني شعوري بتلك اللمسة، بأمانها، وحمايتها، وانحيازها لي.

ويقول: «اختصري أيتها المحققة. كلنا نعرف هذا التاريخ».

- فيبي أخبرتنا كذلك بأنك كنت تخشين التعرض لانهيار نفسي بحلول عيد ميلادك الأربعين، والذي سيحل خلال أربعة أيام من الآن. هل هذا صحيح؟

يقول دارسي: «لا يمكن إلقاء القبض على الناس لأجل مخاوفهم».

تنظر إليَّ كأن دارسي لم يتكلم وتضيف: «والآن أنت تعانين الأرق».

لو أن دارسي نمر، فهي كلب صيد.

تُردف: «بالضبط كما عانت والدتك الأرق. أعتقد أنه سيكون من العسير ألا تخشي فعل ما فعلتْ. لطالما كانت تقول إنك مثلها، أليس كذلك؟ لقد فعلتِ كل شيء حتى تثبتي لها العكس. نجحتِ في مشوار عملك، وبنيتِ عائلة، وأنجبتِ أطفالًا وتوليت أمر نفقاتهم. فهمت أن زوجك لا يعمل، وكل هذا يشكِّل

ضغطًا هائلًا عليكِ، أليس كذلك؟ ثم عادت والدتك إلى الظهور في حياتك حين نُقلَت إلى المستشفى».

يمكن أن أخنق فيبي الآن بلا تفكير. أستطيع تصورها تتصنع الاهتمام، وتَهرِف بتاريخنا كله، حتى بتلك التفاصيل التي لم تُذكر في ملفات القضية حتى تجعلني أبدو كوحش خطر.

تتابع: «أنتِ زرتِها في المستشفى مرة واحدة، وغادرتِ وقد ظهرت عليك علامات الغضب والارتباك، ثم بعدها مباشرة وجدوا السيدة بورنيت ميتة وجوارها على الأرض وسادة، وهي الدليل الذي يرجح أنها توفيت جرَّاء خنق. أخبريني، ماذا ستظنين لو كنتِ مكاني؟».

- ولماذا سأترك الوسادة على الأرض بهذا الشكل؟

كنت غاضبة حانقة حتى إنني تجاهلت إشارات دارسي لي بالصمت.

لكني أضيف: «أنا لست حمقاء. لماذا لم أعدها إلى مكانها؟ لماذا أتركها كلافتة ضخمة مضيئة تعلن أنني قتلت أمي؟».

يقول كايِن: «ربما أصابك الذعر. الناس تُذعر من آن إلى آخر».

يقلِّب دارسي الأوراق أمامه وهو يقول: «لسنا هنا بصدد الحديث عما قد يفعله الناس. مما أرى في هذا التقرير، لا توجد أي كدمات على وجه أو عنق الضحية، ولا دليل على مقاومتها أو استخدام القوة معها. لا توجد علامات دفاع عن النفس على يديها أو أي خلايا جلد تحت أظفارها تخص مهاجمها».

- باتريشيا بورنيت كانت تحت تأثير المخدر، وكانت غير قادرة على الحركة وقت وفاتها...

يرفض دارسي أن يعطي كايِن فرصة استكمال عبارته، فيقول مقاطعًا: «لا يتفق هذا وقول موكلتي إن والدتها مدت يدها وقبضت بها على معصمها، بل وفتحت عينيها».

تقول هيلدريث وهي تتراجع في كرسيها: «ليس لدينا سوى زعم موكلتك».

تعقد ذراعيها وتبدو حانقة للغاية. كانت قد طمحت إلى استدراجي حتى أعترف، لكن دارسي لم يمنحها فرصة. ربما كنتُ مرتعبة حين جاؤوا بي إلى هنا، لكني أعرف القانون وأعرف أنه وجب عليَّ الصمت خلال الساعتين التي انتظرت فيهما وصول دارسي.

يقول الأخير: «كلامك ليس دقيقًا. لقد تحدثتُ مع العاملين في المستشفى، وقد أخبروني بأن معدل ضربات قلب باتريشيا بورنيت وقياس ضغطها قد ارتفعا بشدة في الساعة الثانية وثمان وأربعين دقيقة عصرًا. لم يكن هذا الارتفاع مما يحدث للمرضى المُخدَّرين بالكامل. وهذا يدعم ما قالت موكلتي بأن والدتها قد أفاقت في هذا الوقت. المرة التالية التي زاد فيها معدل نبض السيدة بورنيت هو قبيل وفاتها، وقتها كانت موكلتي في سيارتها تتلقى مكالمة من مدرسة ابنها».

- مكانها وقت استقبال المكالمة محل شك.

يبتسم مرة أخرى ويقول: «هو كذلك حتى الآن. لذا أطلب تصريحًا بفحص تسجيل كاميرا المراقبة التي توضِّح ساحة انتظار السيارات بالمستشفى حيث أوقفت السيدة آفِريل سيارتها. أتعجب من أنكم لم تطلبوا هذا قبل أن تهددوا موكلتي بإلقاء القبض عليها».

ترمق هيلدريث زميلها كايِن بنظرة لاهبة، فينظر إلى كوب قهوته في حرج، وقد اتضح أن ذلك كان من صميم عمله.

يردف دارسي: «وبالنسبة إلى باقي أدلتكم الظرفية، أود أن أذكِّركم بأن موكلتي هي صاحبة التعليم الأعلى بين ابنتَي باتريشيا بورنيت، وقد وصلت في عملها إلى مراتب عليا، وقد عاشت وسط أسرتها المستقرة منذ عشرين عامًا. أما الابنة الأخرى، تلك التي حاولت باتريشيا بورنيت خنقها بوسادة في يوم عيد ميلادها الأربعين، هي شخص وحيد لم ينجز أي شيء في حياته، وبالتأكيد تعاني الحقد العائلي، بالإضافة إلى أنها كانت في المستشفى أيضًا ذلك اليوم».

أنظر إليه مصدومة، بالتأكيد هو لا يرمي إلى أنها قد...

فيتابع: «بالطبع لا أتهم فيبي بورنيت بقتل والدتها. هذا سخف مثل اتهام موكلتي بأنها قد تضحي بمستقبلها وحياتها المذهلَين لأجل قتل امرأة تُعتبر غريبة عنها، ووفق كل الاحتمالات كانت تحتضر. أما عن قلقها بصدد تكرار ماضيها، فاسألوا أي شخص مات أحد والديه بأزمة قلبية عن قلقه أن يموت بنفس الطريقة وفي نفس العمر. هذه طبيعة بشرية».

يرتكن بظهره إلى ظهر مقعده وهو يضيف: «وها أنا أيتها المحققة هيلدريث أهدم قضيتك بلا أي مجهود مني. أظن موكلتي الآن حرة، ويمكنها الرحيل».

-32-

كانت الساعة قد جاوزت الثامنة حين خرجنا من المخفر، وقد برد حر النهار وصار الليل دافئًا لطيفًا.

حانات الأرصفة تعج بالرواد المسترخين المستمتعين بأوقاتهم. أراهم إذ يقود دارسي السيارة عبر شوارع المدينة وأغبطهم. كم أن خلوَّ البال رائع.

أكرر للمرة الثالثة: «كنت أفضِّل لو سمحت لي بدفع أتعابك».

كان يتصرف كأنه أمر هين أن يترك كل ما يشغله ويأتيني، لكنه ليس هينًا أبدًا.

يرد: «صدقا، لا تذكري هذا. فيم نفع الأصدقاء إذًا؟ لو أنني سأتزوج ثم أحتاج إلى الانفصال، سآتيك ولن أدفع لك».

أقبل الهزيمة وأقول: «اتفقنا».

ينظر إليّ وهو يسألني: «كيف حالك الآن؟ أعني، تبدين رائعة، رائعة بالنسبة إلى امرأة لا تنام، ومرت بحادث، ثم استجوبتها الشرطة».

- هذا أفضل أحوالي.

أبتسم له. على الجانب الآخر، هو يبدو مذهلًا ولم يختلف كثيرًا عما كانه ونحن في العشرينيات. ربما هو الرجل الوحيد الذي أعرفه بهذه المواصفات. لم يخف شعره، بل ظل كثيفا كما كان مع مسحة من شعيرات بيضاء أضافت إلى سحره بشكل غريب. ما زال مذهلا.

أنظر خارج النافذة وأفكر في غرابة تقلبات الحياة. لو لم أحمل مبكرًا في كلوي، من يعرف ماذا كان سيحدث؟ لطالما كانت هناك خلافات بيني وبين روبرت.

كنت أدرس وأقضي وقتًا طويلًا مع دارسي، ونتشارك نفس الانجذاب لبعضنا بعضًا، مع أفكار من نوعية «ألم يكن أفضل لو فعلنا كذا معًا؟».

لم تكن بيني وبين روبرت سوى قبلة ثملة واحدة، ووجدت نفسي حبلى منه. هكذا ببساطة. لم أخبر روبرت قط بعلاقتي بدارسي، ولم أجد لإخباره سببًا.

كان روبرت وفيبي قد اقتربا من بعضهما، وراحا يمضيان وقتًا طويلًا معًا وأنا منشغلة في دراستي. أذكر أنني كنت أتساءل إن كانت هناك علاقة جسدية بينهما، لكني لم أسأل قط. كنت أشعر بالذنب جراء إعجابي بدارسي. ثم حين قررنا أن نحتفظ بالحمل، تقررت علاقتي الأبدية بروبرت. عمومًا، أنا لم أندم؛ أنا أحببت روبرت وما زلت أحبه.

قال: «هيا أخبريني، كيف أحوالك؟ بعيدًا عن هذا الهراء. كيف حال زواجك؟ أما زلتِ سعيدة إلى حدٍّ لا يُصدَّق؟».

كيف أجيب عن هذا؟

أقول وأنا ألعن زواجي بمديح زائف: «سعيدة بالطبع، على ما أعتقد. لقد أمضينا معًا عشرين عامًا، وبالتأكيد نحن شخصان مختلفان والخلاف وارد، لكن لا تسئ فهمي. روبرت إنسان عظيم ولم أكن لأركز في نجاح عملي ما لم يكن يحمل عني كل مسؤوليات البيت ورعاية كلوي وويل. أنا أدين له بالكثير مقابل هذا».

- أعتقد أن هذا الدور قد لاءمه كذلك. أذكر قوله إنه لم يكن يواظب على حضور محاضراته. على أي تقدير جامعي حصل؟ جيد؟ كان في استطاعتك الحصول على تقدير جيد دون أن تذاكري حتى.

لم أستطع إلا أن أضحك وأنا أقول: «هذا قاسٍ! لكن ربما يكون عادلًا».

- بالطبع عادل. لقد كان يعمل في تلك الحانة مقابل بيرة مجانية وسيجارة. لم يفهم أحد سر علاقتكما.

- حقًّا؟

- لقد كنتِ جامحة، مصممة على النجاح، وكان هو يحبو.

- هذا ما أحببته فيه. لقد كان متسقًا مع نفسه.

ما قلته كان حقيقيًا. روبرت كان *عاديًا*، وقد أردت العادية أكثر من أي شيء آخر.

أتابع: «الآن هو يريد أن يمتلك حانة. أعتقد أنه يمر بأزمة منتصف العمر».

نطلق ضحكتين عاليتين، فأشعر أنني خائنة، لكن من الرائع أن أكون مع شخص يساعدني ولا يراني في طريقي إلى الجنون.

أقول: «ماذا عنك؟ لمَ لم تتزوج؟ أعتقد أن النساء يتنافسن لجرِّك إلى الزواج».

- أوه. كانت هناك مشاريع زواج بالطبع، لكنك تعرفين كيف هو العمل في المحاماة وساعات الغياب الطويلة. حين أتولى قضية، فأنا أنغمس فيها كلية. أعشق طقوس الصيد هذه، ومن الصعب أن أجد من يتفهم هذا.

- أذكر هذا عنك. حتى في الماضي كنا متأكدين من أنك ستكون مميزًا. المحامي النجم.

- لا أصدق كيف تكونين في طريقك إلى سن الأربعين يا بيبي سبايس؟

أقهقه حين يذكر الاسم الذي كان يطلقه عليَّ أيام الجامعة. كنت وقتها إيما بورنيت، وكانت إيما بونتون هي مطربة فريق سبايس جيرلز المعروفة بـ «بيبي سبايس».

- أعرف. لكني أقرب إلى أن أكون جدة هذه الأيام.

يغمز وهو يقول: «لكن ما زلتِ رائعة بالنسبة إلى عصفورة عجوز. أنا مسرور أنك اتصلت بي لأنني كنت سأغضب للغاية لو عرفت أنك اتُّهمتِ بالقتل ودافع عنك محامٍ غيري».

يعجبني أنه يرى الأمر سخيفًا حتى إنه يمزح بشأنه، لكن ابتسامتي ظلت باهتة، ولاحظ هو ذلك.

فقال: «معذرة. أعرف أن الأمر غير مضحك. أحيانًا ما أتصرف بفظاظة».

- كلا. مريح أن يكون هناك شخص بجواري.

كنا قد دخلنا حيز الريف. ورحت أرمق السلام الهادئ حولنا وأنا أكمل: «أنا لم أحب أمي. هذا أكيد. كانت تخيفني وأنا طفلة. وذكراها تخيفني وأنا كبيرة. لكني لم أقتلها».

ثم يتقدَّم خاطر كان ينخر مؤخرة عقلي. فأضيف: «لماذا قلت ما قلت عن فيبي؟».

ينظر إلى الطريق أمامه وهو يقول: «أردت أن أوضِّح لهما كسلهما. يجب أن ترشديني إلى منزلك من هنا».

أشير إلى تقاطع الطرق وأقول: «سأنزل هنا. الهواء النقي سينعشني. بالإضافة إلى أنني أحتاج إلى تحريك جسدي وإلا ستتصلب عضلاتي».

- متأكدة؟

أومئ، فيتوقف جوار الرصيف وهو يقول: «حين أشاهد تسجيلات كاميرا ساحة الانتظار سأخبرك. اتصلي بي في أي وقت».

يصمت برهة ثم يضيف: «عظيم أن أراكِ مرة أخرى... حقًا».

- المرة القادمة دعنا نتقابل في حانة. لا في قسم الشرطة. اتفقنا؟

- اتفقنا.

تصدِر سماعة الاتصال في أذنه أزيزًا، ثم يظهر على شاشة السيارة اسم فيرونيك. أستطيع أن أجزم من خلال توتره أنها ليست مكالمة عمل. أُفاجأ بالغصة في حلقي. من الطبيعي أن تكون في حياته امرأة. ولا بد أنها خلابة. أنيقة، ذكية، في الثلاثينيات من عمرها.

أخرج من السيارة وأنا أشعر بالحمق لخواطري اللحظية عما كانت ستبدو عليه حياتي لو لم أتزوج روبرت. أغلق الباب، ثم ألوِّح له مودعة. أحافظ على ابتسامتي حتى يبتعد، ثم يتهدل كتفاي، أزحف إلى المنزل وأنا أعاني ألم الكدمات والصدمات.

-33-

أفتح الباب بهدوء، وأخلع حذائي بمجرد أن أدخل المنزل. ثمة مظاريف على منضدة المدخل، أغلبها فواتير على ما أعتقد. يمكنها الانتظار.

ألمح ورقة تصوير يبدو طرفها تحت تلك المظاريف، وفيها تفاصيل الحانة التي يريد روبرت الاستثمار فيها. يمكن لهذا أيضًا أن ينتظر. لن يستطيع استخدام أيٍّ من مدخراتنا دون توقيعَينا معًا، لذا فهو لن يتمكن من الاستثمار فيه دون موافقتي.

أتجه إلى المطبخ، خطواتي بلا صوت فوق الأرضية الخشبية. ثم أتجمد مكاني، وأنا أرى زوجي وأختي يتعانقان جوار المنضدة. واضح أنهما لم يسمعاني أدخل المنزل.

أقول: «خذا راحتيكما».

فتبتعد فيبي عنه. وتندفع نحوي فورًا تعانقني، وهو تصرف غريب عليها.

أصرخ من ألم كدماتي وهي تقول: «أعتذر لك عن كل ما قلت. لقد كنت... لا أعرف... مهمومة».

أقول في حرج: «أنا أيضًا أعتذر لأني صفعتك. كان هذا تصرفًا مريعًا حقًّا».

وأنا آسفة... ومتعبة للغاية حتى إنني لا أقدر على شيء سوى الأسف والاعتذار عن التصرفات المريعة.

تقول فيبي: «اتصل بي روبرت. كان قلقًا عليك. نحن قلقان حقًّا».

نحن. يتصلب جسدي وأبتعد عنها. هل كان عناقها النادر هذا تشتيتًا لي عما رأيتهما يفعلان؟

أسألهما: «أين كلوي؟».

يسري التوتر مرة أخرى في الأجواء. الشخصان الأقرب لي لا يشعران بالراحة، وضيقي من قربهما كان ظاهرًا عليَّ.

يقول روبرت وهو يخطو أمامًا: «بالأعلى، نائمة. صدمة الحادث أثرت عليها».

أخرِج علبة بيرة من البراد، ثم أفتحها وأجرع منها جرعة كبيرة.

أقول: «لا تقلقا. دارسي يتولى أمر الشرطة. هو قادر على إثبات براءتي».

هل سيشعر روبرت بالغيرة جرَّاء قولي هذا؟

ألمح النظرة الماكرة التي تبادلها وفيبي، ويقشعر جسدي. يبدو أنهما قد ناقشا احتمالات كوني مذنبة، فلم يكونا واثقِين من براءتي مثل دارسي.

تمسك فيبي بحقيبتها وهي تقول: «يجب أن أرحل. سأتركك ترتاحين».

لم أرد عليها. يذهب روبرت ليوصلها. أرى أوراقًا وألوانًا على منضدة المطبخ، وقد استخدمها ويل وترك رسمه ليجف. هذه أفعال فيبي. لو أنها تعلمت أن تكون أقل حقدًا، لكانت رسوماتها الشخصية ذات روح. أنظر إلى الرسم فأرى قاربًا وبحرًا. هذا أفضل مما استطعت أن أدرب ويل عليه. بالنسبة إلى شخص أمضى عمره بعيدًا عنا، ففيبي بالتأكيد تنخر في قلب عائلتنا كالدودة.

***

أقول: «أرى أنكَ وفيبي قد انسجمتما».

كنا نشرب البيرة في المطبخ وأنا أنتظر تأثير عقار نوروفين على تسكين آلامي وأوجاعي.

يقول روبرت وهو ينتزع العلامة التجارية عن زجاجته: «أعتقد هذا. هي بارعة مع ويل، وهي كذلك قلقة بشأنك».

ثم ينظر إليَّ ويردف: «وأنا قلق بشأنك».

- هذا ما تُكرِّرانه طيلة الوقت.

- أريدك أن تتحدثي معي يا إيما. أخبريني عن والدتك، ولماذا تخيفك إلى هذه الدرجة؟ ماذا حدث لك؟

أحدق إلى زجاجتي. أردت أن أخبره بشأن كلوي، لكن هذا قد ينتظر إلى الصباح. هو يريد الآن إجابات حتى ولو كنت مرهَقة، متألمة بسبب الحادث، وأنا لا أريد أن اتحدث مع أحد.

- ظننت فيبي قد أخبرتك.

- قالت إنها لن تتكلم بدلًا عنك.

- يا لحسن أخلاقها.

هي لم تُخفِ شيئًا عن الشرطة. أردت أن أذكِّره بها لكني صمتُّ.

يقول في قلق: «أنا أحاول أن أتواصل معكِ بهذا الخصوص، وربما تشعرين بتحسن لو تحدثتِ إليَّ. أخرجي كل ما يعتمل في صدرك».

لقد أخرجت كل ما في صدري بالفعل مع الدكتورة موريس، ولم تدم أي راحة شعرت بها وقتها طويلًا، لكن إن ظللت أتملص من روبرت فما سيحدث لزواجنا سيكون خطئي أيضًا.

إرهاقي وأحداث اليوم تركوني خدرة المشاعر، حتى إن كفيَّ لم يعودا يتعرقان كما كانا في عيادة الدكتورة موريس. تجرفني موجة لا مبالاة، فما سيحدث سيحدث مهما فعلت.

آخذ شهيقًا عميقًا ثم أقول: «أعرف أنني لست مثلها. أعرف أنها كانت امرأة مريضة. أعرف أن كل هذا ماضٍ ولا يمثِّل أكثر من نسبة ضئيلة من حياتي، بل وتتضاءل النسبة كلما مرت الأعوام. أعرف كل تلك الحقائق، ما *أشعر* به مختلف تمامًا».

أتوقف عن الحديث. كيف سأشرح له ما حدث في طفولتي؟

أكمل: «ما نعتبره غريبًا الآن، كان هو العادي بالنسبة إلينا حتى لو كنا نعلم أنه غريب بالنسبة إلى الآخرين. لم يكن مسموحًا لنا بزيارة الأصدقاء بعد المدرسة، فمنازلهم كانت مفتوحة الستائر دومًا، بينما ستائرنا مسدلة طيلة الوقت».

أقشر العلامة التجارية عن زجاجة البيرة، فالجلد حول إبهامي ملتهب للغاية.

وأتابع: «أخبرتني فيبي بأن في زمن ما قبل اضطراب أمي، كان يمر عليها أوقات قد تمتد إلى أسابيع، تسمح فيها للهواء بدخول البيت، وتنظف المكان

وتغمر الجميع بالحب والوعود بأن كل شيء سيكون على ما يرام. أنا لا أذكر تلك الأوقات. أحيانا ما أتساءل إن كانت فيبي تختلق تلك التفاصيل ولم يكن هناك أي أوقات سعيدة. لكن مؤسسة الخدمة الاجتماعية كانت ستلاحظ إن كان هناك ما يريب. المهم أنها كلما اقتربت من الأربعين، كانت تتدهور حالتها وتختفي فترات الهدوء».

يجف حلقي وأنا أردف: «توقفَت عن النوم. صارت تغمغم طيلة الوقت بكلمات لم نفهمها».

آخذ رشفة أخرى من البيرة. أبتلع الرواسب فيها وأنا أتذكر تلك الأرقام التي كانت تكررها مرارًا. نفس الأرقام التي تملأ عقلي الآن.

أكمل: «تدهورت، وتدهور الحال. في يوم عيد ميلادها استيقظنا مبكرًا وصنعنا لها بطاقة معايدة من بعض الأوراق الملونة التي جلبتها فيبي من المدرسة. الحقيقة أن فيبي هي من صنعتها، وأنا كتبت اسمي بداخلها فقط».

أستطيع أن أشم الهواء الراكد بعد، حتى وأنا جالسة في مطبخي الأنيق، بل وأشعر بالبساط الرخيص من الماضي تحت ركبتيَّ.

أقول: «حين نزلنا إلى الطابق السفلي...».

يدًا بيد.. تتقدمني فيبي. يعتمل في صدرينا مزيج من الخوف والحماس.. نتوقع أن ننجح في إسعادها. انظري يا ماما.. نحن نحبك.. رجاء أحبينا.

«... وجدناها في المطبخ، تحمل صندوقًا من البيض، الله أعلم كم من الزمن مكث لدينا، وتكسره واحدة بواحدة. أستطيع أن أراها وكأن ما حدث كان بالأمس. تولي ظهرها نحونا. شعرها أشعث متسخ. ذراعاها مستقيمتان إلى جانبَي جذعها. صوت البيض إذ ينكسر...».

كراك.. كراك.. كراك..

«كنا نعرف وقتها -حتى أنا كنت أعرف- أن هناك شيئًا مريبًا يحدث. أرادت فيبي أن نعود إلى الأعلى، لكني رفضت. كنت فخورة للغاية ببطاقتنا وأرغب في أن أريها إياها. لذا... حاولت...».

أن أخطو خطوة للأمام، بينما فيبي تجذبني للخلف. قلبي يدق بعنف. ماما؟

«فجذبتني هي أولًا نحوها وراحت تهزني. أفزعتني. قالت إنني السبب في أرقها طيلة الليل».

أنظر إلى روبرت الذي يُضيِّق عينيه إذ سمع أن أمي هزتني وأفزعتني. هل يفكر فيما فعلته مع بِن؟

«بعد المدرسة، حين...».

صمتُّ أفكر فيما عساي قد أصرِّح به في أثناء فقرة انتهاك خصوصياتي هذه. أتذكر العاصفة الرعدية بسحبها الداكنة. أسراب الذباب الصغير على أذرعنا ونحن نسير إلى المنزل متخذتَين طريق النهر. فيبي أرادت أن نذهب مباشرة إلى منزل صديقة والدتي، لكني أردت أن أعود إلى المنزل. كنت أظن أنه سيكون هناك كعكة عيد ميلاد، وحفل شاي. كنت أظن أنها ستكون بخير.

أتنفس بهدوء ثم أردف: «ولم تكن بخير. كانت في حال أسوأ. تشرب الخمر. تحفر الأرقام على باب الخزانة الخشبية أسفل الدرج. عندما رأتنا، جذبتني وحبستني فيها. مكثتُ هناك لساعات من بعد الظهيرة حتى الليل. وقت لا نهائي بالنسبة إليَّ. ثم هدرت العاصفة. كانت هذه صدمة نفسية بالنسبة إلى فيبي أيضًا، لكنها كانت صدمة أعنف لي».

حلقي ملتهب، فأندم على شرب البيرة وأمتعض من روبرت أكثر.

أكمل: «حين فتحَت باب سجني أخيرًا، كانت العاصفة عظيمة. لست متأكدة حتى أنها قصدت أن تطلق سراحي. فتحت الباب وتحدثت إليَّ، ثم أغلقته مرة أخرى قبل أن أخرج. لم تُحكم غلقه هذه المرة بالقفل، فدفعتُه حتى انفتح».

نبضاتي تتسارع، ومهما حكيت لن أتحرر من تلك الليلة.

أتابع: «كانت زجاجة الخمر الفارغة مُلقاة على الأرض. سمعت صوت صرير أخشاب الدرج إذ تصعد. كان الليل قد انتصف وأُطفِئَت الأنوار. الباب الخلفي مفتوح. أذكر هذا لأن رغم أننا كنا في الصيف، كان الهواء باردًا يدفع الأمطار إلى المطبخ. أستطيع أن أسمع القطرات تنهمر على الأرضية. أردت أن أهرب من الباب ولا أعود مرة أخرى. فقط أجري وأجري وأجري، لكني كنت أعرف أن فيبي بالأعلى، وكذا أمنا، وشعرت بخوف لم أشعر بمثله في حياتي».

ترددت. كيف سأحكي ما حدث تاليًا؟ لا أعني بالطبع الصعود على الدرج، ولا الأصوات الغريبة التي سمعتها ودفعَت قلبي للتواثب في صدري الصغير وأنا أسير عبر الممر.

أقول أخيرا: «ما زلت أراها. تقف جوار فراش فيبي، وتضغط الوسادة على وجهها. كنت حائرة، لا أفهم ماذا تفعل، ولأي غرض. أكثر شيء أذكره هو ساقا فيبي اللتان كانتا تضربان الحشية، تدوران في الهواء وتركلان الفراغ. على أي حال...».

صار صوتي أكثر حدة وأنا أتجه نحو نهاية الحكاية. لقد انتهيت من التفاصيل الأساسية.

أقول: «لا أعرف ماذا كان سيحدث لو لم ترفع عينيها نحوي وتراني، ثم تتهاوى. ظنوا في البداية أنها جلطة صُغرى، لكن لم يجدوا دليلًا طبيًّا على ذلك. أيًا كان ما انفجر في مخها فهو لم يكن شريانًا أو وعاءً دمويًّا. كان روحها وماهيتها... ربما عقلها. تركتها أنا وفيبي راقدة على الأرض وهربنا من المنزل. اتصل جار بالشرطة، وانتهى الأمر. لم تعد فيبي كما كانت، ولم أعد أنا».

أنظر إليه فأجده يتوق إلى المزيد.

أقول: «لم يكن ذنبي أن تبنَّت كلًّا منا أسرة مختلفة. لقد استحوذت على فيبي فكرة أن كل الأُسر أرادت أن تتبناني أنا، لكن هذا لم يكن صحيحًا. لقد كنت أصغر عمرًا فقط، وهذا كان الخيار المفضَّل لديهم كما أتصور. ثم ظهرت عائلة لطيفة ترغب في ضمي إليها، وكنتُ متحمسة للغاية للعيش معهم. بالطبع اختيارهم لي أثار استياء فيبي تجاهي، ولم يكن أحد يرغب في تبنيها وقتها، ثم غيَّرت إحدى العائلات رأيها وتفرقنا كلٌّ مع عائلة حتى نكبر ونستطيع أن نعيش وحدنا. العائلة التي تبنتني كانت ألطف من عائلتها بالتبني، وهي محقة في ذلك. لكني لم أكن غاضبة مثلما كانت. لقد اشتقت إلى أن أُحَب. عمومًا، أنت تعرف هذه التفاصيل ولم أكذب عليك بشأنها».

ينظر روبرت إلى زجاجته ويقول أخيرًا: «إذًا ما فعلَته والدتك مع فيبي كان يشبه رسم ويل».

أقول وأنا أقوم: «أجل. ولهذا عرفت أن فيبي أخبرته بشيء عن أمنا».

كاد يحتج، فأقاطعه هاتفة: «سواء قصَدَت هذا أم لم تقصد. الأكيد أنني لم أخبره أنا بشيء».

أعبر من جواره كامرأة عجوز محنية الظهر -مثلها- وكل مفاصلي تصرخ من الإرهاق والتعب.

أقول: «سأستحم. أريد أن أجري اتصالًا كي أنقل سيارتي إلى الإصلاح صباحًا. هلا أحضرت لي مشروب الكاموميل إلى أعلى؟».

يومئ، فأنتظر أن يقول شيئًا يواسيني، لكنه لا يفعل، وبدلا عن ذلك يبتسم ابتسامة باهتة كأنه هو من مر بأسوأ يوم ممكن.

***

بينما يُملأ حوض الاستحمام، أطرق باب كلوي، فلا ترد. وحين أطرق مرة أخرى ولا أحصل على رد، أسمح لنفسي بالدخول. كانت راقدة على جنبها على الفراش، تولي وجهها بعيدًا عني.

قالت: «ارحلي يا أمي».

كانت متجهمة، تميل كفة مراهقتها عن كفة نضجها بكثير. أجلس على طرف الفراش. لا أريد أن أتشاجر معها. أريد أن أعتني بها. أنتظر لحظةً قبل أن أتكلم على أمل أن تدير وجهها نحوي، لكنها تظل كما هي.

أقول: «أتعرفين؟ لم أكن أكبُرك بكثير حين قابلت والدك».

أضع يدي على كتفها، فيتصلب جسدها تحت لمستي، لكني أترك كفي حيث هي وأنا أكمل كلامي بهدوء: «ثم حملت، وجئتِ أنتِ وصرنا عائلة. لذا أنا أتفهم الحب يا كلوي. ولست مُسنة إلى الحد الذي ينسيني عنفوان حُب الشباب، ورؤية العالم بعينين لم تريا الكثير».

لم أحصل منها على استجابة، فأكملت: «أعتذر لك على الكثير مما قلته لك في السيارة. لم أقصد، لكني كنت مصدومة وغاضبة وقلقة عليك. أنا واثقة أنك تحبينه، وربما هو يحبك كذلك. ولمَ لا؟ أنت جميلة وشابة وذكية وممتلئة بطاقة عظيمة. من السهل أن يقع أي شخص في حبك».

كان باركر ستوكويل يتندَّر بشأن شرود جوليان هذه الأيام وعن خصيتيه المحتقنتين، لذا فهو غالبًا مفتون وربما يظن أنه واقع في الحب. الفكرة نفسها جعلت دمي يغلي مرة أخرى بينما يجب أن أهدأ لأجل طفلتي. هذا صعب للغاية.

أكمل: «لكن الشيء الذي لم تتعلميه بعد على الأرجح، هو أن العالم مملوء بالرجال الصالحين للحب، وقد يعجبك بعضهم أكثر. كيف ترين هذا انتقادًا بحق؟ حتى لو ترك ميشيل لأجلك، هناك فجوة عشرين عامًا بينكما،

وأعرف أنك ستقولين إن العمر غير مهم، لكنه بالفعل مهم. ستريدين فعل أمور وخوض مغامرات وارتياد الجامعة وحضور حفلات، وكل هذا جزء من كونك شابة صغيرة السن، خالية البال قبل أن تبدأ حياتك الفعلية الصعبة. هو بالفعل لديه طفلان، لذا سيكون مربوطًا دومًا إلى ميشيل، وبالتالي سيربطك إليها. زوجة أب في الثامنة عشرة. كل هذه التداعيات بالإضافة إلى أنه صديق أبيكِ وهي أيضًا صديقته يا كلوي. ستكون فوضى عارمة».

- قلت ارحلي.

صوتها بارد، لكني على الأقل آمل أن تكون قد أنصتت. هي فتاة ذكية ورغمًا عن نفسها ستفكر فيما قلت.

قلت: «أنا أحبك يا كلوي، وسأكون جوارك مهما حدث».

أقوم مُردفة: «أنا لم أخبر والدك بأي شيء حتى الآن. الأفضل أن ينتهي كل شيء قبل أن يعرف. اتفقنا؟».

أتصور أنها قد نامت لأنني لم أتلقَ ردًّا.

حين أصل إلى الباب أنظر خلفي وأضيف: «وأنا لم أُجن يا كلوي. لقد ظننتك ستفتحين باب السيارة جوارك. كنت أحاول أن أحميك. هذه مهمتي فأنا أمك، ودائمًا سأحميكِ».

***

-34-

تتجاوز الساعة الثانية صباحًا. زجاج النافذة أبرد من كفيَّ المفرودتين عليه. فمي مفتوح، البخار المتصاعد من الزفير يشكّل دائرة كبيرة متكاثفة. كيف سأبدو بالنسبة إلى شخص في الحديقة ينظر إلى أعلى؟ أضغط جسدي كله إلى النافذة فأشعر بالبرودة تعبر خلال بنطالي القصير والتيشيرت، ثم أدير رأسي وأضع خدي على الزجاج حتى لو أن هذا يؤلم كدماتي. أريد أن تنتزع البرودة ضباب الجَزَع الذي يمنح الحياة لسلوكيات الجنون التي تملأ لياليَّ.

الجنون.

خلال الليل، أقلق بشأن نفسي كما يقلق روبرت وفيبي عليَّ. على الأقل لست مضطرة إلى أن أقلق بشأن استيقاظ روبرت الذي يغفو بعمق بفضل المنوم. كان قد سألني إن كنت أريد أن تلتحق كلوي بالجامعة فقط كي يُنفَق المال ولا يكون بوسعه شراء الحانة. أي نوع من النساء يظنني؟ أي نوع من الأزواج هو؟

وأي نوع من الزوجات تُخدر زوجها؟

من أكون؟ إيما النهارية المرهَقة التي تحطم سيارتها، وتفزِع الأطفال، وترتاب، وتُتهم بالقتل؟ أو إيما الليلية التي يجتاحها ضباب تصرفاتها الغريبة التي تُضمئنها إلى حد ما. هل حقيقتي ضائعة بين تلك الهويتين؟

أتصور نفسي في الحديقة أنظر إلى أعلى. نفسي المُستعدة لخوض غمار العالم. نفسي التي تعرف تمامًا ما تريد وكيف تحصل عليه. نفسي التي يلجأ إليها الناس. تهمس لي كما أَلِفتها: تماسكي. *سيطري على هذا الموقف. انهِ كل شيء وأكملي حياتك.*

أقاوم الرغبة العارمة في أن أنزل إلى الخزانة بالأسفل. هي تناديني كي أختبئ فيها. يجب أن أكسر هذه الحلقة. يجب.

«مائتان واثنان وعشرون مائة وثلاثة عشر مائة وخمس وخمسون مائتان وثمانية عشر...».

لم أدرك أنني أردد الأرقام حتى توقفتُ فجأة. ثمة ظل يتحرك عند الرواق على يميني، فأتجمد مكاني. *ثمة دخيل في المنزل. أطفالي*. كلا... ليس دخيلًا. هو ظل لشخص صغير يراقبني.

أناديه: «ويل؟».

صوتي العالي يعيدني إلى صوابي. يتراجع الظل إلى حجرته وللحظة يزول عني شعور الضبابية الليلي. لا بد أنه هو. إلهي، كيف بدوت له وأنا أضغط نفسي إلى النافذة وأتمسَّح بها؟

أذهب إليه. مصباحه الليلي مُطفأ. وحجرته التي تكون بهيجة في الصباح غارقة الآن في كآبة رمادية لا ينيرها إلا ضوء القمر الباهت القادم من الخارج. كانت مُرتبة بشكل لم أعتده، كل أقلام التلوين في علبها، وألعابه في صندوقها. هل نظمتها فيبي؟ أم هو روبرت؟ بالتأكيد ليس ويل، إعصاري الصغير المشاغب الذي يخلِّف الفوضى حيثما يكون. تذكرتُ في حزن أنه لم يكن بهذه الحيوية الأسبوع الماضي. لست الوحيدة التي ليست على طبيعتها مؤخرًا.

كان قد عاد إلى فراشه متظاهرًا بالنوم، لكنني أستطيع أن أميز تنفسه السريع وعينيه اللتين تتحركان خلف جفنيه المغلقين.

أسأله بلطف: «هل نمت أيها القرد؟».

لا يرد، لكن أصابعه تقبض على غطائه.

أتابع: «هل تريد كوب ماء؟ هل راودتك أحلام سيئة؟».

يظل صامتًا، فأميل وأضع يدي على كتفه برفق.

يلتفت ببطء مستلقيًا على ظهره. الآن لا أعرف ماذا استنتج. ربما هو نائم بالفعل. ربما كان يسير في أثناء نومه. ربما أنا من تخيلت وجوده في الممر. ربما أنا نائمة وكل هذا حلم. ربما... ربما... ربما. من يعرف الحقيقة؟

أجلس أراقبه لدقائق أو أكثر، لكنه لم يستيقظ.

-35-

ثلاثة أيام حتى يوم عيد الميلاد

نمت من الساعة الرابعة والنصف حتى السابعة. غبت في نوم عميق مظلم كالقبر بلا أحلام أو كوابيس. فقط خواء لم يقطعه سوى استيقاظ روبرت.

أجر نفسي إلى الحمام المرفَق بالحجرة ثم أرتمي في حوض الاستحمام. جسدي يؤلمني وكدمة ركبتي صارت أكبر وأزهى لونًا.

نظرة إلى المرآة أكدت أن ظاهري كباطني، مروِّع. أنا أتهاوى.

أزيد حرارة الماء حتى تكاد تحرقني، وأترك الماء المندفع يضرب كتفيَّ ويدلكهما حتى لم أعد أتحمل الحرارة أكثر. هذه عطلة نهاية الأسبوع ولدي خيار أن أمضي يومي كله في الفراش بعد الإفطار. آمل أن يكون النوم خلال النهار أقل اضطرابًا من النوم خلال الليل. ربما حين أستيقظ أجد دارسي قد أنهى كل تلك الفوضى وأصير متفرغة لمناقشة أمر كلوي بذهن صاف. هل أتصل بجوليان؟ كلا. لا بد أن كلوي قد أخبرته بالفعل مما أبرز الخوف من الطلاق أمام عينيه وغالبًا سينهي هو العلاقة المبهرجة، وستتعلم ابنتي الجميلة شيئًا عن الرجال الأكبر سنًّا الذين يبدون خلابين من وجهة نظر الصغار.

أجفف جسدي، وأشرع في ارتداء ملابس رياضية مريحة حين صرخ روبرت مناديًا: «إيما!».

للحظة ظننت أنه يناديني للإفطار، لكن الصوت لا يأتيني من أسفل.

أرد: «انتظر».

أرتدي البنطال الذي صار أوسع الآن. الأرق يحرق السعرات كما يبدو، هذا بالإضافة إلى الحوادث والاتهامات بالقتل.

يهتف بصوت بارد: «تعالي هنا».

إلهي، ماذا الآن؟

***

«إلهي!».

كلوي تقف عند باب حجرة ويل، وفمها المفتوح في إنكار يعلوه عيناها الحمراوان من البكاء. هل انفصل عنها جوليان؟ ها هي مهمة أخرى قد زالت من فوق كتفيَّ.

تلتفت لتنظر إليَّ فتتحول كل خواطري عن جوليان إلى رماد تذروه الريح. هي مذعورة.

أقول: «هذا خراء لا يُحتمل. هذه العائلة ذاهبة إلى مصيبة».

أتقدم إلى الداخل، ويأتي دوري كي أفتح فمي وأحدق غير مصدِّقة.

أتساءل رغم أن ما حدث واضح: «ماذا حدث؟».

تلك الرسمة التي كان ويل يكرر رسمها مرارًا في دفتره، تزين الآن كل الحوائط بكل حجم ولون ممكن، وقد رسمها بقلم سميك. يبدو أنه قد تسلق خزانته كي يصل إلى الأعلى. لم أستطع التوقف عن التحديق. الطفل الصغير في الفراش. المرأة ذات الوجه المجنون، شعرها يتدلى كغيلان أفلام الرعب اليابانية الرهيبة. كتب ويل على كل الرسومات كلمة «ماما» بحروف غير منتظمة، ثم -وكأنما يؤكد اتهامه لي- كتب مرتين «إيما».

يسألني روبرت وهو يحدق إليَّ من حيث يقف في منتصف الحجرة: «ما هذا؟».

أقول: «لا أعرف».

أنظر إلى ويل المتكور على الفراش محتضنًا ركبتيه، متحاشيًا النظر إلى أي منا. أقلامه منتثرة على الأرض (ألم تكن مرتَّبة في علبها ليلة أمس؟ هل أنا من أخرجتها؟ لماذا يغطي الضباب ذكرياتي الليلية؟) والألوان ترشح منها إلى البساط السميك فاتح اللون كبِركة من الدماء الملوَّنة في مسرح جريمة.

أقول له: «ماذا حدث أيها القرد الصغير؟».

أحاول الاقتراب منه، لكن روبرت يسد الطريق.

ويقول: «لا تلمسيه».

- ماذا بك بحق الجحم يا روبرت؟

أحاول إبعاده عن طريقي، لكنه يمسك بذراعي يمنعني.

يهدر صوته وهو يسألني: «هل جئتِ إلى حجرته ليلة أمس؟».

لم أرد، وراح فمي ينفتح وينغلق كسمكة وأنا أحاول أن أجد الصدق الذي يقنعه أو الكذب الذي يُنجيني.

يهزني وهو يصيح: «هل جئت؟».

- فقط لدقيقة! ظننت أنه قد استيقظ، ففكرت أن...

- سحقًا يا إيما. أنت بحاجة إلى مساعدة.

- صدقًا، أنا...

يهزني مرة أخرى وهو يقول: «أنت ماذا؟ ما عذرك هذه المرة؟ انظري إلى ابنك يا إيما».

يديرني كي أواجه ويل، لكنه ظل يمسكني بقوة، يجبرني على النظر. يدس الولد وجهه بين ركبتيه ويتأرجح أمامًا وخلفًا.

يتابع: «انظري إلى نتيجة أفعالك!».

أتملص منه وأقول: «أنا لم أؤذِ ولدَينا قط! ولن أؤذيهما».

نحدق إلى بعضنا وقد تهدجت أنفاسنا، ثم يمسح وجهه بكفه ويمررها خلال شعره وكأنه هو من يجهِده الإرهاق. حين نظر إليَّ مرة أخرى كان سخطه قد اختفى، وحل محله شيء أكثر فظاعة. انعدام ثقة كامل.

قال: «يجب أن تغادري المنزل بضعة أيام».

أصيح كأنما صُفعت: «ماذا؟».

تبتعد عيناه عني وهو يقول: «اذهبي إلى أي مكان آخر حتى نعرف ماذا يحدث هنا. سآخذه إلى مختص حتى أفهم ما يجري معه، ومن الأفضل ألا تكوني هنا حتى تُحل باقي المشكلات الأخرى أيضًا».

- المشكلات الأخرى؟ هل تعني أمي؟

يتغير إحساسي بكلماته من الصفع إلى تلقي لكمة في أعلى المعدة. نحدق إلى بعضنا لحظات.

ثم أنفجر: «بحق المسيح يا روبرت».

ثم أستدير مغادرة الحجرة قبل أن يرى دموعي.

-36-

كانت الساعة الحادية عشرة تقريبًا حين استلمت سيارتي المؤقتة ونزلت في فندق جوريز إن. يداي ترتجفان ومعدتي متقلصة. أشرب القهوة القوية المريعة من آلة تحضير القهوة وأنا أعلق ما استطعت أخذه من ثيابي في أثناء غضبي، ثم أنقلب على الفراش.

أنا حانقة على روبرت، لكني حانقة أكثر على نفسي لأنني لم أتجاوز أمر هذا الأرق، ولم أعبأ بشأن كلوي وويل. عائلتي تنهار أمام عينيَّ. أتحقق من هاتفي، ولا أجد أي خبر من دارسي حتى الآن، ولا أتوقع أن يتصل بي قبل نهاية اليوم، هذا لو اتصل بي من الأساس. الضوء الوحيد في هذا الوضع المظلم أن روبرت سيلوم نفسه كثيرًا حين يتأكد أنني لست القاتلة.

لكن لا بد أن هناك قاتلًا.

كان هذا صوت أمي، يهمس كدودة طفيلية في عقلي. أحاول سحقه.

كما قال دارسي، ربما وصلت الألياف إلى أنف أمي بسبب تعامل الممرضة بقوة أو جرَّاء شيء فعلته أمي بنفسها. *ماذا قال أيضًا؟* يتكرر الصوت ويضيف: *لا تقولي لي إن هذا لم يخطر ببالك.*

فيبي، أختي الكبرى. لا أستطيع أن أخرِج ما قاله دارسي عنها. أمي لديها ابنتان دمرتْهما بنجاح. لكنها كانت تحاول قتل فيبي يومها، فلماذا لا تقتلها فيبي؟ لقد حكت ماضينا لروبرت وأفزعت ويل. لا أعتبر هذا مؤشرًا على التوازن النفسي أبدًا.

يباغتني خاطر واضح للغاية حتى إنني لم أصدقه ولم أفكر فيه من قبل، يتبعه شعور حارق بالخزي. *ربما لم تخبر فيبي ويل.* ماذا لو أنه سمعها وهي

تخبر روبرت؟ ذكر روبرت مرتين أنها حكت له شيئًا عن طفولتنا. ماذا لو سمعها ويل وهي تحكي ما فعلته «ماما» بها؟ هذا سيخيفه بسهولة وسيفكر فيَّ حين يسمع كلمة «ماما»، وبخاصة إن كانا يتحدثان عني كذلك. يمكن أن يختلط كل هذا في ذهنه ويخلق حكاية عن «ماما» ووسادة وطفل مرتعب في الفراش.**مكتبة سُر مَن قرأ**

أشعر بسعادة بصدد هذا الاستنتاج. وكأنني لم أعد أعبأ بشأن الأمور الأخرى. *الأمور السرية*. الأمور التي تدور عني قطعًا... الأرقام. الأوقات المفقودة. لو أن فيبي لم تقترف شيئًا. فهل يمكن أن أكون قد خنقتُ أمي ونسيت؟ أتذكر الكاموميل البارد على الأرض. والأرقام على مُسجل الصوت. والوقت الذي يمر ولا أشعر به. كيف أتوقع أن تثق فيَّ عائلتي إن كنت غير قادرة على الثقة في نفسي؟

أكتب لدارسي رسالة نصية: **هل ظهر شيء في الكاميرات؟** أنظر إلى الهاتف مليًّا ولا أتلقى ردًّا. ماذا أتوقع حقًّا؟ أنه قد تخلى عن كل خطط إجازة نهاية الأسبوع كي يُبرئني؟ ما زلت أشعر بالحرج لتفكيري أن هناك شرارة انجذاب في نفسه. ما نحن إلا صديقان قديمان لا أكثر. وأنا متزوجة. أضحك في مرارة وأنا أنظر إلى ما حولي. متزوجة. أجل. وكل شيء على ما يرام. أغلق عينيَّ إذ بدأ رأسي يدق بطبول بدايات الصداع النصفي. وأجد كلمات الأغنية تتناغم مع النبضات داخل جمجمتي...

انظر.. انظر.. شمعة وكتاب وجرس.. أضعهم خلفي..

يرن جرس هاتفي. فأفزع وتصمت الموسيقى. أفتح الخط سريعا آملة أن يكون المتصل دارسي. لكنها لم تكن سوى الدكتورة موريس تطمئن عليَّ.

قالت: «معذرة لأنني اتصلت بك يوم السبت. لكننا لم نحجز جلسة أخرى. هل تحسَّن نومك؟ هل كل شيء بخير؟».

- كلا. ليس بالضبط.

أضحك وكأن ما قلت مزاح. لكن الدموع كانت تهددني بالانهمار في أي لحظة.

أكمل: «تساعدني الأقراص المنومة بعض الشيء. لكن ليس كثيرًا. هناك بعض المشكلات العائلية كذلك».

- هل هذا ما يبقيكِ مستيقظة؟

- كلا.

ما جدوى الكذب؟ أزفر زفرة طويلة مرتجفة وأضيف: «لا أعرف ما خطبي. لا أستطيع التوقف عن التفكير في أمي وفيما فعلته. تراودني بعض الأفعال التي لا أستطيع السيطرة عليها. أفعال يجب أن أقوم بها في الليل، التحقق من غلق الباب الخلفي، النظر عبر نافذة الطابق العلوي، فحص الخزانة أسفل الدرج، الذهاب إلى حجرة ويل. هذه أمور لا أستطيع منع نفسي منها. أنا خائفة للغاية».

صوتي يرتجف وأنا أنطقها أخيرًا: «أخاف أن أُجن كما جُنت. ماذا لو آذيت أطفالي؟ لقد حطمتُ سيارتي أمس وكانت كلوي فيها وأعرف أن روبرت يظنني فعلتها عامدةً. أنا متعبة لدرجة أنني لا أعرف ماذا يحدث».

تقول لي: «اهدئي. هذا أكثر من قدرتك على الفهم. خذي شهيقًا عميقًا».

أحاول بلا حماس، لكنها تقاطعني قائلة: «أعمق وأبطأ. أريد أن أتمكن من سماعك تتنفسين. تنفسي عبر أنفك، ثم ازفري عبر فمك».

أفعل كما تقول. أخيرًا تتباطأ نبضات قلبي وتتوقف يداي عن الارتجاف.

أقول لها: «معذرة».

أكره أن أكون هشة. أنا من يتولى أمر كل شيء، ولا يتهاوى أبدًا. *هذا ما يقوله كل من تهاووا*. يهمس صوت أمي في عقلي. *قبل أن يطلقوا النار على أبنائهم وأزواجهم ثم يقتلوا أنفسهم*.

- لا تعتذري أبدًا عن مشاعرك. المهم أن نحاول فهم ما يحرِّكها. يبدو بالنسبة إليَّ، ومن خلال ما فهمت، أنك سجينة فترة قصيرة للغاية من حياة والدتك. فترة وقعت فيها صدمة عظيمة أثرت عليك في سن صغيرة، كل شيء تظنينه عن والدتك أو تعرفينه عنها مصدره هذه الفترة. الفترة القصيرة التي قادتك إلى ليلة عيد ميلادها الأربعين. لكنها عاشت طويلًا قبل وبعد هذا اليوم. ربما من الأفضل الآن، بينما لديك وقت لهذا، أن تركزي على معرفة ما حدث خلال تلك السنوات. أن تتعرفي على حياتها أكثر.

أقول في دفاع عن نفسي: «أنا أحاول نسيانها. لقد ماتت».

- كما أرى، فمحاولة نسيانها لا تجدي معك نفعًا. ربما ما تحتاجين إليه هو محاولة فهمها.

- لا أريد أن أفهمها.

كنت كطفل يضرب الأرض بقدميه احتجاجًا.

- ليس هذا حقيقيًا. أنت لا تريدين مسامحتها، لكني أظنك تريدين فهمها.

تصمت قليلًا، ولا أتفوه بشيء خلال صمتها. أخيرًا تقول إن عليها أن تنهي المكالمة الآن وإنها ستعاود الاتصال بي خلال يومين.

ثم تختتم حديثها بقولها: «فكري فيما قلت لك. ماذا ستخسرين؟».

ثم ترحل.

ماذا سأخسر؟ ظلت آخر كلماتها تتردد في عقلي. لدي بالطبع ما أخسره. عائلتي، وظيفتي، عقلي. لكن كل هذا يتداعى مهما أفعل. هي مُحقة. عندما أحاول تذكر حياة أمي بعيدًا عن هذه الليلة فلا أجد أي تفاصيل. خواء قبلها وبعدها. من أين أبدأ معرفة الماضي على أي حال؟

بالطبع، هناك مكان واحد فقط يمكنني فيه أن أجد كل شيء عن أمي. وحدة هارتويل المؤمَّنة. لقد عاشت هناك قرابة الثلاثين عامًا. ربما هي أمضت لديهم أطول مدة من بين النزلاء، فيمكن أن يخبروني بالمزيد عنها. لقد زارتها فيبي هناك، وربما سيتفهمون رغبتي في دفن أشباح الماضي.

أجد رقم وحدة هارتويل في سجل هاتفي، لكني أجبُن عن الاتصال بهم. بدلًا من ذلك أرسل لهم رسالة عبر البريد الإلكتروني من الحساب الخاص بعملي كي أظهر بمظهر الاحترافية قدر الإمكان، وأطلب فيها أن أتحدث إلى أي شخص يعرف أمي باتريشيا بورنيت. أضغط أيقونة الإرسال قبل أن أتراجع، ثم أمسك هاتفي وألقي بنفسي إلى الفراش. رأسي ينبض وكلمات الأغنية اللعينة تملأ عقلي مرة أخرى.

أخيرًا أستسلم، وأبحث عن الأغنية على متجر آي تيونز الإلكتروني. فريق سويت بيلي بيلجريم وأغنيتهم «شمعة وكتاب وجرس». أحمِّل النسخة الصوتية منها وأضغط أيقونة إعادة التشغيل التلقائي، ثم أخفض الصوت وآمل أن تساعدني على النوم. أغلق عينيَّ، وبمجرد أن أسمع بداياتها، أغفو.

-37-

يوقظني صوت رنين الهاتف، وأُصدم حين أدرك أن الساعة الثانية. لقد نمت فوق الثلاث ساعات بينما الأغنية تتكرر في أذنيَّ. حلقي الجاف له طعم نوم الظهيرة الموهِن، والقهوة الحامضة. لكن حين أرى رقم دارسي، أنتصب جالسة بسرعة ونبضات قلبي تضرب كالطبل ورأسي يؤلمني.

قال: «مرحبًا إيما. هذا أنا».

بالكاد تخرج الكلمات مني: «مرحبًا. هل حصلت على أي شيء من الكاميرات؟».

- ليس بعد. صدقي أو لا تصدقي، لقد أوقفتِ سيارتك عند بقعة الكاميرا العمياء، وبالكاد أرى طرف باب الراكب الأمامي ولا يمكنني معرفة في أي وقت ركبتِ. تحركت السيارة بعد بضع دقائق من وفاة والدتك، ورغم أنه وقت قصير للغاية، فإن الشرطة ستظل متمسكة باتهامها لك بقتلها خلالها.

لا.. لا.. لا.. كنت متأكدة أن تسجيل الكاميرا سيحسم القضية لصالحي، لكني الآن أسير على غير هدى مرة أخرى.

يضيف دارسي: «لكن لا تجزعي. لقد تحدثت إلى مدير المستشفى وأكد لي أن كل مداخل المستشفى مزودة بكاميرات مراقبة تغطي الزوايا كافة، فهل تذكرين من أي بوابة خرجتِ؟ البوابة الأقرب إلى موقف سيارتك؟».

يقفز قلبي وأنا أهتف: «أجل! البوابة حيث كشك مقهى ستاربَكس. أنا لم أخرج من البوابة الرئيسية هذه المرة؛ تلك البوابة هي الأقرب للجناح الذي كانت فيه والدتي».

- عظيم. سأفحص هذه الكاميرا الآن. تفاءلي يا بيبي سبايس. سأتولى أمر كل شيء.

ثم ينهي المكالمة قبل أن أشكره حتى. *سأتولى أمر كل شيء*. إلهي. آمل ذلك.

ما زالت أعصابي مشدودة وأحتاج إلى الخروج من غرفة الفندق قليلًا. يجب أن أحصل على بعض الطعام رغم أني لا أشعر بأي جوع.

طيلة حياتي كان وقتي مقسَّمًا بين العمل والعائلة، ولم يُتح لي مثل هذا الوقت الطويل لنفسي. أغسل أسناني وأعدل هندامي ثم أخرج.

هذا هو يوم تدريب ويل مع فريق كرة القدم للأطفال، ولو وصلت عند وقت انتهاء التدريب ربما أحظى بفرصة الحديث مع روبرت. يمكن أن نتناول القهوة معًا في أي مكان وأخبره بنظريتي حول سماع ويل الحوار الذي دار بينه وبين فيبي. هل سيُشكل هذا فارقًا معه؟

حين أصل إلى الملعب أجد ميشيل تنتظر هناك ولا أستطيع تفاديها وهي تسعى جيئة وذهابًا وتبدو مرهَقة مثلي.

فتقول لي: «أنا أُجَن».

أقول لنفسي: أهلًا بك في نادي المجانين.

تردف: «جوليان لا يحدثني حتى. وهذا الصباح رحل مبكرًا وأنا أحاول أن أتحدث إليه».

أرى أن شفتها السفلى مشققة من كثرة ما تعضها.

تكمل: «أنا سئمت. أعرف أنه يخطط للرحيل لأنه انسحب حتى من مشروع الحانة الغبي. اتصل آلان أمس ليخبرني...».

أقاطعها: «أنا لم أكن أعرف بأمر مشروع الحانة الغبي هذا».

تنظر إليَّ مصدومة وتقول: «فعلًا؟ يا للرجال! ماذا جرى لهم؟ آسفة للغاية، ظننتك تعرفين. إلهي! هذا يعني أنك لا تعرفين أيضًا...».

تتراجع عن استكمال عبارتها، فأسألها: «لم أكن أعرف ماذا؟».

ما المصيبة التالية؟

- اتصل آلان ليخبرني أن روبرت يريد شراء حصة مشاركة جوليان في الحانة. سيكون صاحب النصيب الأكبر.

- روبرت؟

اليوم يصير أفضل وأفضل.

تقول: «آسفة. كان المفترض أن أخبرك. يبدو أنك لست مسرورة لذلك».

- تخمينك صحيح.

كانت تشعر بالأسف الحقيقي تجاهي، وأشعر أنا بطعنة شعور بالذنب. أعرف تحديدًا سبب تغير زوجها ومن المفترض أن أخبرها. هي تستحق أن تعرف، لكن لدي ما يكفي من المشكلات الآن. أرفع رأسي فأرى واحدة من تلك المشكلات تقترب.

«إيما؟».

لم تبدُ أختي سعيدة لمرآي وهي تسألني: «ماذا تفعلين هنا؟».

- ويل ابني. أعتقد أن السؤال هو: ماذا تفعلين *أنتِ* هنا؟

- طلب مني روبرت أن أصطحب الولد.

تتراجع ميشيل بعيدًا لتتحدث مع واحدة من الأمهات المنتظِرات، وتتركني وفيبي وحدنا.

تكمل فيبي: «لا يصح أن تكوني هنا. لن يروق له ذلك».

- لا يصح أن أكون هنا؟ من أنت كي تقرري هذا؟

غضبي يشتعل أمام برودها. أردف حانقة: «ولم أكن أعرف أن ما يروق لروبرت وما لا يروق له من ضمن أولوياتك».

وأتذكر عناقهما، هل كان بريئًا حقًّا؟

- ماذا تتوقعين يا إيما؟ بعد الرسومات على جدران غرفة ويل، وبعد ما تتهمك الشرطة به؟

تنظر حولها لتتأكد من أن لا أحد سيسمع الاتهام الذي ستقوله.

ثم تضيف: «روبرت أخذ ويل إلى اختصاصي نفسي للأطفال هذا الصباح. أخبره بأن تصرفاته وهدوءه يتسقان وأعراض اضطراب ما بعد الصدمة. هذا هو أنت يا إيما. أنت تتصرفين مثلها وتعرفين هذا، لذا اعذريني فأنا أحاول حمايتهم».

- أنا لم أفعل ما يؤذي ويل. أما بالنسبة إلى أمر الرسومات، فربما سمعك تخبرين روبرت عن ماضينا. يبدو أنك كنت تثرثرين مع الجميع.

- هو لم يسمعنا.

- إذًا لا بد وأنك أخبرتِه.

أيلتفت الناس نحونا إثر صوتي العالي؟

لكني لا أهتم وأردف: «كما خرقتِ إطار سيارتي، وكما تحاولين مضاجعة زوجي. ما زلتِ تشعرين بالغيرة بعد كل تلك السنوات. ربما أنت من قتلت أمنا. أنت مثيرة للشفقة! لا يوجد تفسير آخر. أنت... أنت من تفعلين بي هذا».

تنظر إليَّ في برود وبتعبير لا يُقرأ، ثم تميل نحوي وتقول بصوت هادئ، مُرعب، أحسنت التحكم فيه: «لكنه ليس التفسير الوحيد، أليس كذلك؟ وبالتأكيد ليس التفسير الأكثر وضوحًا. متى ستبلغين الأربعين يا إيما؟ يوم الاثنين؟ أنت تعانين الأرق، تتصرفين بغرابة... هل أكمل؟ ما التفسير الواضح هنا؟ ما التفسير المقنع؟».

تنتصب، وتلتفت مبتسمة إذ يعدو ويل مقتربًا من البوابة في انتظار أن يفتحها المدرب.

بدا كأن شيئًا لم يحدث، ولم تنظر إليَّ وهي تهمس كلمات كالرصاص: «انصرفي قبل أن يخرج ويل، ولن أخبر روبرت بأنني رأيتك. لا تزيدي الوضع سوءًا».

أترنح عائدة إلى سيارتي، تخرج الأنفاس من رئتيَّ ولا تعود. وجهي يشتعل حرجًا وأنا أغلق الباب. أردت أن أتصل بروبرت وأصرخ مطوِّحة الاتهامات في وجهه حتى أدميه، لكني سأنتظر حتى يحصل دارسي على صور الكاميرا، وقتها يمكن لزوجي وأختي العاهرة أن يعتذرا وهما صاغران، ثم ليذهب روبرت إلى الجحيم إن أراد أن يحصل على هذه الحانة.

يرن هاتفي، وحين أرى الرقم غير المُعرَّف، أجيب سريعًا ظنًّا أنه دارسي، لكنه لم يكن هو.

- مرحبًا إيما، أنا باركر. اتصلت بالمكتب أمس وأخبروني بأنكِ تواجهين بعض المشكلات في المنزل.

أوه، إلهي. باركر ستوكويل.

- كل شيء على ما يرام.

أشاهد ويل يتجه إلى سيارة روبرت يدًا بيد مع فيبي غافلًا عن وجودي. (*هل سمح لها روبرت بالفعل بقيادتها؟!*) أشعر برغبة شديدة في خنقها وأنا أراها تبتسم لابني. أنا مثل أنثى نمر ترى أطفالها تحت التهديد.

هذه عائلتي يا فيبي، عائلتي.

يكمل ستوكويل في مداهنة، بصوته الهادئ: «تروقين لي حين تتظاهرين بالقوة، لكن كلنا يحتاج إلى كتف يبكي عليه أحيانًا. اسمعي، الأولاد سيمكثون في المدرسة في إجازة نهاية هذا الأسبوع، لمَ لا تأتين؟ سوف أطهو لك عشاءً، أو أطلب من الطاهي هذا».

في سيارة روبرت، أرى فيبي تضحك على شيء وهي تتأكد من ربط حزام ويل. كم هو سهل عليها أن تحتل مكاني جوار ابني!

- إيما؟ أما زلتِ هنا؟

يغلي غضبي ويسري عبر خط الهاتف وأنا أقول: «لماذا أخذت أولاد ميراندا إن كنت لا تعبأ بوجودهم معك؟ وكلا، لا أريد الذهاب إلى منزلك. أنا لم أشجعك لحظة على التمادي ولم ألمح لك أنني أريد أن أعرفك بعد أن أنهيت أمر قضية طلاقك...».

يقاطعني كمراهق غاضب: «لكنك حَضَرتِ العشاء».

- لأن بَكلي أجبرني على ذلك، وأنا أيضًا حانقة عليه لأن هذا تمييز على أساس الجنس وقد انتهى منذ السبعينيات من القرن الماضي. ماذا دهاكم أيها الرجال؟ انضجوا وتخطوا تمحوركم حول أنفسكم.

أغلق الخط، وفورًا أمنع رقمه من الاتصال بي مجددًا. جسدي كله يرتجف. *تروقين لي حين تتظاهرين بالقوة.* ماذا دهاه بحق الجحيم؟!

أقطع الطريق وأنا أستعر غضبًا.

سحقًا!

مكتبة
t.me/soramnqraa

-38-

أنا خارج منزل كارولاين مرة أخرى، ومجددًا لا أعرف كيف أصل إليها.

الساعة الخامسة، كنت أقود عبر شوارع المدينة لمدة ساعتين، والغضب يطيح بعقلي. ساعتين؟ أشعر أنها أقرب إلى ثلاثين دقيقة. هل مررت بواحدة من نوبات فقدان الشعور بالوقت في *أثناء القيادة*؟ أضرب رأسي في مسند المقعد. أنا غاضبة مستاءة. أغمض عينيَّ لثوانٍ. أنا متعَبة للغاية، فكيف أفكر على نحو سليم؟

أنظر مرة أخرى إلى المنازل ذات الشرفات على الجانب الآخر من الطريق. لماذا عدت إلى هنا؟ أنا بالكاد أعرف المرأة، وقابلتها مرتين، أول مرة منهما كنت فيها وقحة، والثانية أجبرتها على تناول الغداء معي. إذًا، لماذا عدت إلى هنا؟ أهي أفضل خيار لي كصديقة الآن؟ مريع أن أعترف أن خارج إطار رفاق العمل وأمهات أصدقاء أولادي، ليس لدي الكثير من الأصدقاء. هذا إن كان لدي أصدقاء من الأساس.

لقد ارتبطتُ بروبرت مبكرًا للغاية، وكانت علاقاتي بالآخرين عابرة بعد رحيلي من منزل عائلتي بالتبني. لكن كارولاين ردت على رسالتي، إذًا لا بد أنها استمتعت بعض الشيء بالغداء معي. ربما هي وحيدة كذلك.

أحدق إلى الباب أكثر.

هذا حُمق. لا يمكن أن أمكث أمام بيتها طيلة الليل، ولا أستطيع أن أجبر نفسي على دق بابها. الأفضل أن أشتري طعامًا وأعود إلى الفندق فأشاهد التلفاز وأحاول أن أنام.

أهِمُّ بتشغيل محرك السيارة، لكني أرى الباب ينفتح وتخرج منه محملقة في سيارتي.

اللعنة.

تسير بضع خطوات على الممر ثم تتوقف، وتعقد حاجبيها.

اللعنة. هي الآن تعرف أنني هنا. أخرج من السيارة، وهو الأمر الوحيد الذي يمكنني فعله بدلًا من الهرب، وفي تردد أعبر الطريق.

أهتف: «كارولاين».

قالت: «رأيتك واقفة هنا من قبل. لا أعرف ماذا...».

أوه، إلهي! لقد رأتني.

- أنا آسفة للغاية. لا بد أنك تظنين... حسنًا، لا أعرف ما تظنين بي، لكن...

أصمت حين أرى عينيها منتفختين. هل كانت تبكي؟

أسألها: «هل أنت بخير؟ هل حدث شيء لوالدتك؟».

- كلا، لا شيء من هذا. مشكلات خاصة بالعمل.

أعتقد أنها على شفا البكاء مرة أخرى.

- أعتذر إن كنت أقلقتك. كنت أمرُّ من هنا وتساءلت إن كنت ترغبين في صحبة وطعام. أنا محامية، وإنسانة طبيعية للغاية. أقسم لك.

بعد لحظات طويلة محرجة، تبتسم ابتسامة باهتة وتقول: «حسنًا. آسفة لانفعالي. لقد مررت بمشكلة مع رجل من قبل، وقد اعتاد أن يمكث خارج المنزل في نفس المكان. لطالما أرعبني هذا».

- هذا خطئي. كان يجب أن أرسل لك رسالة نصية.

بعد أن انتهينا من الاعتذارات، قادتني إلى الداخل. المنزل يفوح برائحة الدهان الجديد، والأرضيات تبدو لامعة مدهونة حديثًا. لا عجب أنها متعَبة ما دامت قد أنجزت كل هذا بمفردها بالإضافة إلى عملها في التمريض.

أقول: «منزل جميل، وقد أديتِ عملًا مذهلًا في تجديده».

في المطبخ، تُخرِج نصف زجاجة نبيذ أبيض من البراد، وتقسم محتواها بين كأسين.

ترد: «لنأمل أن يروق لأحد المشترين. أضع عيني على شقة تطل على النهر. ملكية مشتركة، مما سيخفض نصيبي في الفواتير أيضًا».

رغم أنها كانت تبتسم، لم تبدُ سعيدة لذلك. لكن لمَ قد تكون سعيدة؟ لا بد أنها حزينة لبيعها منزل العائلة لأجل دفع إقامة والدتها في دار رعاية.

- ماذا حدث في عملك؟ ربما أستطيع مساعدتك لو أن المشكلة قانونية.

- أنت تعرفين هذه الأمور. مديرة لا تطيقني، ولا ترى أي شيء صحيحًا مما أفعل.

تأخذ رشفة من النبيذ ثم تناولني الكأس الأخرى وهي تكمل: «ما كان لي أن أترك أمرًا كهذا يضايقني، لكن الوضع قاسٍ. أشعر أنها تتنمر عليَّ، وهو شعور غبي لأنني امرأة ناضجة في الثالثة والأربعين، لكن مع ذلك تُشعرني أنني عدت إلى سن المدرسة. لا أستطيع أن أتحدث إليها كذلك، فهي تزيح أيًّا مما أقول جانبًا».

- هل تدوِّنين تلك الوقائع؟ إن لم تكوني تفعلين، فابدئي فورًا. جربي أن تراسليها عبر البريد الإلكتروني وبهذا يكون لديك دليل على تجاهلها لك لو فكرتِ في رفع شكوى ضدها.

- لم أكن أدوِّن شيئًا، لكني سأبدأ. أشكرك.

تصمت هنيهة، ثم تبتسم أخيرًا كأنها قررت أنني لا أترصد بها وتضيف: «كنتُ قد حضَّرت طعامًا، هل يمكن أن نأكله بدلًا من أن نطلب من مطعم؟ على الأغلب ما زال دافئًا وسأطهو بعض الأرز معه. خدمة التوصيل للمنازل تكون بطيئة ليالي السبت».

- سيكون هذا رائعًا. أشكرك.

كنا مهذبتين للغاية. هذا هو حرج الغريبَين حين يحاولان أن يتصادقا. تمر لحظات من الصمت، ثم أرى مُدخل بلوتوث عند جانب الطاولة.

فأسألها: «هل يمكن أن أشغل بعض الموسيقى؟».

- بالتأكيد.

أوصل هاتفي المحمول وأشغل قائمة الأغاني عشوائيًّا، فتملأ الموسيقى الهادئة الفجوات في حوارنا بينما تتشاغل في إعداد الطعام.

تسألني: «ماذا عنكِ؟ هل تنامين بشكل أفضل؟».

أرشف النبيذ ثم أقول: «كنت أتمنى هذا. إلهي! أنا لا أعرف حتى من أين أبدأ. المشكلات تغرقني من كل جانب».

- احكِ لي.
- ستظنين أنني مجنونة.
- سأكون صريحة، أنا أعتقد أن الجميع مجانين. بما فيهم نفسي. العالم ذاته مجنون.

لذا، رحت أحكي ونحن نأكل. لم أخُض في التفاصيل، لكني عرضت أمر خوفي المرضي من الوصول إلى سن الأربعين بسبب جنون أمي في هذا العمر، وكيف أنها كادت تخنق فيبي، وأن سن الأربعين لا يبعدها عني سوى أيام وهذا ما يمنعني من النوم. أخبرها عن موت أمي وعن انتظاري لنتائج فحص كاميرات المراقبة حتى أثبت براءتي، ثم أحكي عن فيبي التي تنخر كالسوس في عائلتي.

أقول: «هي تغيرت كثيرًا بعد ما حدث حين كنا صغارًا. هي تحقد عليَّ. لا أعرف ما يدور في عقلها هذه الأيام. أنا مرهَقة طيلة الوقت، وأضطر إلى أن أضع المنوم في شاي زوجي كل ليلة كي أتأكد أنه لا يراقبني طيلة الليل. المنوم البسيط يجعله ينام عميقًا، بينما منومي الأقوى لا يؤثر فيَّ».

- هل تعتقدين حقًّا أنها خرقت إطار سيارتك؟
- فيبي؟

أملأ شوكتي بآخر ما تبقى من طعام في طبقي وأنا أقول: «لا أعرف. لقد لمحتها خارج منزلي تلك الليلة. لكن زوجة أحد موكليَّ تكرهني كذلك، لذا ربما تكون هي من فعلتها، فأنا متأكدة أنها حكَّت سيارتي بمفتاح، بالتالي خرق الإطار لن يكون بعيدًا عن تفكيرها».

لم تقل شيئًا، فقط ظلت تتأملني بملامح مُهتمة. أشرب من نبيذي وأنا أشعر بالحرج.

ثم أقول: «آسفة. لا أعرف لماذا حكيت لك كل هذا. احتجت إلى من أتحدث معه، وهذا يُلخص وحدتي المثيرة للشفقة أكثر من أي شيء آخر، لكني أشعر أن هناك صلة ما بيننا. شخصان هشَّان. أعرف أن إنشاء صداقات جديدة فعل أهوج».

- أنا لم أصادق شخصًا جديدًا منذ زمن.

ترفع كأسها وهي تُكمل: «نخب الصداقة الجديدة. على أمل أن تُحل كل مشكلاتنا تلقائيًا في أقرب وقت».

نقرع الكأسين ببعضهما، وأتمنى لو كنت قد أحضرتُ زجاجة أخرى. المكوث معها يجعلني أكثر هدوءًا.

أقول وهي تجمع أطباقنا: «أوه، إلهي. لقد نسيت أن أخبرك بأهم مشكلة. لقد اكتشفت أن ابنتي المراهقة تضاجع صديق أبيها. هو وزوجته ضمن دائرة أصدقائنا وأنا لم أخبر روبرت بعد. انتويت إخباره، لكن لم يُتح لي الوقت. آمل أن معرفتي بما يحدث ستفزِع الرجل وسينهي العلاقة».

تقول بعينين متسعتين: «هذا فظيع. ولَم تواجهي هذا الرجل؟ أو تحدثي زوجته؟».

- كلا. ليس بعد. تشغلني الكثير من الأمور ولا أريد إسقاط هذه القنبلة في وسطها.

- أجل. فهمت.

تقولها وهي تملأ الغلاية وتجلب الأكواب. رغم أني أريد المزيد من النبيذ، الشاي اقتراح أفضل. يجب أن أقود سيارتي إلى الفندق، والتفكير في القيادة جعلني أدرك أن مثانتي ستنفجر.

- هل يمكن أن أستخدم الحمام؟

- هو في آخر الممر قبل الدرج. هل تشربين الشاي؟ أتودين معه الحليب والسكر؟

- حليب فقط لو سمحتِ.

حمام الطابق السفلي واسع، مُخصص لذوي الإعاقة الجسدية، ذو عوارض معدنية مثبتة إلى حوائطه. يبدو أن والدتها كانت قد انتقلت إلى الإقامة في الطابق السفلي قبل ذهابها للعيش في دار الرعاية. في هذا الأمر، أنا وكارولاين مختلفتان، بالكاد عرفتُ أمي، بينما أمضت هي حياتها على ما يبدو في خدمتها بكل الطرق. شيء غريب أننا لا نتشابه مطلقًا، رغم ذلك أجدني منجذبة إليها.

أسمع صوت الأغنية إياها يصدح من المطبخ حين أعود.

تقول: «هذه أغنية لطيفة. أحب أغاني البوب. هل يمكن أن أسمعها مرة أخرى؟».

تضع كوبَي الشاي على المنضدة. أضغط على أسناني إذ أسمع صوت الأغنية المألوف أكثر من اللازم.

وأقول لها: «بالطبع».

قتلت الأغنية مزاجي الجيد في لحظة. سأشرب الشاي وأرحل.

-39-

يومان حتى يوم عيد الميلاد

أحضرت زجاجتَي نبيذ وأخذتهما معي إلى حجرتي بالفندق، وحين استيقظت من غفوتي السريعة شعرت بدوار وجفاف في حلقي.

احتجت إلى لحظات حتى تزول ضبابية الإرهاق عن عقلي فأدرك أين أنا. أنا لست في بيتي، البيت الذي عملت بكد حتى أحصل عليه. لقد نُفيت منه.

أجلس وأتحقق من هاتفي المحمول فلا أجد أي رسالة من روبرت أو كلوي، ولا أخبار من دارسي حتى الآن.

أرسل إلى كلوي: **أتمنى أن يكون كل شيء على ما يرام. أحبكم جميعًا. ماما.**

أراد عقلي الثمل أن يضيف: *هل هجرتِ هذا الوغد الخائن بعد؟* لكني لم أفعل.

كنا قد سمعنا الأغنية عدة مرات قبل أن أرحل. لم تواتني الجرأة أن أطلب من كارولاين أن توقِفها ولم أرد أن أضطر إلى شرح السبب. قالت إنها أغنية عن الفقد، وعن أوجاع القلب التي تطاردنا، وقد أحببتها، وعند إعادتها للمرة الخامسة استطعت أن أتظاهر أنها أغنية تلتصق بالأذن مثل العَلَقة لا أكثر. ربما هي كذلك. ربما لا صلة لها بليالي أرقي الغريبة.

لم أعد أعرف أي شيء لعين على الإطلاق.

أقراصي المنومة لا تزال في الخزانة في المنزل. لم أر داعيًا لجلبها لأنني لم أكن أنتوي تناولها. وها أنا أجلس في فراش غريب حتى الرابعة صباحًا، أغمغم بأرقام أمي وأحاول ألا أفكر فيما عساه يحدث الآن في منزلي دون وجودي هناك لأتأكد من غلق الأبواب والنوافذ والخزانات. هل الأولاد بخير؟ هل يفعل أحدهم شيئًا خبيثًا؟

في لحظة ما، قمت أذرع الحجرة، أحارب رغبتي الشديدة في ركوب السيارة والقيادة إلى المنزل، رغم أن ذهابي إلى هناك في مثل هذه الساعة سيجعل روبرت يتمسك أكثر باعتقاده أنني قد جُننت. في النهاية، قنَعتُ بكتابة الأرقام بإصبعي على الجدران ومارست بعض تمرينات التنفس حتى هدأت.

أعود إلى الفراش، أراجع بريدي الإلكتروني، أمسح رسائل الإعلانات البغيضة، حتى أصل إلى رسالة من وحدة هارتويل المؤمَّنة. لقد وصلت مساء أمس، ويبدو أنه قد فاتتني رؤيتها.

الرسالة من ديبي ويبستر، رئيس تمريض الرعاية الصحية الجنائية. تقول إنها تأسف لمصابي الأليم، وترحب بزيارتي وتخبرني أنها ستساعدني بكل الطرق الممكنة. سريعًا أرسل لها ردي بأنني سأكون في الوحدة اليوم -قبل أن يفكروا فيَّ كمشتبه به لو أن الشرطة قد أقرت اتهامها لي- ثم أنهض لأشغل ماكينة تحضير القهوة.

لم أتلق ردًّا من كلوي على رسالتي حتى الوقت الذي استعددت فيه للخروج، وحاولت ألا يضايقني هذا. هي مراهقة، وتجاهلي أسهل عليها من الخوض في نقاش معي. عدم وجودي معها أطلق سراحها من محاصرتي لها بأمر جوليان على الأقل مؤقتًا، ويبدو أنها قد استراحت. أنا لست في المنزل حتى تقلق بصدد إخباري أباها، والآن لدينا هموم أكبر ننشغل بها.

الطقس جميل اليوم، فأفتح نافذة السيارة كي ينعشني هواء الصباح، مع مساعدة مفعول مشروب الطاقة الذي اشتريته من محطة تمويل الوقود. تبعد وحدة هارتيويل مسافة ساعة عن ليدز، وأنا في الجهة القصية من المدينة، لكنه صباح يوم أحد هادئ والقيادة فيه ستكون مريحة، وتمنح حياتي المتخبطة هدفًا واتجاهًا.

هل أبلغَ باركر ستوكويل أمر انفجاري فيه أمس لبَكلي؟ غالبا. لكن سحقًا له. من حقي تمامًا أن أبعده، وقد أطلقت سهمًا تحذيريًا من جعبتي حين ذكرت لبَكلي سياسة التمييز الجنسي غير اللائقة.

هذا لم يمنعني من رؤية شراكتي على المَحك، لكن على الأقل بَكلي عاجز عن رفدي. ربما يتوجب عليَّ استكمال اللعبة وإخباره عن أفعال ميراندا ضدي: تشويه سيارتي، الملحوظة التي تركتها لي، ترصدها لي في المطعم. وقتها قد يصبح بَكلي وستوكويل أكثر تسامحًا. أكره فكرة التراجع أو الظهور بمظهر ضعيف، لكني أيضًا أريد هذه الشراكة. أنا حقًا أريدها. لو أن روبرت يظنني سأتخلى عن عملي، فهو المجنون لا أنا.

أنا لست مجنونة. قلقة؟ أجل. مؤرَّقة؟ أجل. يطاردني الماضي إلى حد التشتت؟ أجل. مجنونة؟ لا. لست مجنونة.

أشعر بثقتي تتزايد كلما اقتربت من وحدة هارتويل. الدكتور موريس على حق. جاء وقت مواجهتي للماضي، والسيطرة على حياتي، والتصرف كشخص ناضج. يفصلني عن يوم عيد ميلادي يومان. كل هذا سينتهي خلال أسبوع. إن استطعت التخلص من خوفي من التحول إلى نسخة عنها قبل بلوغي الأربعين، كل شيء سيكون بخير.

-40-

لم أكن واثقة من تصوري عن وحدة هارتويل، ربما تخيلتها أقرب إلى مستشفى مجانين من القرن التاسع عشر. لكني لم أتخيلها قط ذلك المبنى المشرق العصري الذي أراه أمامي. لولا السور السلكي العالي لبدت أقرب إلى مدرسة ثانوية بنوافذها الزرقاء وحوائطها سُكرية اللون، والتقسيمات الخشبية ذات الطابع الاسكندنافي البسيط. الشكل الجمالي كله يدعو إلى الاسترخاء. استمر هذا الانطباع حتى حين دلفت إلى صالة الاستقبال الزاهية، المزينة باللوحات والمصنوعات الخزفية -التي أظنها من صناعة المقيمين بالوحدة- وتتخللها الملصقات التحفيزية.

أقول: «مرحبًا».

تبتسم لي امرأة ترتدي تيشيرت بولو، وتقف خلف طاولة الاستقبال الخشبية قائلة: «أنا آسفة للغاية، لكن نظام الحاسوب الخاص بنا اِنهار هذا الصباح. مشكلة خاصة بالحاسوب المركزي. مَن سيصلحه لم يصل بعد، لذا أنت مضطرة إلى الانتظار معي للحظات، لقد عدنا إلى عصر القلم والورقة الآن. كيف يمكنني مساعدتك؟».

- جئت لأقابل رئيس التمريض ديبي ويبستر.

- آه. يبدو أن هناك مشكلة أخرى.

تهز كتفيها معتذرة ثم تردف: «لقد اتصلت تبلغ عن إجازة مرضية؛ هي تعاني الصداع النصفي. بالطبع سأسجل إجازتها غدًا إن لم يصل فتى الصيانة قريبًا».

إلهي. آمل ألا أكون قد جئت كل هذه المسافة بلا فائدة.

أقول لها: «لقد راسلتني أمس وأخبرتني أن بوسعي المجيء والحديث معها بشأن... بشأن والدتي. كانت نزيلة هنا. ماتت منذ أيام. اسمها باتريشيا بورنيت».

يلين تعبير وجهها ويتحول إلى ابتسامة متعاطفة وهي تقول: «أوه. باتريشيا. أنا آسفة لخسارتك. لا أصدق أنها قد رحلت حقًّا. لطالما كانت جزءًا من هارتويل. سنفتقدها».

نبرة صوتها اللطيفة أربكتني؛ لم أتصور أن يتحدث أحدهم بتلك الطريقة عن أمي.

- في الحقيقة، لم تُتح لي فرصة معرفتها. لقد كنت صغيرة للغاية حين... هل هناك من يمكنه الحديث معي عنها أو من يريني حجرتها مثلًا؟ أنا... نصحوني أن أجد نهاية مناسبة لهذا الفصل من حياتي، و...

أشعر بحمرة الحرج تلطخ عنقي وأنا أردف: «أظن هذا سيساعدني».

- بالطبع. أنا متأكدة أنني سأجد من يرافقك في المكان، وبخاصة أنها كانت تقيم تحت حراسة مخفَّفة...

- مخففة؟ كانت حراستها متوسطة على ما أظن.

تمنحني ابتسامة لطيفة وتقول: «في البداية فقط، لكن لمدة طويلة، لم تكن باتريشيا تمثل خطرًا إلا على نفسها، لا الآخرين. انتقلت إلى قسم شجرة التفاح ذي الحراسة المخففة منذ أكثر من عِقد مضى».

كدت أصيح فيها أنني أعرف أنها كانت خطرة للغاية على الآخرين، لكني أجبر نفسي على الابتسام وموافقتها.

بعد أن اتصلتْ بممرضة لترافقني، أقول لها: «أختي جاءت لزيارتها أكثر من مرة هذا العام. هل جاءها زوار آخرون؟ لو أن هناك من زارها فأنا أود أن أعرفه لأشكره إن كان هذا ممكنًا».

أحاول أن أمثِّل دور الابنة الحزينة، لكن شعور الفضول كان هو الطاغي. أحاول استيعاب أنني هنا، في المكان الذي عاشت فيه أمي لآخر خمسة وثلاثين عامًا من حياتها. حتى لو أمضى واحد من العاملين حياته المهنية كلها في هارتويل، ستكون إقامة أمي أطول. خاطر غريب. كان هذا هو كل عالمها، ويا له من عالم محدود الآفاق. ماذا كانت تفعل حين تفكر فينا؟ هل فكرت فينا من الأساس؟ هل اهتم أحد خارج الوحدة بما حدث لها؟ هل كان

لديها أصدقاء آخرون؟ كم هو غريب أن تعيش كل هذه الفترة هنا وحدها حتى جاءتها فيبي. لا يوجد ما يقال حقًا.

تقاطع موظفة الاستقبال خواطري قائلة: «حتى نصلح العطل، لا يمكنني أن أخبرك، لكني سأكتب ملاحظة بأن أتصل بك حين نحصل على هذه المعلومات. الممرضة ويبستر ستتصل بك على أي حال. هل يمكنك أن تستكملي هذه الاستمارة؟».

تدفع نحوي الاستمارة وقلم حبر وهي تردف: «حتى أستطيع تسجيل دخولك».

بمجرد أن ملأتُ الاستمارة، ظهرت المرأة الضخمة جولي وهي تسير نحوي وتحييني، ثم تصحبني إلى عنبر شجرة التفاح. تأخذني في جولة عبر المكان وتشير لي إلى صالة الألعاب الرياضية بالخارج، وتضيف أن هناك حجرة أخرى مخصصة للرياضة بالداخل، لكن الهواء الطلق أكثر فائدة للنزلاء. في الحقيقة أشعر أنني أجول وسط مدرسة أو أكاديمية وأننا سنرى في أي لحظة أحد التطبيقات العملية لحصة كيمياء.

فقط حين دخلنا عنبر شجرة التفاح شعرت بأطراف أصابعي تتجمد، وبتسارع دقات قلبي.

أسأل جولي وهي تقودني إلى عمق المبنى: «هل كنتِ تعرفين أمي؟».

- بالطبع. الجميع كان يعرف باتريشيا. لقد انضممتُ إلى فريق العمل بالوحدة منذ ثمانية أعوام، والنجاح في اختبار قبول باتريشيا كان يُعد اختبار شخصية معتمدًا، إن رُقتَ لها فأنت تصلح. هذا ما قالته لي ديبي وقتها، وما أثبتت الأيام صحته.

أعقد حاجبيَّ قليلًا وأسألها: «لكن أمي كانت مصابة بالجمود العضلي، أليس كذلك؟ كيف تعرفون إن كان أحدهم يروق لها؟».

- ثقي بي، فكل مريض مهما كان منغلقًا على نفسه - مثلما كانت والدتك أحيانًا- له طريقة في إظهار محبته أو كرهه لمن حوله. يظهر هذا في استجابتهم لمحاولات الممرضات لتغيير ملابسهم مثلًا، فهم قادرون على جعل عمل كهذا مستحيلًا إن لم تعجبهم الممرضة.

- مثلما كانت والدتك أحيانًا؟ ماذا تعنين؟ هل كانت تفيق من وقت إلى آخر؟

تهاوت أمي أمامي حين كنت في الخامسة، كما أذكر بالطبع، ولم تستجب لأي محاولات للتواصل معها من وقتها. ظنوا في البداية أنها أصيبت بجلطة، وقد أخبرتني فيبي بأنها لم تكن تتحدث حين زارتها.

- كانت تفيق إلى حد ما. حالة والدتك كانت معقدة، ولم يناسبها أي توصيف طبي، وهذا شأن أغلب المرضى بالمناسبة. كانت تمر عليها أوقات طويلة يكون عقلها فيها حاضرًا، لكنها تختار ألا تتكلم. كانت كذلك ضعيفة جسديًّا بسبب قلة الحركة، لكن في أوقات متفرقة كانت تسير دون حاجة إلى كرسي متحرك، فقط تستند إلى عكاز.

أمي كانت تتحرك؟ لم تعانِ من شِبه موت مخي؟ الماضي يعيد كتابة نفسه. عقلي يدور حول نفسه ونحن نقترب من حجرة بعينها. حجرة أمي. أتردد في تجاوز عتبة المكان في البداية، لكن الفراش كان مرتبًا والأدراج خالية من أي متعلقات.

تقول جولي بصوت هادئ: «لم يكن لديها الكثير من الأغراض. فقط ملابسها وأدوات النظافة الشخصية. كان المذياع يزعجها، فأخرجناه. لقد كانت تحب الهدوء».

أنظر إلى داخل الحمام المرفَق بالحجرة، وأرى مكان المرآة فوق الحوض خاليًا.

أسأل بحلق جاف: «هل كانت هذه المرآة هي...».

في عقلي، أراها تقف هنا بصورتها أيام طفولتي، عيناها حمراوان وشعرها مُدهن، تضرب رأسها بغضب في المرآة.

تقول جولي متألمة: «أجل. كلنا شعرنا بالجزع حيال ما حدث. لم تكن هناك أي إنذارات. كانت تعاني الأرق لكن هذا لم يكن مؤشرًا أنها ستؤذي نفسها. هي امرأة ذات روح هادئة مسالمة. ربما لا تستطيعين تصديق هذا نظرًا إلى ما حدث في طفولتك، وهذا طبيعي تمامًا. لكن رغم خللها النفسي، كانت رقيقة ولم تفعل أي شيء مؤذٍ طيلة عشرين عامًا».

- وهل فعلت ما يؤذي قبل العشرين عامًا؟

كل هذا يبدو لي غير حقيقي. خواء حياة أمي يمتلئ بمقتطفات من الزمن.

- ليس إلى حد ما حدث مؤخرًا، فقد حاولت طعن نفسها مرة قبل أن ألتحق أنا بطاقم المستشفى بزمن على ما يبدو. في الحقيقة، كان

نظام الوحدة مختلفًا تمامًا وقتها، نظام غير مُحكم، فلم يعرف أحد كيف استطاعت الحصول على شظية الزجاج تلك. لحسن الحظ أنقذتها الممرضات في آخر لحظة، ولم تكن إصابتها بالغة.

أنظر مرة أخرى إلى الجدار الخالي من المرايا، ورغم أني أبعد ما أكون عن الشعور بالشفقة تجاهها، أتساءل كم كانت يائسة حين ضربت رأسها بهذه القوة. ولماذا ظلت هادئة طيلة عشرين عامًا؟ لماذا الآن؟

الفكرة تصيبني بالقشعريرة.

لماذا الساعة الواحدة وثلاث عشرة دقيقة؟ ولماذا استيقظتُ وقتها بالضبط شاعرة بالخوف والذعر؟

تقول: «دعيني أريكِ قاعة العلاج بالفن. كانت تقضي وقتًا طويلًا هناك. أعتقد أنها كانت تجد المكان مريحًا».

سعدت لمغادرة الحجرة الخالية. لا أريد أن أتخيلها راقدة على تلك الحشية ليلة بعد ليلة طيلة هذه الأعوام. لقد كنت أتصورها منفصلة عن العالم، يقلبونها ويحممونها، لكني الآن أعرف أن هذا لم يكن الواقع. لم تخبرني فيبي هذا وقد ترددت على المكان عدة مرات. هل كانت أمي واعية خلال تلك الزيارات؟ لماذا لم تخبرني أختي؟ هل كنت أريد أن أعرف معلومة كهذه؟ للصراحة، كلا. لكن كل ما ظننته واقعًا لحياتها، يتغير. والعالم يترنح من حولي.

المرة الأولى التي أرى فيها أي مرضى، حين وصلنا إلى القاعة حيث دروس الفنون، هناك ثماني أو عشر نساء من أعمار مختلفة، يُركزن على القطع الفنية أمامهن، وموسيقى بوب خفيفة تملأ الأرجاء.

ترفع عينيها نحونا امرأة ذات شعر رمادي مضموم إلى خلف رأسها، ويحيط برقبتها عُقد ثقيل من الخرز. كانت تحمل بطاقة تعريف معلقة على صدرها، لكن حتى من دون بطاقة التعريف فطنت إلى أنها المُعالِجة بالرسم.

تقول جولي: «باتريشيا أحبت هذا المكان. لأكون صادقة، كلنا نحب هذا المكان. هذه هي أكثر قاعات المبنى هدوءًا».

تطل ممرضة أخرى من الباب وتهتف: «جولي؟ هل لي في كلمة؟ لدي مشكلة في حجرة رقم ستة».

تنظر إليَّ جولي معتذرة وتقول: «ألقِ نظرة على المعروضات، بعضها رائع بالفعل».

ثم تخرج. في خجل، أدور في القاعة مُتسائلة عن مكان جلوسها، وعما إذا كانت قد رسمت أي شيء، أو حاولت رسم ابنتيها. أتذكر رسومات ويل على الجدران. هل حُكم عليه الآن أن تطارده تلك الليلة طيلة حياته؟ هل أخبرته فيبي؟ هل سمعها بالصدفة؟ ألقي نظرة نحو المنشغلات في أعمالهن الفنية. كلهن يعانين، كلهن مُختلات. هل أنا أشبههن؟

فجوات الزمن تلك... ماذا فعلت خلالها؟ هل كنت أقف جوار فراش ابني؟ هل كُتِب عليَّ أن أكرر أخطاء الماضي؟ عيد ميلادي يقترب، وأنا منهَكة. *هل سأُجن وأنهار مثلها؟*

قال صوت: «لستِ المرأة التي جاءت من قبل».

أفزعني الصوت، ألتفت فأرى امرأة ذات وجه مترهل، وجيوب تحت عينيها، وشعر أسود مختلط بالرمادي. ثمة طاقة ما تنبعث منها وهي تنقل وزنها من ساق إلى أخرى. ربما هي طاقة القلق. أصابعها ملوثة بالألوان، وثمة لطخة بلون أبيض على قميصها الرياضي الثقيل. لم تكن تحمل بطاقة تعريف، ففطنت إلى أنها واحدة من المرضى، واحدة من رفيقات أمي.

أقول لها: «معذرة؟».

تتفحصني عيناها وهي تقول: «ابنتا باتريشيا. أنت تشبهينها أكثر من الأخرى. العينان نفسهما. أنا ساندرا».

تبتسم فتفاجئني سلامة أسنانها. ربما هي ليست مسنة كما يبدو عليها.

تضيف: «الأخرى كانت مختلفة».

لم تعد جولي بعد، لكن المعالِجة والممرضة في الحجرة لم تبدوَا قلقتين بشأن حديثنا، ولم أجد سببًا يدفعني إلى القلق. طيلة تلك الأعوام كنت أظن أمي محبوسة في مصحة للمجانين الخطرين، وصار عسيرًا أن أتكيف مع كون هؤلاء النسوة مثقَلات مكروبات لا أكثر.

- تتحدثين عن أختي فيبي؟ أجل. نحن مختلفتان.

يغيم وجه ساندرا، ثم تنظر إليَّ مجددًا وتقول: «هل تريدين رؤية لوحاتي؟».

- بالتأكيد؟

لوحاتها تحتل زاوية بأكملها من القاعة، بعيدًا عن لوحات باقي المجموعة.

- دائمًا ما كنا نحتفظ بمكان لباتريشيا جوار مكاني. اعتدت أن أناديها باتسي، على اسم الشخصية في مسلسل «رائعة للغاية»[1]. أحب هذا المسلسل. كانت تحب مشاهدتي وأنا أرسم حتى في الأوقات التي كان عقلها يغيب فيها.

تشير إلى جانب رأسها وتردف: «أيًّا كان المكان الذي كانت تغيب فيه. بالتأكيد هناك مكان لعين ما، لكنه ليس هنا. لا أظن أنها كانت تحب هذا؛ كان وجهها يتغير ويصير أكثر صرامة ووجومًا. أتعرفين؟ كنت أسعد للغاية حين تعود إلينا».

أعرف تمامًا ما تعني. أتذكر هذا الوجه الصارم الواجم حين تحدق أمي إلى الفراغ. حدث هذا في تلك الليلة حين فتحت باب الخزانة بالأسفل.

تخرِج ساندرا لوحة من أحد الأدراج وهي تقول: «انظري».

كانت ترسم على اللوح الخشبي مباشرة، لا مثلما يرسم ويل على الورق بالألوان. فوجئت بجودتها. كانت تحوي رسمًا لأزهار وفراشات ملونة.

تقول ساندرا: «أنا أحب الصيف. أعتقد أن عقلي سيكون أكثر اتزانًا لو امتد الصيف طيلة العام. أتعرفين ما أعنيه؟».

- أجل. أعتقد هذا. لا أعتقد أن أمي كانت ترسم.

- ليس بالضبط.

ترمقني بنظرة جانبية كأنها تشاركني سرًّا.

ثم تضيف: «أنا لم أعرض على الأخرى شيئًا. ماذا كان اسمها؟ فيبي؟ لم أحبها: لكني سأريك يا إيما».

- شكرًا لك.

أعقد حاجبيَّ وأسألها: «كيف عرفتِ اسمي؟».

أنا واثقة أن جولي لم تذكره، على الأقل في هذه القاعة.

تجيب ساندرا وهي تبحث في الدرج: «الأخرى، فيبي، كم هي ماكرة! لم تكن تعرف أنني قادرة على قراءة الشفاه».

---

(1) Absolutely Fabulous مسلسل كوميدي بريطاني عُرض خلال عامَي 2011-2012

- معذرة، لا أفهم.

ما علاقة قراءة الشفاه بفيبي؟

- أمور حدثت وأنا صغيرة. لا أتحدث عنها.

فجأة بدأت تجذب خصلات شعرها ثم تنظر خلفها شاعرة بالذنب، متوقعة أن تُلام على هذا الفعل، لكن لم يكن أحد ينظر تجاهنا.

تردف: «لكن تلك الأمور أجبرتني على تعلم قراءة الشفاه».

- يمكن بالطبع ألا تخبريني عنها. لكن ماذا تقصدين بقولك إن فيبي ماكرة؟

- كانت تبتسم كثيرًا وهي هنا، وأنا لا أثق بمن يبتسمون كثيرًا في أثناء زيارتهم. هذا ليس متنزهًا لعينًا.

أضحك، فتبتسم لي قبل أن تتجهم مرة أخرى وتضيف: «جلَسَت هنا، وأمسَكَت بيد باتريشيا متصنعةً الهدوء والاهتمام، لكني كنت أراقبها. بدت لي أنها تحكي لها عن العالم بالخارج. كانت تحكي ما لن تفهمه باتي أو تهتم به، فضلًا عن كونها لم تكن تعرفها على الأرجح. أنتما لم تملآ صفحات دفتر الزائرين بزياراتكما».

تنظر إليَّ وكأنها تتوقع أن أدافع عن نفسي، لكني لم أجادلها.

تكمل: «عمومًا هي لم تكن واعية أغلب الوقت بما حولها. لكن على أي حال، ظلت فيبي تلك تمسك كفيها وتبتسم، حتى ظنت الممرضات أن الشمس ستشرق من مؤخرتها النحيلة كونها جاءت إلى هنا وسامحت المرأة المسكينة. كانت تتحدث طيلة الوقت، وكنت أرى ما تقول: *أيتها العاهرة، أتمنى لو أنكِ مُت. لن أسامحك أبدًا. أكرهك.* وكان هذا هو أرقُّ ما قالت لها. كانت هناك كلمات أخرى أكثر قسوة».

أحدق إليها وأنا أسأل: «فيبي؟ كانت تقول كل هذا؟».

تومئ ساندرا وهي تقول: «أنا سعيدة أنها لم تعُد مرة أخرى. من حسن حظها أننا لا نستخدم سوى أدوات المائدة البلاستيكية لأنني كنت سأؤذيها لو أنني رأيتها هنا مرة أخرى».

- هل أخبرتِ أحدًا بما عرفتِ؟

تنظر إليَّ كأنني أنا من أستحق الحبس لاقتراحي شيئًا كهذا. تخرج ورقة من الدرج، فيتضح لي أنها لوحة مطوية مخبأة.

تقول: «هي ليست لوحة، ولهذا لم أرِها لأي شخص، ولا أعتقد أنها كانت ترغب في أن يراها أحد. أنا حتى لم أرَها وهي تصنعها، فقط وجدتها في الدُّرج بعد أن رأيتها تبتعد على كرسيها المتحرك لتواجه النافذة».

تناولني الورقة، وبقلب متواثب أفضها. تتهدج أنفاسي وأنا أرى الحروف الخشنة التي تشبه العناكب، لكني ميزت حروف اسمي تتكرر وتتكرر بحروف مهتزة كبيرة حتى ملأت الصفحة. بعض الكلمات قد تداخلت حروفها، وبعضها كان مجرد خدوش بلا معنى.

إيما. إيما. إيما.

قالت: «هكذا عرفتُ اسمك. لا بد أن تكوني إيما».

- متى كتبَت هذا؟

أسألها وأنا أحدق إلى اسمي. إيما. آخر كلمة سمعت أمي تنطق بها.

تصمت ساندرا لبرهة، وتلوك شفتها السفلى، ثم تجيب أخيرًا: «في اليوم الذي سحقت فيه مخها. لا بد وأنكِ كنتِ في بالها».

يدور العالم بي مجددًا.

تدخل جولي مبتسمة وهي تقول: «معذرة. لقد تركتك تجولين وحدك طويلًا. آه، هل ترافقك ساندرا؟ هي تراعي راحة الآخرين كثيرًا. والآن، أين توقفنا؟ يمكن أن أريكِ...».

- في الواقع، يجب أن أرحل الآن.

أقولها وأنا أطوي الورقة داخل كفي المبللة بالعرق. ساندرا لم تطالب بها، وأنا لا أعرف إن كنت أريد الاحتفاظ بها، أم إلقاءها في أبعد مكان ممكن، لكنني عجزت عن فك إحكام أصابعي حولها.

قلت: «ما أرى قد غمرني بالمشاعر».

ولم أكن أكذب. المشاعر تسحقني.

- بالطبع، أتفهم ذلك. سأقودك إلى الخارج.

أنظر خلفي إلى ساندرا، ويداي ترتجفان مرة أخرى.

أقول: «شكرًا لك. لوحاتك رائعة، مبهجة. أود لو أشتري واحدة».

تشيع ابتسامة صادقة في وجهها، ثم تعود إلى لوحاتها. أتبع جولي حتى الممر بينما رأسي يدور ووجهي يلتهب.

حين غادرنا المبنى، أراحتني النسمات، ورحت أعب الهواء النقي مسرورة بابتعادي عن *هوائها*. ربما كانوا يفضلون فيبي بهدوئها وتحكمها في تصرفاتها عني وعن غرابتي وتوتري.

على الأقل هي زارت أمها قبل وفاتها، بل وسامحتها.

-41-

أحاول التماسك حتى أبتعد عن المكان. العرق البارد يغمر جسدي تحت ملابسي. بعد أن قطعت نحو ميل، أجد مكانًا يمكنني التوقف فيه على جانب الطريق، فأقف، وأشغل مكيف الهواء لتساعدني البرودة على تهدئة نفسي. غريب أن أوجَد في المكان الذي عاشت فيه أمي! غريب أن أرى أين كانت تنام وتأكل وتتواصل مع رفيقاتها على قدر استطاعتها. لكن لم يؤثر بي أيٌّ من هذا.

فيبي. فيبي القديسة اللعينة. *اذهبي وزوريها، ربما يفيدكِ هذا*.. أو أيًّا كان ما قالته لي. يا لها من مزحة كريهة. أخرِج هاتفي كي أتصل بها. الحنق يثير معدتي وأنا أسمع الاتصال، ثم تتحول مكالمتي إلى جهاز الرد الآلي.

أصيح بصوت متهدج غاضب: «سحقًا لك يا فيبي. لقد كنتُ في هارتويل وعرفت ما كنت تفعلينه هناك، وما كنت تقولينه متظاهرة بالبر والبراءة. أتظنين أنني مجنونة؟ ما خطبك يا فيبي؟ ماذا كنت تفعلين هناك؟».

كدت أغلق الخط، لكن غضبي استعر فأضفت: «وابتعدي عن عائلتي أو أقسم بالله سأقتلك».

ألهث في سيارتي وأتساءل عن مكانها الآن. في العمل؟ في بيتي؟ أتذكرهما يتعانقان في المطبخ، هل كانت حقًّا تواسيه؟

أتصل بروبرت وأنا أتحرك بسيارتي. لن أنتظر أن يبادر هو. ربما هو لا يحبذ وجودي في المنزل، لكني لا أحبذ وجودها هناك كذلك.

لقد استبدلتُ فيبي بأمي في عقلي، وصارت هي الجديدة، وامتلأ عقلي بأختي الكبرى بدلًا من أمي الميتة.

أخيرًا يرد روبرت: «مرحبًا. لا أستطيع الحديث معكِ الآن، لكن...».

- هل أنت في المنزل؟ هل فيبي هناك؟

كنت حادة للغاية، هيستيرية، لكني لم أقدر على السيطرة على نفسي.

- كلا. أنا في المتنزه مع ويل. سأتصل بك لاحقًا، أو في الغد. الوقت ليس...

- أنا لا أريدها في بيتي يا روبرت. طمئني أنك لن تدخِلها إلى بيتنا. هي كاذبة. أعرف ذلك. لا أريدها أن تقترب من ويل...

أسمع نفسي، وأدرك أن لا شيء مما أقول مقبول، مجرد هذيان عقل مرتاب. أعرف أن عليَّ أن أهدأ وأتعقل، لكن لا أستطيع.

أتابع: «هي تفزعه، وتخبره بأمور...».

- كفى يا إيما.

يأتي صوته حادًّا متضايقًا، قبل أن يهدأ ويقول: «كفى».

هل ابتعد عن ويل؟ أتخيل ولدي الصغير يتساءل عما يحدث. يتساءل عن مكان أمه وعن سبب شجار والديه، ويتمزق قلبي.

قال روبرت: «ويل لا يخاف من فيبي يا إيما».

- أنت لا تعرف هذا. هو مجرد طفل صغير، وربما لا يود أن يخبرنا...

- هو لا يخاف منها. هو يخاف منك أنت. والآن، أنا لا ألومه.

يقول عبارته الأخيرة مشمئزًّا باردًا، وأشعر أن أنفاسي تنسحب مني.

أغلق الخط. ماذا أفعل الآن؟ هل أقود إلى المنزل وأنتظرهما؟ أريد أن أرى ويل. الحقيقة أنا أريد أن آخذه وأهرب. أهرب به من فيبي ومن أرقي ومن روبرت ومن كل ما يخيفني. هو يشعر بالمسافة بيننا، وهذا ما يقلقني عليه أكثر. أنا لا أشكِّل خطرًا على ويل، ولا أهتم بما يقولون عني، لكن هناك شعورًا قويًّا بأن هناك ما سيؤذيه ولا أستطيع إبعاد هذا الشعور عن عقلي.

مخاوفي الليلية تتسرب إلى نهاري كلما اقترب يوم عيد ميلادي. أنا على غير طبيعتي، لكني كذلك لست من يخيف ابني.

أرمي هاتفي في الرف بالأسفل، يملؤني الغضب والغيظ وأنا أقود السيارة عائدة إلى المدينة.

-42-

أقول: «ستنال مني، أنا متأكدة من ذلك. لطالما كانت تغار مني منذ كنا طفلتين».

تقول كارولاين: «لماذا لا تجلسين؟ رجاءً. يجب أن أرسل بعض الرسائل الخاصة بالعمل».

تفاجأت (أم أنها صُدمت؟) حين رأتني عند عتبة دارها مرة أخرى، أحمل معي سمكًا ورقائق بطاطس وزجاجتَي نبيذ. أستطيع ان أرى المفاجأة على وجهها، لكنها سمحت لي بالدخول بينما أغمغم معتذرة عن عودتي السريعة.

أقول: «لا أستطيع أن أجلس، أعصابي مشدودة للغاية».

أجرع جرعة أخرى من النبيذ، وقد كدت أنهي كأسي الأولى خلال الخمس دقائق التي مكثتها هنا وأنا أشكو من فيبي وما فعلته في هارتويل.

انتظرت حتى أنهت إرسال رسائلها وتركت هاتفها المحمول، ثم جلست وفضَّت واحدة من علب الطعام.

أكمل وأنا أحدِّث نفسي أكثر مما أحدِّثها، وأصب النبيذ في كأسي: «لا أصدق كيف لم أرَ هذا من قبل. هي لم تزر أمنا بدافع التسامح. كيف خُدِعتُ؟ لأنها كانت بارعة في إشعاري بالذنب دومًا منذ تلك الليلة المؤلمة. لا أعرف ما كانت تخطط أمي لفعله بي بعد خنق فيبي، لكن أختي لم تغفر لي أنني لم أكن أول مَن حاولَت خنقه، حتى رغم أنني مَن أنقذها... أو على الأقل لولاي ما توقفت أمي عن محاولة قتلها. لقد كنت في الخامسة وكان يمكنني أن أهرب لكني لم أفعل. لقد صعدت كي أصحب فيبي معي أولًا، وهي لم تعترف قط بهذا».

أنظر إلى كارولاين في انتظار رد، ثم تقول في النهاية: «أحيانًا ما يكون التصريح بأمر كهذا صعبًا، ربما شعرَت بالحرج بسبب مشاعرها السلبية تجاهك».

- تتكلمين كاختصاصية نفسية.

- أكملي. أخرجي كل شيء من صدرك.

وكأنني كنت أنتظر تشجيعها.

أنطلق فأقول: «في البداية كان هذا الأمر، ثم لحقه شعورها بالغيرة لأن عائلة لطيفة قد تبنتني بدلًا منها حين كنا في دار الرعاية، مما جرحها بالطبع، لكن لم يكن ذنبي أن أحدًا لم يُرد تبنيها. لقد كانت متقلبة المزاج، دائمة الغضب، بالإضافة إلى سنها، لكن أيًّا من هذا لم يكن ذنبي. لقد تغيرت حياتانا، لا حياتها هي فقط. الفارق بيننا أنني عملت بكد لأحصل على كل ما لدي، بينما فيبي لم تحاول فعل أي شيء لتحسين حياتها. ثم جاءت مشكلة روبرت، وقد قالت وقتها إنها لا تهتم به وكانت تمزح بشأن علاقتنا دومًا».

تنظر إليَّ كارولاين متسائلة: «مشكلة روبرت؟».

- الأمر يبدو أسوأ مما كان بالفعل، لكن فيبي كانت تعرف روبرت قبل أن أعرفه أنا. أعني أن علاقتهما كانت واهية، لكنها واعدته أولًا مرة أو مرتين، ولم تنشأ أي علاقة جادة بينهما.

أتوقف عن السير عبر أرجاء الغرفة، وأرشف النبيذ، ثم أميل مستندة إلى الطاولة وأقول: «لكن السؤال الأهم بالنسبة إليَّ، لماذا الآن؟ لماذا ظهرت فيبي فجأة وانتوت أن تؤذيني؟ ثم فطنت إلى أنني وفيبي أمضينا عمرينا قلقتين من أن يحدث لواحدة منا ما حدث مع أمنا، ويتكرر الماضي مرة أخرى. الجنون في دمنا، هذا ما كانت تقوله أمنا. لقد انتهى المطاف بخالتها الكبرى في مصحة عقلية، وكانت تردد دائمًا أنها ستُجن مثلها. لكن ماذا لو جُنت فيبي عند بلوغها سن الأربعين؟ لقد اختفت وبالكاد كنتُ أعرف أخبارها منذ هذا الوقت. ماذا لو أن كل ما حدث هو تنفيذ لخطة كانت تعتمل في عقلها؟ كيف أتأكد من أنها لم تخنق أمنا؟ آخر مرة رأيت فيها فيبي يومها كانت برفقة ممرضة، تخرجان من المستشفى، وقد أخبرتني بأنها ستعود إلى بيتها لفترة، لكن ماذا لو لم تنصرف؟ ماذا لو أنها انتظرت حتى رأتني أغادر ثم انتهزت الفرصة وقتلت أمنا بنفسها؟».

- لكن يا إيما...

تتسع عينا كارولاين، لكني أقاطعها: «ألا ترين هذا معي؟ بهذه الطريقة سأبدو أنني أنا من قتلها. فوق كل هذا، أضيفي ما قالته لأمنا في هارتويل. يجب أن أتصل بالشرطة ليعرفوا أن هناك مشتبهًا به غيري».

تقاطعني كارولاين: «ها قد عاد محامي الشيطان مرة أخرى. ما لديك لا يتعدى شهادة رفيقتها. هل تعرفين أي شيء عن حالة ساندرا العقلية؟ هل تهلوس مثلًا؟».

- لا أعرف. لكنها بدت طبيعية. لماذا قد تكذب؟

- الهلوسة ليست كذبًا. ربما هي تؤمن أنها رأت ما رأت فعلًا، ولو أنها كانت متعلقة بأمك، فربما شعرت بالغيرة حين ظهرت ابنتها. أنا لا أجزم أن الأمر لم يحدث كما حكت هي، لكني فقط أشير إلى أنها ليست أفضل الشهود. الأفضل أن تنتظري حتى يحصل دارسي على أدلة مغادرة المستشفى، ومن ثم يُبرئ ساحتك.

شعرت كأنني كرة فارغة من الهواء حين أدركت أن لديها حقًّا. تردف هي: «وكنت قد سألتك إن كنتِ تظنين أنها خرقت إطار سيارتك، لكني أظنها خطوة بعيدة عن تصرفات أخت غيور غاضبة».

- ماذا لو أنها تحاول إثارة عائلتي ضدي؟ ماذا لو أنها تؤذيهم؟

- وماذا لو أنها لا ولم تحاول؟ وهو الافتراض الأكثر منطقية.

تتناول شريحة بطاطس وتضيف: «أنت تحتاجين إلى نوم جيد. لا يمكن أن تتخذي أي قرار اليوم. هي لن تؤذي عائلتك، ولمَ قد تفعل؟ هي عائلتها أيضًا. أنت تخوضين طريقًا مظلمًا وتحسبين أنها قادرة على فعل أي شيء. أنت أخبرتِني بأنكِ تركتِ لها رسالة صوتية تعربين فيها عن غضبك. هذا كافٍ الآن».

تنظر إلى كأسي التي فرغت مرة أخرى، ثم تسألني: «ألن تقودي السيارة في طريق العودة؟».

أغمغم: «سأركب سيارة أجرة. أو سأمشي... أو سأنام خارج منزلك».

- لا تكوني سخيفة...

تصمت لحظة، ثم تكمل: «لستِ في حالة تسمح بأن تظلي وحدك. يمكنك أن تبيتي هنا الليلة».

أشعر أن عرضها مُتردد، لكن فكرة أن أمضي الليلة مع كارولاين، داخل منزلها، هدأتني كثيرًا.

- شكرًا لك.

أقولها وأنا أشعر بالحرج من الدموع التي تهدد بالانسكاب خارج عينيَّ.

- سأكون أفضل في الصباح. لقد كان أمر ما عرفت صدمة عنيفة.

- لنشرب كوبين من الشاي، ثم أخلد أنا إلى النوم، فأنا سأعمل بدلًا من زميلة غدًا. عليك أن تحاولي النوم أيضًا.

تناولنا الشاي، ووصلتني رسالة من دارسي يخبرني فيها بأنه لم يتوصل إلى أي شيء. بعدها تبعتها إلى الطابق العلوي وانتظرتها في الحجرة الإضافية حتى تستحم سريعًا قبل أن أستخدم حمام ذوي الإعاقة الجسدية وأنظف أسناني بإصبعي لتنتعش أنفاسي قليلًا. حين خرجتُ كانت في انتظاري في الممر.

قالت: «لدي بعض الكتب في الحجرة الخلفية لو احتجتِ إلى ما تقرئينه. لا تعبئي بالفوضى هناك. كنت قد عزمت أن أنقل كل هذا إلى المتاجر الخيرية، لكنك تعرفين كيف تسير الأمور. ليس لدي وقت. ستجدين أغلبها روايات جريمة، أو روايات اجتماعية مُسلسلة من كتابة باربرا تايلور برادفورد. كلها كانت ملكًا لأمي».

- شكرًا. أراكِ في الصباح.

بعدها تدخل حجرتها، ورغم أني لست واثقة أن القراءة ستساعدني، أقرر استعارة كتاب من باب المجاملة، فقد كنت غريبة التصرفات بما يكفي.

الحجرة المقصودة عند نهاية الطرف الآخر من الممر، كانت باردة لأن التدفئة المركزية لا تعمل. أشعر بالذنب لأنني لم أحمل هم فواتير التدفئة منذ وقت طويل.

أرى صناديق مكوَّمة في كل مكان، في واحد منها صور مؤطرة مع بعض اللوحات الصغيرة والتحف والدمى الخزفية وتماثيل الحيوانات الزجاجية. هم لا يروقون لي كذلك، لكن شيئًا فيها أراحني وبث الدفء في قلبي.

كم هو عظيم أن تحبك أمك وتحبها، وتشاركها كل تلك الصناديق المفعمة بالذكريات. للحظة أشعر بأصابع أمي الباردة الجافة تقبض على رسغي في المستشفى، وأتذكر بريق عينيها إذ انفتحتا. ماذا رأت في تلك اللحظة؟ هل رأتني؟ هل رأت أي شيء من الأساس؟

أرتجف وأنا أستدير نحو كومة الكتب المستندة إلى الحائط. أغلبها مهترئة الأغلفة، على الأغلب قد اشتروها من المتاجر الخيرية، والآن ستعود إليها مرة أخرى. هناك عدة روايات لِولبور سميثز، وشيرلي كونران، والكثير من روايات الجريمة. أختار رواية لإيان رانكين، فهو الوحيد الذي قد سمعت به.

أغلق المصباح وأعود إلى حجرتي. الموجودات وظلالها تُشعرني كأنما عدت طفلة في الخامسة مرة أخرى. المكان يشبه منزل أمي، فأهرع عبر الممر عائدةً، وأسعد لمرأى بعض الضوء. ربما تساعدني القراءة في تهدئة عقلي ومن ثَم أتمكن من النوم قبل الفجر، لكن ما إن أندس تحت الأغطية حتى أشعر بدقات قلبي تستعيد وتيرتها المُتنبهة، الساهدة، القلقة.

ما زال الوقت مبكرًا، فأفتح الكتاب عازمة على التركيز. وأبدأ القراءة.

بحلول الحادية عشرة مساءً، كنت قد قرأت خمسة فصول. تضيء شاشة هاتفي حيث وضعته على الكومود جواري، وصوت أزيزه يجعلني أنتفض.

أرى اسم المتصل، فتنعقد معدتي. *ها نحن ذان قد بدأنا.*

يأتي صوتي هادئًا حين أقول: «فيبي».

اكتفيت من الهيستريا اليوم. أنا لا أعرف بعد ما هي خطة أختي، لكن كارولاين مُحقة. يجب أن أتحكم في مشاعري حتى أبرئ ساحتي.

تقول بصوت بارد كالثلج: «لا أعرف ماذا تقصدين بالرسالة التي تركتِها على جهاز الرد الآلي، لكنها لم تقنعني بسلامة عقلك. لا مبرر لرد فعل من هذا النوع».

- لا تقلبي الطاولة عليَّ...

- أنت على غير ما يرام يا إيما. لقد أخبرَت سكرتيرتك الشرطة بشأن الأرقام على مسجلك الصوتي. أرقام أمنا؟ بحق الله!

- الأمر ليس كما...

- الأمر ليس كما يبدو لي؟ ما هو التفسير إذًا؟ مما سمعت، فأنت تفقدين نفسك منذ دخلتْ أمنا المستشفى. كلا، أنت لا تفقدين نفسك، بل عقلك.

تطلق تنهيدة طويلة، ثم تضيف: «يجب أن تذهبي إلى مكان يساعدك على إعادة تأهيل نفسك».

- لقد ذهبت بالفعل، منذ طلب مني زوجي أن أبتعد عن بيتي.

لم تذكر قط ما ذكرتُه لها بشأن هارتويل، وما أخبرتني به ساندرا عن الفظائع التي قالتها لأمي. لقد تجاهلت كل هذا كأنها أمور تافهة. أنا أيضًا سأضع هذا النقاش جانبًا مؤقتًا حتى يتحسن وضعي، لكن هذا ليس اعترافًا بالذنب لو أن هناك ذنبًا.

أكمِل: «وبما أنك بهذا القرب من روبرت، فأنت بالتأكيد تعرفين هذا».

أتساءل إن كان الحمض الذي يقطر من لساني يحرق أذنها. إن كان كذلك، فهي قد تجاهلته أيضًا.

- أقصد أن تذهبي إلى مصحة حيث هناك من يراقبك حتى يمر يوم عيد ميلادك، وبخاصة مع كل تلك الاتهامات وارتيابك المجنون.

هي تقصد مستشفى مجانين. مكان مثل الذي ذهبت إليه أمنا، باستثناء أنه مخصص لمن لم يرتكبوا جرائم بعد. يشتعل وجهي. هي تتهمني صراحة بالجنون.

تضيف بهدوء: «سيكون هذا في مصلحة الجميع. في مصلحة عائلتك. لا تثقي بنفسك مؤقتًا. أعرف أنك لا تثقين بنفسك، لأني أختك يا إيما».

أصيح رغم قسَمي أن أظل هادئة: «سحقًا لك يا فيبي».

أغلق هاتفي المحمول وأرتكن إلى الوسادة الباردة، ويستعر غضبي.

-43-

أنا لست مجنونة. لا أمر بفترة ذهان. لست منفصلة عن الواقع.

أكرر كل هذا لنفسي وأنا أقرع الزجاج بأصابعي.

لست مجنونة. لست... مجنونة. لكني ما زلت أرِقة ساهدة.

أنا في الحجرة الخلفية، وتيار هوائي يتسلل عبر إطار النافذة القديمة وأنا أطل منها على الحديقة المظلمة بالأسفل.

كل شيء بدأ حين اتصلت بي فيبي من المستشفى. حقًّا؟ *ألم يبدأ من الليلة السابقة؟ في الواحدة وثلاث عشرة دقيقة حين ضربت أمك رأسها في المرآة واستيقظتِ ومن يومها لم تنامي جيدًا؟ أليس هذا هو الوقت الذي بدأ فيه كل شيء؟*

ليس منذ تلقيت رسالة فيبي.

تبزغ الأرقام في عقلي، وأغمغم بها مرات ومرات: «مائة وثلاثة عشر، مائة وخمس وخمسون، مائتان وثمانية عشر، مائتان واثنان وعشرون».

وأظل أرددها كتعويذة.

الجزء المتعقل من تفكيري يقول إن فيبي أختي، ونحن نحب بعضنا. فيقاطعه الصوت الهامس: *هل حقًّا نحب بعضنا؟ هل تحبك هي؟ لمَ قد تحبك؟ لقد استوليتِ على الشاب الذي جلبته إلى المنزل. الشاب الوحيد الذي سمحت له بذلك ولم تسمعي قط عن علاقة أخرى بعدها. أليس هذا غريبًا؟ أليس هذا غريبًا؟ ثم ظهرت هي، وبدأت حياتك تتسرب إلى المجارير، وتظل هي موجودة في كل موقف. شخص ما أخبر ويل بما حدث. شخص ما أراد إفزاعه.*

ربما أنت على حق. ربما جُنت فيبي حين بلغت سن الأربعين. ربما هي من قتل أمكما.

أعود عبر الممر، أغمغم بالأرقام، وتبدأ الأغنية في رأسي. يصعب التفكير مع كل هذه الضوضاء: الضوضاء، كلمات الأغنية، همسات أمي، فيبي، أنا. هذا المنزل القديم يدمج ماضيَّ بحاضري. أتوقف عند أعلى الدرج. لقد كانت بالأسفل، أسرع الخُطا وأتمتم مثل أمي.

لست مثلها. لست مثلها في شيء.

عامود الدرابزين ملفوف عند قمته، يشبه طرازه الطراز القديم الذي كان في منزلنا.

أهمس: «انظر.. انظر.. شمعة وكتاب وجرس».

هل توقفت أمنا عند نفس المكان في منزلها تلك الليلة مثلما تفعلين الآن؟ أشعر بكفها القوية تقبض على رسغي، وبالخشب المُلمَّع تحت أطراف أصابعي، وتمتزج كفانا. تُرى هل سأرى نفسي عند الدرج إن نظرت إلى أسفل؟ أغلق عينيَّ وأتنفس بعمق إذ يهدد الماضي بإغراقي بالذكريات في العتمة.

ندخل من الباب الخلفي، فيبي تهز المقبض العالق حتى ينفتح. ضوء النهار يتسلل فضوليًا للحظات. أعب الهواء النظيف سريعًا قبل أن تغلق فيبي الباب مرة أخرى ونهوي في كآبة المنزل النتنة. المنزل الذي نعتبره بيتنا.

أنظر إلى الأرض. ثمة محاولة غير جادة لتنظيف فوضى البيض المُهشم، لكن المنشفة المُستخدمة في رفع القشور ومحتواها الفاسد كانت ملقاة وسط الفوضى الضاربة في أرجاء المطبخ.

كانت فيبي تحاول تنظيف ما أمكنها، لكن دائمًا ما تتراكم زجاجات النبيذ والكحوليات الفارغة، والقهوة المسكوبة، والأدوات التي تخرجها أمنا بعشوائية من الخزانة ولا تعيدها إلى مكانها أبدًا.

ركن من المطبخ مملوء بزجاجات الحليب الفارغة من وقت كان عامل توزيع الحليب يمر على المنازل. لم يكن مسموحًا لي أو لفيبي أن نمسهم. تقول أمي إننا لو لمسنا واحدة فستقع الأخريات وتتهشم، ثم سترشق شظايا الزجاج في أقدامنا وسنعجز عن الذهاب إلى المدرسة. لا أعرف لماذا لم تعِد الزجاجات إلى موزع الحليب، فربما يعود ويوصل الحليب إلينا مرة أخرى.

تجذب فيبي كُمي وتشير إلى طاولة المطبخ. بطاقة عيد الميلاد الأربعين بعبارة «عيد ميلاد سعيد يا ماما» تقبع في المنتصف، ملوثة بالبيض الجاف. لكنها موجودة. ننظر إليها في أمل. هذا مما تسميه فيبي «علامة جيدة».

تنادي: «ماما. لقد عدنا. ماما».

ثمة ضوضاء في الصالة، أتقدم أنا أولًا. لا أتذكر أحداث هذا الصباح بدقة كما تتذكرها فيبي. أعتقد أن عامل السن هو السبب؛ كانت هي في الثامنة. على أي حال، لقد التقطت أمي بطاقتنا. هي تحبنا. اليوم سيكون يومًا لطيفًا. على الأقل ألطف من سواه.

تصر ألواح الأرضية الخشبية تحت قدميَّ، وأعقد حاجبيَّ. ثقتي تهتز. أمي جاثمة على أرضية الصالة جوار الخزانة أسفل الدرج، وظهرها نحونا. الباب مفتوح، وهي تحفر شيئًا بعنف على الضلفة من الداخل. رأسها يتحرك حركات لا إرادية دقيقة وهي تغمغم: «مائة وثلاثة عشر، مائة وخمس وخمسون، مائتان...».

فجأة تعي وجودنا، فتقف وتدور حول نفسها تغطي فتحة الباب، وتسقط المِنقلة المدرسية من يدها. تحملق فيَّ بعينين متسعتين أرِقتين. ورغم أني موقنة أن فيبي تبعد عني بضع خطوات، أشعر أن ما يفصلنا محيطًا.

تندفع أمنا أمامًا، وللمرة الثانية اليوم تنغرس أصابعها في ذراعيَّ، لكن هذه المرة بدلًا من أن تهزني، تجذبني إليها. كلا، ليس إليها... هي تجرني إلى الخزانة.

- لا يا ماما. أرجوكِ لا!

ينفتح فم الظلام أمامي، جائعًا، ثم يبتلعني بالكامل.

أظل هناك طويلًا.

المكان معتم، وأنا ألتصق بالحائط وركبتاي تحت ذقني. من مكان بعيد بالخارج أستطيع أن أسمع هزيم الرعد. أشعر بحكة في وجهي من أثر الدموع والعرق، أنفاسي لاهثة، سريعة، متقطعة. تمتد الساعات الطويلة منذ عدت من المدرسة لتصير سرمدية. رغم يقيني أن الخزانة صغيرة، أراها لا نهائية. محيط من العتمة يحيل كل شيء إلى ظلال حين أغلق عينيَّ.

لا أعرف أيهما يخيفني أكثر، الوحوش التي ربما تعيش هنا، أم والدتي هناك. أستطيع سماع صوت خطواتها في الصالة تروح وتجيء. أحيانًا تتوقف جوار الباب، فأتكور أكثر على نفسي.

أستطيع سماعها تغمغم: «مائة وثلاثة عشر، مائة وخمس وخمسون، مائتان وثمانية عشر...».

شيء ثقيل يهوي. زجاجة تسقط على البساط، فتتوقف عن الغمغمة. يسود الصمت طويلًا، فأحبس أنفاسي، ثم يدوي فجأة صوت فتح المزلاج، وينفتح باب الخزانة.

أمي تجثم عند مدخل الباب، ابتسامتها واسعة خلف ستار شعرها المُشعث. خلفها، المنزل رمادي مظلم وسط سكون الليل المميت. لا تتحرك إحدانا. صوت العاصفة بالخارج عالٍ كأنما باب انفتح في مكان ما بالمنزل. أكد استنتاجي شعوري بتسرب النسائم. ربما هو الباب الخلفي.

يضيء وميض البرق أمي. هي مبتلة تمامًا. عيناها غريبتان، خاويتان. تنظر إليَّ ولا تراني. تنظر إلى شيء خلفي. أعتقد أنها مرعِبة أكثر وهي على هذا النحو. كدت أتمنى أن تهزني مرة أخرى فأتأكد أنها أمي التي عهدتها.

تميل رأسها جانبًا، ثم تتحدث بصوت ناعم هادئ: «آه.. ها أنت ذا».

تقف وتدفع الباب مرة أخرى فينغلق، ويغرقني في الظلام. أعض على كفي كي لا أصرخ وأناديها كي تعود ولا تتركني هنا للأبد. أخشاب الأرضية تصر إذ تسير مبتعدة.

- عودي إلى فراشك.

أسمعها تصعد، ويئن الدرج تحت خطواتها بينما أنا مدفونة تحته. أسمع صوتها يعلوني وأنا أزحف نحو الباب. الظلام هنا أحلك من أن يُحتمل. أدفع الباب فينفتح بسهولة. هي لم تُعِد غلقه بالرتاج. يهدد قلبي بالقفز خارج صدري وأنا أزحف خارجة. أتخيل يدَي أمي تخرجان من الخزانة خلفي وتسحبانني إلى الداخل، فأضيع هناك إلى الأبد.

أرى الخدوش على الباب. أرقام أمي المميزة.

11315521822211315

لم يجذبني أي وحش إلى الداخل. أجذب الهواء الندي بالمطر إلى صدري، وهزيم الرعد يدوي عاليًا فوق رأسي. أقف. تجعد زيي المدرسي وتقرَّحت ساقاي. ثمة زجاجة نبيذ فارغة على البساط، وبعدها بقليل كأس فارغة.

أنظر إلى المطبخ فأجد بطاقة معايدتنا على الأرض مرة أخرى.

فيبي. هل صعدت أمي لترى فيبي؟ ملأني الخاطر رعبًا كنت أصغر من أن أستوعبه، كأنه كان جزءًا من حمضي النووي. إشارة تحذير للبقاء على قيد الحياة. رغم خوفي، ورغم توقي إلى الهرب في العاصفة والبحث عن السيدة اللطيفة وإخبارها أن أمي صارت غريبة مرة أخرى، كما فعلت فيبي من قبل، أرغم نفسي على الاقتراب من الدرج. فيبي بالأعلى. يجب أن أصل إلى فيبي.

أقبض على الدرابزين وأجبر نفسي على الصعود، أضع قدمًا أمام الأخرى عُنوة. ساقاي خدرتان من طول تقلصهما. ومضة برق بارد أخرى تفزعني فأقفز في مكاني. أنا في الخامسة ومرتعبة، لكن الصالة بالأعلى خاوية، ورغم ذلك أسمع ضوضاء، أصواتًا غريبة لا أفهمها تنبعث من أسفل، من حيث حجرتي أنا وفيبي.

أحدق إلى الكآبة أمامي وأنا أتمسك أكثر بالدرابزين. أنا عالقة، لا أدري ماذا أفعل.

أنادي: «ماما؟».

صوتي منخفض كأنني أحرك شفتيَّ فقط. لم يُجب أحد. أعب الهواء عبر فمي الجاف وأتقدم. أسمع شهقة. صوت مكتوم. تتسارع نبضاتي، حتى أصل إلى الباب فأشعر أن قلبي سينفجر. ليس قلبي فقط، بل جسدي بالكامل. ثم تنقطع أنفاسي. أنفجر إلى الداخل لا إلى الخارج وأحدق. الهواء يندفع خارج فمي، وأذناي تطنَّان كأنني تحت الماء.

أمي، جوار الفراش، تميل نحو فيبي وشعرها يتدلى على وجهها وهي تدفع وسادة إلى الأسفل، تخنق أختي الكبرى. كانت تلهث جراء المجهود، فيبي تقاوم بقوة. أسمع صوت ذعر مكتوم آتيًا من تحت الوسادة، وأرى ساقيها تضربان الحشية وظهرها يتقوس، ثم ترتفعان إلى الأعلى وتركلان. فيبي.

أخطو أمامًا. تصر ألواح الأرضية القديمة. يدور رأس أمي، وعيناها متسعتان مشدوهتان.

تهمس متفاجئةً: «إيما؟».

ينتصب ظهرها، ثم بغتة وبلا إنذار، تدور سريعًا في اتجاه واحد ثم تتهاوى أرضًا على البساط كأنما ماتت. كل ما أسمعه هو صوت انتحاب فيبي وأنفاسها المختنقة وهي تقوم متعثرة وتجذبني بعيدًا عن أمنا المتكومة الممزَّقة، ونخرج إلى المطر.

***

أصابعي تقبض بقوة على الدرابزين وأنا أدفع الذكريات إلى داخل صندوقها. أرغم نفسي على العودة إلى حجرة النوم. الساعة تقترب من الثالثة. يمكن أن أنام ساعتين إن حاولت بصدق، رغم شعوري بأن أحدهم قد اعتصرني.

أمر على باب حجرة كارولاين، فأراه مواربًا. تنتابني الرغبة العارمة في أن أطمئن عليها، أن أتأكد أنها في فراشها نائمة، وأن كل شيء في مكانه الصحيح، لذا أدفع الباب بسرعة.

هي مستلقية على بطنها، وذراعها تحت رأسها، نائمة بعمق واسترخاء. يدي تقبض على خشب الباب وكل عضلة في جسدي متقلصة، لكني أشعر أنني أفضل وأنا أراقبها. أتنفس ببطء، أشعر بالتحسن. ربما سأبقى أكثر.

***

أول ما أدركت، هو أنني عدت إلى حجرتي، وقدماي باردتان، وأسفل ظهري يؤلمني، لكن صدري دافئ. أنا أحتضن وسادة، وأميل نحو فراش خالٍ. شعري يتدلى أمام وجهي وأنا أحدق إلى الحشية على ضوء الفجر الرمادي.

أنا أحتضن وسادة!

أصرخ وألقيها في خوف إذ أدرك الواقع حولي. ماذا أفعل؟ كيف عدت إلى هنا؟ أنظر خلفي إلى الباب فأجده مغلقًا. أنا أغلقته ورائي كما هو واضح.

آخر ما أتذكر هو وقوفي عند باب حجرة كارولاين أراقبها. ذعر عارم يستحوذ عليَّ. أوه، كلا. لا يمكن هذا. عقلي ما زال مفعمًا بصورة ساقَي فيبي تركلان، وأكاد أهرع إلى غرفة كارولاين لولا سمعت صوت شخير عبر الحائط. أنهار على طرف الفراش، تتهدج أنفاسي ويغمرني شعور الراحة.

بعد لحظات، أتكور في الفراش وأنا أمسك بطرفَي الوسادة تحت رأسي. ممَّ أخاف بهذا الشكل؟ أشعر أنني مريضة. أعرف إجابة هذا السؤال. أنا خائفة من أن أكون قد آذيتها.

كلا، بل أخاف أن أكون قد خنقتها.

أخاف أن أكرر ما فعلتْه أمي بفيبي. ينبض رأسي. هل حقًّا أؤمن أنني قد أخنقها؟

هل يمكن أن أخنقها؟

-44-

يوم واحد حتى يوم عيد الميلاد

لم أنم مطلقًا، بل ظللت في الفراش، أخاف على نفسي ومنها. أنتظر حتى يتحول الفجر إلى نهار، ثم أقوم وأحضِّر إفطارًا لائقًا لكارولاين من البيض واللحم المجفف والطماطم، وأضعه بين شريحتَي خبز. كانت مأخوذة نوعًا حين نزلتْ وشمتْ الرائحة، ورأتني أنظف الأواني، لكنني قدتها إلى الطاولة حيث طبقها المفعم ينتظرها.

قالت: «ما كان عليكِ أن تحضِّري الإفطار».

أناولها شوكة وسكينًا وأقول لها: «هذا أقل ما يمكنني فعله لك، بالإضافة إلى أنك مُتعجلة للذهاب إلى العمل».

كانت هذه هي نصف الحقيقة. كنت أريد أن أقول لها: كنت مذعورة في *الليل من أن أكون قد خنقتك بالخطأ بينما كنت غير واعية، وإعدادي للإفطار ما هو إلا استرضاء لشعوري بالذنب.*

تردف كارولاين: «لماذا لا تذهبين وتتحدثين مع أختك اليوم؟ هي تعمل في حانة، أليس كذلك؟».

- أجل. حانة «هاند آند راكيت».

أتخيل وجه فيبي حين تراني في محل عملها. سنقذف بعضنا بالأكواب خلال ثوانٍ، وستأتي الشرطة وسأقع في المشكلات مجددًا.

- إذاً اذهبي وحاولي أن تنهي المشكلة. أنا واثقة أن كل هذا نتاج سوء فهم.

- لديك حق.

شعرت بالحرج إذ أزعجت كارولاين بهذياني ليلة أمس. لا بد أنني بدوت لها مختلة وأتعجب كيف لم تطلب مني الرحيل.

أقول لها: «ربما سأفعل».

أسمع صوت هاتفي المحمول معلنًا وصول رسالة على البريد الإلكتروني من ديبي ويبستر ممرضة هارتويل. يبدو أنهم قد أصلحوا نظام التشغيل. تذكر لي أن امرأة أخرى قد زارت أمي وأنها تريدني أن أرسل رقم هاتفي في حال أرادت التواصل معي. كتبت لها رقمي في فضول، لكني شعرت بخيبة أمل أن الرسالة لم تكن من دارسي.

إلهي، لماذا لم...

مجرد أن خرجت رسالتي إلى الأثير، رن هاتفي وظهر اسمه على الشاشة، فقفز قلبي إلى فمي.

يقول قبل أن أتفوه بالتحية: «أخبار جيدة. أنت في أمان. لقد ظهرتِ في الكاميرات وأنت تغادرين الساحة ولم تعودي عبر أي مدخل آخر. لو أن هناك قاتلًا، فلستِ الجانية».

تورَّد وجهي بالراحة، وقمت أسير في الأرجاء، نصف باكية، نصف ضاحكة. أنا لم أقتلها، وأيًّا كان ما حدث ليلة أمس فأنا لم أتسبب في أي أذى. الإمساك بوسادة ما هو إلا إمساك بوسادة لا أكثر، ولا يعني أي شيء، أليس كذلك؟

- أشكرك يا دارسي. شكرًا جزيلًا.

- يجب أن أرحل الآن، لكن إن احتجتِ إليَّ في أي أمر، راسليني. ولا تنسي أن نشرب البيرة معًا أي وقت. اتفقنا؟

- أجل، بالطبع.

- ممتاز. كم كان رائعًا أن أراك مجددًا يا بيبي سبايس.

ثم أغلق الخط.

أبتسم لكارولاين وأقول لها: «أُثبتت براءتي!».

- عظيم!

بدت عليها راحة عظمى، ولا ألومها.

- كان عليَّ أن أطلب منه أن يتحقق من صور فيبي كذلك.
- اذهبي وتحدثي إليها قبل أن تطوِّحي بالاتهامات في كل صوب. هي أختك.
- حسنًا، حسنًا.

لم تبدُ مقتنعة، فأضيف: «أعدك. وسأعود وأبلغك بالنتيجة».

أستدير لأغسل المقلاة. لم تؤكد عليَّ أنها تود أن تعرف النتيجة، ولم ترفض عودتي. سواء أرادت أم لا، هي صديقتي الوحيدة وسط كل هذا، ومنقذتي من البقاء وحيدة في غرفة الفندق.

أضيف: «لكن هناك مكانًا أود الذهاب إليه أولًا».

***

- ماذا تفعلين هنا؟

لم يكن هذا استقبالًا سعيدًا من زوجي.

أقول له: «لا تتفاجأ هكذا، فهذا بيتي».

يقول روبرت وهو يمسك الباب الأمامي ولا يفسح الطريق لأدخل: «بيتنا. تبدين في حال مزرٍ. هل نمتِ؟».

- وجدنا دليلًا قاطعًا على أنني لم أقتل أمي. لديهم تسجيل كاميرا لي وأنا أغادر المستشفى.

أحاول ألا أبدو عنيفة، لكن لا حيلة لي.

أردف: «لذا، لا داعي لأن تظن فيَّ هذا الظن بعد الآن».

لم يتغير تعبير وجهه وهو يقول: «هناك أمران، أولًا أنا لم أظن قط أنك قتلتِها، ثانيًا أنا عرفت بالفعل بأمر براءتك. اتصلت بي الشرطة في الصباح وقالوا لي إن دارسي سيخبرك».

- لكنك بالطبع سعيد. وهذا يعني أن في وسعنا...
- طلبي منك الرحيل لم يكن لهذا السبب، وبراءتك لم تحل أيًّا من مشكلاتنا، ألا ترين هذا؟

يحافظ على صوته منخفضًا ويخرج مواربًا الباب خلفه. أحاول أن أرى لمحة من ويل في المطبخ لكني أفشل.

يتابع: «هل تظنين أن براءتك ستمحو كل شيء آخر؟ ما زال ويل يرفض الحديث عن تلك الرسومات. حين سألته، وحين سأله المعالج النفسي عما يرسم، أجاب بكلمة واحدة: ماما. لماذا سيكذب يا إيما؟».

- لا أظنه يكذب، ولا أنا كذلك أكذب.

أصمت لبرهة، ثم تخرج الكلمات كالسيل وأنا أقول: «هي فيبي يا روبرت. لا بد أنها هي. كانت تقول إنها زارت أمنا كي تمنحها السلام، لكنها لم تفعل. زارتها لتشتمها وتسيء إليها. أخبرني شخص هناك بكل هذا».

يعقد حاجبيه ويسأل: «طبيب؟ لماذا سمحوا لها بالزيارة إن...».

- لم يكن طبيبًا، بل مريضة، لكن...

يقاطعني غاضبًا: «بالله يا إيما! أنصتي لما تقولين. أنت مختلة لدرجة أنكِ تصدقين ما يقوله لك المجانين».

- مجانين؟

ينتابني الغضب بالنيابة عن ساندرا، فأردف: «أنت تراعي الصوابية السياسية حقًّا. كن فخورًا بنفسك. أنت تعرف كما أعرف أن فيبي تغار مني، منا، من كل هذا. هل ترى أنني جُننت لأنني أقول إنها تريد أن تسلبني كل شيء؟ هي تعرف أنني قلقة بشأن ما حدث لأمي، وبشأن ما قد يحدث لي، وهي تلعب على وتر هذا الخوف. هي تدفعك لتصديقها، هي تفزِع ويل. ماذا لو أنها هي المجنونة؟».

أذرع الطريق وتتحول كلماتي إلى زمجرة وأنا أضيف: «أراهن على أنها لم تحمل همَّ أن تصدق كل هذا. أنا محامية يا روبرت. أنا أكثر من نعرفه تماسكًا».

- لقد كنتِ كذلك. لكن ماذا عن الأيام الماضية؟ أنت شخص مختلف، كأن شيئًا فيكِ قد تعطل. أما عن التصديق، فأنا أصدق ابننا يا إيما.

يردف بصوت خفيض: «بحق يسوع المسيح. أنا أحاول فقط أن أحميه. وأنا أحبك وأريد أن تُحل كل تلك المشكلات لأجل خاطري وخاطرك. لكن الأفضل أن تظلي بعيدة حتى يمر يوم عيد ميلادك».

لم تساند الريح أشرعتي، وقبضتاي تذكُران إمساكهما بالوسادة والوقوف جوار فراشي ليلًا دون أن يكون لدي أي فكرة كيف عدت إلى الحجرة. هو محق. ربما الأفضل أن أظل بعيدة حتى يمر يوم عيد ميلادي.

أقول له: «لا أريد أن تأتي فيبي إلى هنا».

ربما لا أثق بنفسي، لكني كذلك لا أثق بها. كلتانا نحمل الدم الفاسد ذاته.

أردفُ: «وأنا سأذهب وأخبرها بما أخبرتُك».

قال صوت: «ماذا يحدث؟ أوه. هذه أنتِ».

وجه كلوي كان عدائيًّا وهي تخرج من الباب وتردف: «سألحق بالحافلة. أراك لاحقًا يا أبي».

لم تتوقف أو تتمهل حتى، فأدير ظهري لروبرت وأتبعها منادية: «كلوي. انتظري، سأوصلك».

تقول: «ليس بعد ما حدث المرة السابقة».

- مهلًا. كلانا يعرف أن الخطأ لم يكن خطئي. على الأقل تمهلي ودعيني أكلمك.

أضطر إلى الهرولة كي ألحقها وأسألها: «هل أنهيتِ أمر جوليان؟».

لم ترد، وحدقت إلى الأرض بنظرة جامدة.

أقول: «لأجل الله يا كلوي. سأضطر إلى أن أخبر أباكِ. لا يمكن أن أخفي عليه الأمر إلى الأبد».

تنظر إليَّ أخيرًا وتقول: «لو أخبرتِه سأنكر. تُرى من سيصدق منا؟».

- يا له من قول.

لن أسمح لابنتي أن تحدِّثني بهذا الشكل.

أقول لها: «هل نجرِّب يا كلوي؟ ربما يبدو لك أن هذا ما سيحدث، لكن هذا سيكون في البداية فقط. صدقيني، ستراوده الشكوك».

تبتعد عني مرة أخرى، يفيض منها الغضب.

أمسك ذراعها لأمنعها وأقول: «أنا لا أريد أن أتشاجر يا كلوي. لست عدوتك. أنا فقط قلقة، هذا هو كل ما في الأمر».

ألقي نظرة خاطفة على البيت خلفنا وأكمل: «قلقة بشأنك وبشأن هذا الموقف، وبشأن ما يجري مع ويل. وفيبي. هل كانت هنا؟ هل تمضي وقتًا مع ويل وحدهما. أبوك لا ينصت إليَّ، لكن لا يمكن أن يأتمنها. أنا أعرفها».

- كفى يا أمي! كفى!

تدير وجهها نحوي فأتوقع الغضب، لكني أراها على وشك البكاء وهي تقول: «رجاء كفى! ألا تعين ما تفعلين؟ أنت تفزعيننا! تفزعينني وتفزعين أبي وويل. هل تريدين أن أنهي علاقتي بجولز؟ لماذا أفعل هذا؟ أنا أشعر بالأمان معه».

أخطو إلى الخلف لا إراديًّا وأنا أسألها: «ألا تشعرين بالأمان معي؟».

تختلط الضحكة الساخرة بالانتحاب وهي تقول: «كيف أثق بك؟ كأنك... لا أعرف... تحطمتِ فجأة. كل هذا الهراء عن خالتي فيبي. أنت تتصرفين بغرابة. لا تنامين. قالت خالتي فيبي إن هذا ما حدث لأمكما. الأم التي لم تخبرينا عنها قط. قالت كذلك إن هذا حدث مع قريبة لكما وقد حبسوها لأنها جُنت».

- يبدو أن فيبي كانت تتكلم كثيرًا.

- ربما. لكنها لم تتسبب في تصرفاتك الغريبة، أليس كذلك؟ أنت تفعلين كل هذا من تلقاء نفسك. هذا يرعبني.

هذه المرة لم أتبعها حين ابتعدتْ. لم أستطع أن أتحرك وقد رأيت نفسي فجأة كما يرونني، مختلة، شعثاء، غير موثوق بها.

هل أفعل كما اقترحت كارولاين وأذهب لأرى فيبي لأتبين خطتها وجهًا لوجه؟ ماذا لدي لأخسره؟

-45-

جسدي كله يرتجف، فأجلس في السيارة لوهلة حتى أستطيع أن أتشجع وأخرج. ليلة أمس هي ليلتي الأولى التي لم أنم فيها مطلقًا. فوق إرهاقي السابق أشعر بالتشوش.

أعرف أنه ما كان لي أن أقود السيارة في هذه الحالة، فلا يصح أن أغامر بتحطيم السيارة البديلة أيضًا. أوقفت السيارة في ساحة مركز المدينة، وأخيرًا أخرج. العالم يومض من حولي وأنا أبحث عن مكان الحانة على شاشة الهاتف. ثمة حانتان بالاسم نفسه في ليدز، لكنني أذكر العلامة التجارية المطبوعة على قميص فيبي، فأدع خرائط جوجل ترشدني.

حين اقتربتُ مسافة شارعين من الحانة، اشتريت قهوة قوية وكعكًا محلى من مقهى، واتخذت مقعدًا بالخارج. أحتاج إلى بعض الطاقة لأتمكن من التفكير بصفاء. أجلس في مكان مزدحم من المدينة، وبينما تزيد حرارة الجو، يزيد عدد المارة الذين يهرعون هنا وهناك، ويزيد تدفق السيارات والحافلات. بشكل ما أجد تلك الضوضاء مريحة. كل هؤلاء البشر يخوضون حياتهم اليومية أمام فوضى روحي. غالبًا أبدو كشخص طبيعي، ربما شخص متعَب قليلًا جرَّاء ضغط العمل والأبناء، لكن لا شيء أكثر من هذا. أشعر أنني غير مرئية. شبح.

الكعكة لزجة في فمي. أميل رأسي نحو الشمس. ما زال لدي وقت. الحانة قد فتحت أبوابها للتو وأنا لا أعرف في أي ساعات اليوم تعمل فيبي. آخذ رشفة من القهوة مع قطعة أخرى من الكعكة. فيبي تهمس كلمات مهينة لأمنا. فيبي تهمس كلمات مخيفة لويل. فيبي تهمس هراء لطيفًا لروبرت. لماذا يا

فيبي؟ ماذا فعلتُ لك سوى إنقاذي لحياتك؟ فيبي، فيبي، فيبي. أغلق عينيَّ لبرهة وأسترخي.

***

- *فيبي!*

أفزع وأظنني في البداية مَن يصرخ، لكن رأسي يدور إذ أفيق وأدرك أن العالم صاخب متحرك من حولي، وأنني كدت أفقد توازني.

أقف على الرصيف، وقطعة كعك ذابت زينتها السكرية ملتصقة بأصابعي، وأشعر أن حلقي جاف. رجل أمامي يحدق إليَّ ثم يتفاداني وأنا أمر من جواره وسط الزحام. ماذا أفعل هنا؟ لقد كنت في المقهى، فكيف أقف هنا؟

- *فيبي!*

مع النداء الثاني لاسمها، أنظر خلفي ونبرة الصوت القلقة تقطع خلال صخب المدينة كالسكين. تتوقف السيارات. يتوقف الناس. على مسافة عند نهاية الطريق أرى حانة هاند آند راكيت، جوار ما بدا لي كملتقى طرق مزدحم. كيف يبدو ملتقى طرق مزدحمًا بينما لا يتحرك أي شيء؟ لماذا أسير مبتعدة عنه؟ كيف وصلت إلى هنا؟

- *اتصلوا بالإسعاف!*

يقول أحدهم وأنا أسير إلى الأمام: «أعتقد أن أحدًا قد دفعها. بدت كأن أحدهم دفعها».

فيبي، فيبي، فيبي.. لا، لا ...

يقفز قلبي إلى فمي. تدوي صيحة من شخص على مبعدة: «ما زالت تتنفس!».

أدفع نفسي خلال المتجمهرين، فأراها ممدة على الأرض، جسدها يتخذ وضعًا مريعًا، وثلاثة أشخاص يحومون حولها. أوه، إلهي. فيبي!

تمسك بي امرأة وتحاول إبعادي فأصيح: «اتركيني! هي أختي!».

أهوي على ركبتيَّ. تفسح لي امرأة ترتدي قميص الحانة، وأرى مدى شحوبها وذعرها وهي تبتعد وتلقي بنفسها بين ذراعَي زميلة أكبر. أخلع سترتي وأضعها فوق صدر أختي الساكن.

أقول: «فيبي. هذه أنا. إيما. هل تسمعينني؟».

تتحرك شفتاها لكن لا يصدر عنهما أي كلمات.

يقول رجل سمين يجلس القرفصاء على الجهة الأخرى منها، ووجهه محمر تحت صلعته: «لقد ظهرت من العدم. أقسم بالله، لم يكن في وسعي شيء. كنت أقود السيارة بسرعة عشرين ميلًا في الساعة، إشارة المرور خضراء. بدت كأنها ألقت نفسها إلى الطريق، أو أن أحدًا قد دفعها».

أدلِّك كفها الباردة، وهو الشيء الوحيد الذي أستطيع لمسه منها دون أن أتسبب لها في ضرر أكبر.

الدموع الحارة والمخاط يغطيان وجهي وأنا أقول: «سيارة الإسعاف قادمة يا فيبي. ستصل في أي دقيقة».

أرتجف.. أرتعد.. أهمس: «استمري في التنفس يا فيبي. أرجوكِ».

ثمة دماء تحت رأسها، دماء ثخينة حمراء. أريد أن أجذبها وأضمها إليَّ، لكني أدلِّك كفها وأراقب عينيها الحائرتين، ضيِّقتَي الحدقتين إلى حد مروع.

- أنا هنا يا فيبي. أنا هنا.

ألتفت إلى الجمع الصاخب وأهتف: «أين سيارة الإسعاف اللعينة؟».

أشعر بقبضتها تتشبث بكفي.

أقول: «أحضروا الإسعاف اللعين!».

-46-

صار دمها لزجًا حين جف. كان المفترض أن أغسله، لكني لم أفعل. هذا اللون الزاهي جزءٌ منها، يلتصق بي وأنا جالسة على المقعد البارد الصلب أشاهد طاقم المستشفى يهرعون إلى حيث الحجرة التي نقلوها إليها بعد الفوضى التي تبعت وصولها إلى قسم الطوارئ.

أحدق أمامي في لا مبالاة وقد تحولتُ إلى جرم ساكن ضئيل. هم لا يعرفون ماذا يفعلون بي. اختفت دموعي ومشاعري حين وصل المسعِفون وسكنت الضوضاء، وجلست في ركن سيارة الإسعاف وهم يحاولون بعث الحياة في جسدها الذي لا يستجيب.

هي لم تمت بعد رغم كل شيء. لم تمت بعد.

يظنون أنني باردة، لكنني لست كذلك. أنا فقط أغلقت مصاريع نفسي كما فعلتها سابقًا. أنا أتذكر الآن. بمجرد أن هربنا من المنزل وعدونا تحت المطر والرعد، وبدأت فيبي في طلب المساعدة وقرع باب المرأة، ثم وصلت الإسعاف والشرطة وغمر المكان الضوضاء والأضواء، تصلبتُ وسكنتُ ولم أقدر حتى على التنفس. حملوا أمي على المحفة ولم أرها مرة أخرى بعد ذلك.

الزوبعة بداخلي لم تسكن، كما كانت حين دخلتُ حجرتنا لأجد أمي تخنق أختي. لماذا اختارت قتلها أولًا؟ هل لأنها أكبر؟ لم تتنبأ بجنون فيبي، بل إنها كانت من يساعدها. لولا فيبي لعلمت مؤسسة الخدمة الاجتماعية بأمر الفوضى التي صارت إليها حياتنا، حتى قبل أن تبدأ أمي في المعاناة من الأرق.

كانت تترك ملابس المدرسة متسخة، والأطباق بلا غسيل، وتحدق إلى الفراغ.

كما أفعل الآن بالضبط.

كيف وصلتُ إلى الحانة؟ من أي شيء كنت أهرب؟ كيف انتهى الأمر بفيبي *ملقاة على الطريق؟*

أنا خائفة من نفسي.

هل شعرت أمي بهذا؟ هل جالت ببالها تلك الخواطر؟ *ما هي حدود أفعالي؟ هل حقًا أعرف؟ هل أنا الشيء الذي يفزعني؟*

سأبلغ الأربعين غدًا.

غدًا.

إصاباتها كانت كسرًا في العظام، وثقبًا في الرئة، ونزيفًا تحت غشاء الأم الجافية. مخ فيبي ينزف مثل مخ أمي حين ضربت رأسها بالمرآة في هارتويل. سأبلغ الأربعين غدًا، تمامًا مثل أمي. شفتاي تتحركان وتتمتمان بأرقامها بلا صوت. هل هي الصدمة؟ أم هو الجنون؟

ربما تموت فيبي هذه المرة.

بدت *كأن أحدًا قد دفعها.*

لم أدفعها. لست أنا.

إيما. إيما. إيما. أحدق إلى اسمي المكتوب بحروف سوداء على الورق. ربما لم تكتبه أمي من الأساس. ربما كتبته ساندرا. أنا لا أعرف شيئًا عنها إلا أنها ترسم مشاهد مبهجة. لكن لمَ قد تكتبه؟ كيف عرفت اسمي؟ أنظر إلى الكلمات وأفطن إلى أن الخط هو خط أمي. أعرف تلك الحروف ذات الزوايا الحادة.

أكوِّم الورقة على نفسها إذ أرى ظلًّا يقترب مني.

قال: «لماذا لم تتصلي بي؟».

هذا روبرت. أتحامل على نفسي وأقوم واقفة على قدميَّ المجهدتين، فقط كي لا أبدو ضئيلة أمامه.

يتابع: «هل هي بخير؟».

يلاحظ التراب والدماء على جسدي وملابسي فيضيف: «هل أنت بخير؟».

- كلا. هي ليست بخير. هي تحت التخدير حتى يعرفوا كيف سينقذونها.

عيناي جافتان. مشاعري كقنبلة نووية داخلي.

أسأله: «كيف عرفتَ؟».

أنا لم أتصل به، ولم أتصل بأي شخص. هذه مشكلة عائلية، والآن لم يعد روبرت جزءًا من تلك العائلة.

أتابع: «من اتصل بك؟».

- الشرطة.

لم يتحرك ليضمني، وبدلًا من ذلك وقفنا وجهًا لوجه كغريبَين تضاجعا لليلة، والآن لا يعرفان كيف يتصرفان تجاه بعضهما. لا أعبأ. لا أريده أن يلمسني أو يشفق علي. لقد أمرني أن أخرج من منزلي، وهذا يتعدى عهد زواجنا أن نحتمل بعضنا في الصحة والمرض.

الشرطة. بالطبع. لا بد أن اسمينا مسجلان عندهم في مكان ما.

وكأنما استُدعيا بالسحر كجنيَّين، تظهر هيلدريث وكايِن عند مدخل صالة الانتظار.

يسألني روبرت: «ماذا كنت تفعلين هناك يا إيما؟».

أجيب: «ذهبت لأتحدث إليها. ثمة أمور أردت مناقشتها معها».

- ووصلتِ إلى هناك بمجرد أن دُفِعت؟

أرفع عينيَّ في سأم. *روبرت آفِريل، ربما أشك أنا في سلامتي العقلية، لكني لن أسمح لك.*

- اتهام سلبي عدواني رائع. إن كان لديك ما تقول، فقله بشكل مباشر.

لم يستطع أن يثبِّت عينيه إلى عينيَّ وهو يقول: «أنا فقط أحاول أن أفهم. عيد ميلادك غدًا، وأعرف أنك تشعرين بـ...».

أنفجر فيه وأقول: «أنت لا تعرف أي شيء عما أشعر به. وبالنسبة إلى عيد ميلادي، فأنا واعية تمامًا لميعاده. لقد كنت هناك أمسك بكف أختي بينما ينزف جسدها المصاب على جسدي، وربما هي تموت الآن، وأنا شاكرة لاهتمامك».

تقطِر كلماتي سخرية وأنا أردف: «إن كنت لا تمانع، ابتعد عن طريقي لأذهب وأتحدث مع أشخاص أقل منكَ عدائية معي؛ الشرطة. لكن شكرًا على

إصرارك على سوء الظن بي مرة أخرى. هذا بالضبط نوع الدعم الذي تحتاج إليه المرأة من زوجها».

- إيما.

بدا صوته كأنما يتحدث إلى طفل مزعج وهو يقول: «أنا لم أقصد أن...».

- اغرب عن وجهي.

بصقت الكلمات بصوت عالٍ حتى سمعها الشرطيان، لكني لم أعد أهتم.

أتوقف عند مكتب التمريض وأهتف: «أنا قريبة فيبي بورنيت الوحيدة. أنا وزوجي الآن منفصلان، لذا اتصلوا بي أنا فقط لإبلاغي بمستجدات حالتها. مفهوم؟ لديكم رقمي».

- بالطبع. نحن لا نتصل إلا بأقرب شخص للمريض وبالشرطة.

تبتسم لي ابتسامة دافئة متعاطفة. وقتها فقط أشعر بحلقي يضيق ودموعي تحتشد. طيبة الغرباء ستقتلنا جميعًا.

أبتعد قبل أن أبكي بالفعل، وأنضم إلى الغولَين كايِن وهيلدريث اللذَين جاءا للمرة الثانية ليتحدثا معي عن إصابة واحد من عائلتي. تتسارع دقات قلبي رغم مظهري الهادئ.

أعتقد أن أحدًا قد دفعها.

ماذا لو أن شاهدًا رآني أدفعها؟ ماذا لو كنت الجاني؟

لا أستطيع أن أثق في نفسي.

تنظر إليَّ هيلدريث من أعلى إلى أسفل، وأتعجب حين أرى لمحة من تعاطف في عينيها إذ تسألني: «مشكلات عائلية؟».

- يمكن أن أقول هذا. يا للرجال! هم أشبه بأطفال.

أنظر إلى كاين –بصفته ممثلًا عن جنسه– نظرة ازدراء كما أخشى، لكني أيضًا أشعر بالتفاؤل كوني سأواجههما مثل الناضجين.

أقول لهما: «أفترض أن روبرت قد أخبركما بأنني على خلاف مع فيبي؟».

آخذ بناصية الحديث مما يجعلني أشعر أنني أقوى. أنا محامية ذائعة الصيت، أنا قصة نجاح، أنا لست مجنونة. لا أنتظر إجابة.

وأردف: «وهذا صحيح. كان بيننا خلاف. لقد ذهبت أيضًا إلى وحدة هارتويل المؤمَّنة كي أتحدث معهم بشأن أمي. حاولتُ أن أحصل على خاتمة للقصة كما يقول الأمريكيون».

تحاشيت أن أذكر اسمًا بعينه وأنا أكمل: «بينما كنت هناك، قابلت شخصًا أخبرني بأن فيبي لم تكن مُحسِنة إلى أمي خلال زيارتها، بل وعنَّفتها لفظيًّا. لذا كنت أتساءل إن كانت فيبي هي من لديها مشكلات لم تُحل مع أمي. ورغم أنني لم أكن أود أن أفكر في هذا الاحتمال، ربما هي من...».

- تفكرين في احتمال أن تكون هي من خنقت والدتك وألقت بنفسها أمام السيارة في أثناء نوبة ندم؟

هل خطر نفس الشيء ببالهما أيضًا؟

- أنا فقط أقول إن هذا احتمال.

يقول كايِن بفظاظة: «كلا. ليس احتمالًا».

أحتج: «إذًا أنتم قد اشتبهتم بي، لكن...».

لكن هيلدريث ترفع كفها تلتمس الصمت وهي تقول مدافعة: «اهدئي».

بدت تحت إضاءة المستشفى المزعجة مرهَقة مثلي.

تردف: «نحن تأكدنا من خلال تسجيل الكاميرات أنك انصرفتِ، ولم نتحقق فقط من مكانك».

أعقد حاجبيَّ وأسأل: «لا أفهم، ماذا تعنين؟».

- لقد تحققنا أيضًا من وجود فيبي في كُشك ستاربَكس. قد كانت هناك بالفعل ولم تخنق والدتك.

لا أعرف كيف أشعر. بالارتياح طبعًا. قدر كبير منه. لم تقتل أيُّنا أمنا.

تتبدل الصور سريعًا أمامي... روبرت، كلوي، كارولاين، وكل تكذيبهم المهذب لي. اتهاماتهم لي بالارتياب المرضي كظلال تلاحقني. هل أنا مصابة بارتياب مرضي؟ أم أن ريبَتي مجرد غريزة طبيعية؟ هناك شيء خاطئ وأنا أشعر به، كأنه دودة تنخر في عقلي.

أخيرًا أسألهما: «إذًا لم يقتلها أحد؟ ماذا عن الألياف في أنفها وفمها؟».

تجيب هيلدريث: «النتائج غير حاسمة. نحن نجري بعض التحاليل الأخرى، لكننا على الأرجح لن نكون قادرين على إثبات أي شيء على أي حال».

تصمت هنيهة، ثم تردف: «أعرف أن هذا وقت عصيب، لكني أرغب في أن أطرح عليكِ بعض الأسئلة عما حدث هذا الصباح، بينما الأحداث لا تزال طازجة. هل رأيتِ أختك قبل أن تصدمها السيارة؟».

أبتسم ابتسامة كأنما شُقت على وجهي بموسىً، ابتسامة تخلو من المرح.

وأقول: «أفهم. في البداية تظنون أنني قتلت أمي، والآن تتساءلون إن كنت آذيت أختي».

- أنا لا أتساءل عن أي شيء. نحن نحاول الحصول على صورة واضحة عما حدث.

- كنت في طريقي لمقابلتها، ثم سمعت صخبًا ورأيتها وسط الطريق.

تنظر إليَّ مفكرة قبل أن تقول: «يظن المارة أنها قد دُفِعت».

- لم أكن قريبة كفاية حتى أرى.

ينتصب شعر مؤخرة عنقي. أنا متعَبة ولن أتحمل هذا الهراء.

أتابع: «لكن إن كنتِ تُلمِّحين إلى أنني قد دفعتها، فأنا أنصحك أن تحذَري من الاتهامات الجزافية ما دمتِ ليس لديك شهود».

أحاول الحفاظ على نظرتي ثابتة رغم رجفة قلبي وأنا أردف: «لقد قابلتِ محاميَّ. لو أردتِ أن تتهميني مرة أخرى، الأفضل أن تجلبي شاهدًا حقيقيًّا».

- سيدة آفِريل؟ هل يمكن أن...

نلتفت جميعًا، فنرى طبيبًا جادًّا في منتصف العمر يقف على بعد بضعة أقدام منا.

أقول: «أجل. لقد انتهينا من حديثنا».

أدير ظهري إلى الشرطيين كأن لم يعد لهما وجود. يطن صوت نبضي في أذنيَّ، قويًا، عاليًا. ليس لديهم شهود. لم يرني أحد أدفع فيبي. يغمرني الارتياح وأشعر الآن أن في مقدوري أن أبكي.

أنتِ ارتحتِ فقط لأنك كنت قلقة، وكنت قلقة لأنك لا تعرفين إن كنت قد دفعتِها أم لا. أنت لا تثقين في نفسك. سيحل العام الأربعون غدًا، وربما تُجنين. أنت حتى لا تعرفين إن كنت مُتسببة فيما حدث لأختك...

أقول: «هل فيبي... هل...».

بالكاد يظهر صوت لكلماتي.

- هي حية، لكن حالتها خطرة. سننقلها لإجراء جراحة بمجرد أن نستعد وننتهي من تجهيزها. نحن في انتظار وصول السيد هاريس، جرَّاح المخ والأعصاب، بعدها سيبدأ الفريق بالجراحة.

- فريق؟

- هي تحتاج إلى عدد من الإجراءات الطبية، ونريد أن تكون بين أفضل الأيادي خلال كل إجراء منها. أمامها جراحة قد تستمر لساعات، وحتى لو تم كل شيء دون مشكلات –وهو ما نأمل فيه ونسعى إليه- لن تستطيع استقبال زوار قبل الغد. يمكنك البقاء هنا لو رغبت، وسيبذل الجميع قصارى جهدهم كي تكوني مرتاحة، لكني أنصحك أن تعودي إلى البيت، وسنتصل بك بمجرد أن تخرج من حجرة العمليات إلى الرعاية الفائقة.

ينظر إلى حالة ملابسي، ثم إلى وجهي المُتعَب ويردف: «استحمي وخذي قسطًا من الراحة. لا يوجد ما تفعلينه لها الآن. سنعتني نحن بها».

- وستتصلون بي إن جدَّ جديد؟ فورًا؟ ستتصلون بي أولًا وحصريًّا؟

- بالطبع.

لا أعرف حتى إن كان روبرت لا يزال هنا، لكنه لن يمكث لباقي اليوم على أي حال. عليه أن يعتني بويل وكلوي إن كان لا يريد مني مساعدة. في الحقيقة لا أحب فكرة أن يجلس وينتظر خبرًا عن فيبي طيلة اليوم. هذا ليس حقه، هي أختي لا أخته.

أمد يدي إلى الطبيب وأنا أقول: «حسنًا، شكرًا لك. رجاء، لا تتركوها تموت».

- سنفعل كل ما نستطيع.

صافحني، وكانت قبضته قوية آمنة. هذا هو كل ما أحتاج إليه.

-47-

كنت أستقل سيارة أجرة إلى المدينة كي أجلب سيارتي، حين اتصلت بي سكرتيرة بَكلي تسألني إن كنت أستطيع المرور بهم. قالت لي ما قالت بنفس نبرة الصوت التي تستخدمها مع الآخرين، النبرة التي تعني: *أعرف أن السيد بَكلي يستطيع أن يحرجك، لكن ربما الأفضل أن تدافعي عن نفسك مباشرة.* كدت أخبرها عن حادث فيبي –*أعتقد أن أحدًا قد دفعها*– وأنه لا يمكن أن أكون أنا من فعلتها، لكني أحجمت. أسمع نفسي أقول لها إنني سأكون في المكتب خلال خمس عشرة دقيقة.

ماذا يمكن أن أفعل غير ذلك على أي حال؟ أمكث في حجرتي بالفندق وأنتظر مكالمة من المستشفى؟ أقراصي المنومة ليست معي، فلا يمكنني النوم، وكنت أود لو أنام ثماني وأربعين ساعة حتى يمر يوم عيد ميلادي.

أطلب من السائق أن يوصلني إلى عملي. أرتجف، لكني أقف شامخة وأنا أنتظر المصعد، ثم أقصد مكتب بَكلي.

أقول وأنا واقفة أمامه: «لا أعرف مدى مشروعية استدعاء شخص بينما هو في إجازة حداد. هل أنت بخير؟ هل تحتاج إلى مساعدة ما؟».

ينظر إليَّ في شيء من الذعر؛ ملابسي متسخة، والدماء قد اسودَّت، لكن لا يوجد مجال للشك في كُنه البقع اللزجة على يديَّ وردائي. أتصور أن شعري مشعث كذلك، وعيناي محتقنتان غائرتان. لو أن فيبي كانت ترى أنني أشبه أمي من قبل، فماذا ستظن إن رأتني الآن؟

فيبي. هي في حجرة الجراحة الآن. أنظر إلى الساعة على الحائط، لأجدها تشير إلى ما بين الواحدة وعشر دقائق والواحدة وخمس عشرة دقيقة. للحظة

لم أجد حولي سوى الظلام وأنا متأكدة أنني أهز مقبض باب مطبخي. قلبي ينبض بعنف والعالم يدور من حولي، ثم أعود فأرى بَكلي، وأرى كذلك مقبض الباب، كلتا الصورتين فوق بعضهما كأنهما مطبوعتان على ورق شفاف.

انظر.. انظر. شمعة وكتاب وجرس...

أنتفض، ويتفجر صوت الأغنية في رأسي.

- إيما؟

يقوم بَكلي واقفًا. تتحرك شفتاه وأستطيع قراءة ما يقول، لكني لا أسمع صوته.

- إيما؟ هل أنت بخير؟

أغلق عينيَّ للحظة، وحين أفتحهما أجد منزلي قد اختفى لحسن الحظ، ولا يبقى إلا المكتب الهادئ. إلا أن يدي اليمنى كانت تتحرك ممددة أمامي. لقد كنت أهز مقبض الباب الخفي أمام رئيسي.

أغمغم: «آسفة».

وأتهاوى على المقعد المقابل للمكتب قبل أن أكمل: «كان صباحي عصيبًا. صدمتْ سيارة أختي، وقد كنت معها في المستشفى».

أغطي كفي بكفي الأخرى. ما كان هذا؟ هلاوس؟ سأبلغ الأربعين غدًا، وفي طريقي إلى الجنون. عاملني بحرص يا أنجوس بَكلي، فمن يعرف ما أنا قادرة على فعله.

أقول: «إن كنت تريد الحديث معي بشأن باركر ستوكويل وردي عليه حين اتصل بي، فأنا آسفة، لكن لم يكن من المقبول أن يتحرش بي جنسيًّا لأجل مصالح المؤسسة، و...».

- ليس الأمر بشأن باركر ستوكويل.

يجلي حنجرته ثم يضيف: «وبالمناسبة، أنا أتفق معك. أنا متأكد أنه لم يقصد التحرش، لكن من غير المقبول بالفعل أن يسيء أحد الموكِّلين إلى العاملين معنا. وأنا أعتذر إن كان حضورك إلى العشاء تسبب لك في شعور مهين».

أستقيم في جلستي على المقعد. يبدو أن الأمر جاد إن كان بَكلي يعتذر عن التفرقة بين الجنسين في العمل، ويغطي مؤخرته قبل أن يقذف مؤخرتي أنا.

أسأله: «إذًا ما الأمر؟».

يدفع وريقات مطبوعة نحوي عبر المكتب وهو يقول: «هذه المراجعات».

أنظر إلى الصفحات. أربع مراجعات عبر موقعَي جوجل وترَست بايلوت، وكلها مُعنونة باسمي.

«لم يتحدث أحد إليَّ بهذه الوقاحة في حياتي. توقعت بعض التعاطف حين قلت إن زوجي يرغب في الطلاق، ولم أتلقَّ سوى السخرية واللوم واتهامي بالتقصير».

«أنا مصدومة! كيف تكون هذه المرأة مؤهلة للعمل؟ لقد كنت واضحة بشأن موقفي، وقد نعتتني بالعاهرة وأغلقت الخط في وجهي. يا لها من امرأة مريضة. المفترض أن أتصل برابطة القانونيين، لكن لدي ما يكفيني من مشكلات تشغلني. سأذهب إلى محامٍ آخر. لا تتعاملوا مع هذه المؤسسة!».

في ذهول أنظر إلى بَكلي.

أقول: «بالتأكيد أنا لا أصدِّق أيًّا من هذا. أعني...».

أنظر إلى الأوراق مرة أخرى وأكمل: «أنا لم أتفوه بهذه الأمور. أنا لا أعرف من يكون هؤلاء الناس...».

ثم أتوقف عن الحديث. هذه أسماء مألوفة، تذكِّرني بشيء.

يقول: «أنتِ اتصلتِ بهم. روزماري قد سجلت أسماءهم من قبل في سجل الموكلين».

- حسنًا، أيًّا مَن يكونون، أنا لم أقُل شيئًا من هذا.

يطلق بَكلي تنهيدة طويلة ثم يقول: «لمَ قد يكذبون؟».

صوته هادئ وهو يميل أمامًا مضيفًا: «روزماري قالت إنها في اليوم الذي أعطتك فيه هذه البيانات، كانت هناك واقعة تسجيل أرقام غريبة بصوت على المُسجل».

- هذا أمر مختلف. كيف أشرح هذا؟

أنظر مرة أخرى إلى الأوراق ثم أقول: «هذا... هذا افتراء. كيف نتأكد حتى أن هؤلاء العملاء حقيقيون؟ أعني ربما هناك من يحاول تشويه سمعتي. ربما تكون أختي حتى، أو ميراندا ستوكويل، أو أي شخص».

- لمَ قد يريد أحدهم تشويه سمعتك؟ هذا غير منطقي. أنا اتصلت بواحدة من هاته النسوة وقد أقرَّت أن هذا ما حدث، وهي قد استعانت بمؤسسة ميلبورج وبراون بدلًا منا. لقد تأكدت منهم، وقد التقوا بها في اجتماع تمهيدي، وهي تريد رفع شكوى للطلاق.

يحدق إليَّ وهو يضيف: «واضح أنك تمرين بأزمة ما. نوع من الانهيار ربما. لك مني كل التعاطف بالطبع، لكن لا يمكن أن نتحمل هذه النوعية من المشكلات. وهذه المراجعات... أنت تعرفين حجم الضرر الذي يمكن أن تسبِّبه للمؤسسة. يجب أن يعرف الجميع أننا سنأخذها على محمل الجد».

يتعلق الصمت بيننا محمَّلًا بالمعاني.

أقول له: «أنت ترفدني؟».

حتى مع جلوسي هنا غارقة في دماء أختي، أجد الأمر عسيرًا على الفهم. مقبول أن يمنحني إجازة، لكن هل يصل الأمر إلى الاستغناء عني؟ كان من المفترض أن أصبح شريكة. هذا كان مستقبلي المُنتظَر.

أتابع: «إلهي!».

- لا يوجد خيار آخر أمامنا. أنا آسف للغاية.

لم أقل شيئًا للحظات، ثم نهضت. هو لا يبدو آسفًا على الإطلاق، هو يبدو مُرتاحًا للخلاص مني.

يهبط عليَّ الهدوء. أنا لن أصرخ أو أصيح به.

أقول: «أتفهم هذا».

لا أجد نفسي متفاجئة حتى. حياتي الخاصة تتهاوى، وبالطبع حياتي المهنية ستتبعها. أخرج من مكتب بَكلي دون كلمة أخرى. أنا أتذكر اتصالي

بهؤلاء العميلات. أنا متأكدة. اتصلت بهن في نفس اليوم الذي جاءتني فيه ميشيل، يوم المُسجل. لقد كانت مكالماتنا عادية روتينية. استمعت إليهن ثم أخبرتهن أن لديهن نصف ساعة مجانية في المكتب للاستشارة، بعدها يمكننا أن نحدد ما سنفعل.

أنا واثقة أن هذا ما حدث، ومع ذلك أشك في نفسي.

أقصد مكتبي مباشرة وأجمع كل حاجياتي. لم تكن هناك صور لعائلتي على المكتب، فليس من اللائق أن أعرضها وأنا أتعامل مع قضايا طلاق خسر فيها الناس عائلاتهم، فآخذ مفكرتي ودفتر أرقام الهواتف وبعض الأغراض الأخرى وأضع كل شيء في صندوق. أعرف أن هناك الكثير من ممتلكاتي هنا في مكان ما، لكني لا أعبأ بالخوض وسط كل هذا. أريد أن أخرج من هنا فقط. يحمر وجهي وقد لاحظت كيف تحاشتني روزماري، وكيف كان الدفء والاهتمام ينبعث منها من قبل. هذا ما نسميه صديق الطقس الصحو.

-48-

أنا في المصعد الآن أهبط إلى أسفل مجددًا. لا أعرف هل أضحك أم أبكي. يبدو أن روبرت سيضطر إلى دفع مصاريف العائلة لوقت لو أن اسمي قد تلطخ في دوائر المحاماة. مدخراتنا لن تضيع هباء في حانة أزمة منتصف العمر تلك. يجب أن نقتصد.

غدًا سأبلغ الأربعين. ربما هذه الأمور لن تصير ضمن اهتماماتي إن سلكت نفس طريق أمي. *ماذا حدث وقتها؟ لمحة واحدة على أرقام أمي وبدأ عقلك ينزلق إلى الهاوية؟ ربما تموت ابنة في الصباح وتجن الأخرى في المساء.* يجب *أن تفخر أمنا بنا.*

- إيما؟

لم ألحظ أنها تنادي اسمي إلا حينما ظهرت أمامي. ميراندا ستوكويل. الوضع لا يحتمل وجودها.

- ميراندا. يومي عصيب -كلا، الحقيقية أن اليوم هو أم كل الأيام العصيبة- ولا وقت لدي لـ...

أحاول التملص منها لكنها تستوقفني: «أرجوكِ. أنا لا أريد أن أتسبب في أي مشكلات. أنا فقط أريد أن أعتذر عن الطريقة التي حادثتك بها وعن تصرفاتي وملاحقتي لك في المطعم وتهديدك. أنا كنت... الحقيقة أنني كنت مخمورة وغير متزنة ومجروحة. أنا أتفهم أنك تؤدين عملك وما كان لي أن أتصرف بهذه الطريقة. أنا الآن واعية و...».

تتوقف عن الحديث وتقطب. عيناها تتفحصاني وتتبعان أثر الدماء الجافة، ثم تنظر إلى وجهي الملطخ -على الأرجح- بالدماء.

ثم تسأل: «هل أنت بخير؟».

أكاد أضحك على سؤالها: «أنا أبعد ما يكون عن الخير يا ميراندا. لو أنك فقط تنزاحين لتسمحي لي أن أتفحص حطام حياتي، أكون شاكرة».

لم تتحرك.

تقول: «هل تريدين قهوة؟ يبدو أنك تحتاجين إليها».

- الحقيقة كل ما أحتاج إليه هو التفسيرات، وأريدك أن تكوني صريحة لأنني لن أفعل أي شيء حيال ذلك، لكني أريد أن أعرف. هل حككتِ طلاء سيارتي بمفتاح وتركتِ لي رسالة تنعتينني فيها بالعاهرة؟ هل خرقت إطار سيارتي وسجلت مراجعات زائفة عني على جوجل؟

تتسع عيناها وتهتف: «كلا، لم أفعل. هل يدَّعي باركر أنني فعلت هذا؟ هذه بالضبط هي نوعية الألعاب التي...».

- كلا، هو لم يدعِ أي شيء. أنا فقط افترضت أن...

- لست أنا. أنا أفهم سبب شكك فيَّ، لكن صدقًا لست أنا من فعل هذا.

تحمل عني صندوق أغراضي وهي تتابع: «ربما كنتُ حمقاء حين تعاملت مع طلاقي بهذه الطريقة، لكني لست حمقاء دائمًا. تبدين في حالة مزرية. تعالي».

***

بعد عشرين دقيقة، وصلنا إلى مطعم عصري يحوي كبائن تمنحنا بعض الخصوصية، فلا يحدق أحد إلى ملابسي الملطَّخة بالدماء. يومي العجيب قد اتخذ منحنى أعجب؛ ها أنا أتناول غدائي مع ميراندا ستوكويل، وهي من تشفق عليَّ. لكم يتغير كل شيء سريعًا!

طلبنا قهوة، وأضفت أنا البراندي إلى طلبي، فقد احتجت إليه كي أستطيع إخبار ميراندا عن يومي. لم أشعر بشهية للأكل، لكن ميراندا أصرت وطلبت لنا شطيرتَي لحم مشوي. قطعًا أحتاج إلى طاقة كي أكمل يومي، فدفعت الطعام دفعًا إلى حلقي وهي تحدِّثني وتكشف لي ما لا أعرفه من قصتها مع الطلاق، وما حكته كان منطقيًّا.

قالت: «توقعت أن يتصرف كالبالغين، بدلًا من ذلك تركته يتلاعب بي كدمية ويدفع الجميع للظن أنني قد جننت. لقد دفعني لدرجة الهذيان عبر

الهاتف واقتحام المنزل بحثًا عنه. وحين رحلت، دفع لأحد العاملين معه كي يمزق كل ملابسه ويجعل الأمر يبدو كأنني من فعلها. أمور كثيرة مثل هذا حتى صدقتُ أنني مجنونة. مجرد امرأة أربعينية منهارة مجنونة بلا وظيفة».

أرفع كأس البراندي في نخبنا وأقول: «هذا يجعلنا اثنتين في الظروف نفسها».

- وفعل كل ما فعل كي يحتفظ بحضانة الأطفال، لكنه أبدًا لن يتحمل وجودهم بالقرب منه، ولا يريد أن يرسلهم إليَّ. لقد احتفظ بهم لأنه يكرهني. ويقولون إنني أنا المجنونة؟ لحسن الحظ أبنائي أذكياء، وقد اشتروا لأنفسهم هواتف رخيصة -باركهم الله- ليهاتفوني دون أن يعرف. حاولت ألا أقول أي شيء ضده لهم. لطالما كنت أشعر بالذنب من كل المشكلات التي حدثت قبلًا وما جعلناهم يعانونه، لكن يعلم الله كم هو مختل سايكوباثي لعين.

- لمَ تزوجتِه؟

نصف عقلي معها، ونصفه يركز على الساعة على شكل قطار المعلَّقة في منتصف القاعة، وتشير عقاربها إلى الثانية وخمس عشرة دقيقة. آخذ رشفة من البراندي وأسمع صوتها كأنه تحت الماء.

آه، ها أنت ذا..

أسمع نفسي أهمس بها حين وصل عقرب الساعة إلى الثانية وعشرين دقيقة. للحظة لم أعد أرى سوى الظلام، وأفكر في احتمالية أن أكون أنا أمي، أو تكون هي أنا. ثم أعود إلى المطعم وميراندا التي تقول شيئًا عن كونها كانت صغيرة سهلة التأثر، وكم كان وسيمًا وقتها.

أقول فجأة: «أعتقد أنني أُجن. لا أعاني مجرد انهيار عصبي، بل جنون تام. جنون يسري في دمي وفي حمضي النووي وينتقل عبر أفراد عائلتي. زوجي الساحر يظنني كذلك أيضًا».

أنظر إليها متوقعة أن تخالف ما أقول من ابتذال، لكنها لم تفعل وراحت تنصت وأنا أكمل: «لدي هذا الشعور الممض بداخلي أن هناك من يترصد بي ويريد أن يؤذي عائلتي. لقد أصابني هذا بالأرق. لكني بدأت أقتنع أن الجميع مُحق وأن عقلي يختلق كل هذا. ربما أكون أنا الشخص الذي أخاف منه. أتعرفين؟ ليس لدي أي فكرة إن كنت أنا من دفعت أختي إلى قارعة

الطريق. لا أعتقد أنني فعلتها، لكني لا أعرف. أليس هذا تعريف الجنون؟ الأسبوع الماضي حين رغبت في اصطحاب ويل إلى المدرسة بدلًا من روبرت، خرج وجرح قدمه في شظايا زجاجات حليب مكسورة. ظننت أن من كسر الزجاجات أولاد أشقياء، لكنها مصادفة غير مقنِعة».

كانت قد توقفت عن قضم شطيرتها منذ زمن.

تسألني: «كيف تكون مصادفة غير مقنِعة؟ لا أفهم».

- كانت أمي تحتفظ بزجاجات الحليب، وتكوِّمها في ركن من المطبخ. كانت ترفض أن تُخرِجها كي لا يكسرها أحد ونطأ نحن الشظايا ولا نستطيع الذهاب إلى المدرسة.

أنظر إليها وأرشف المزيد من البراندي، ثم أضيف: «ثم حدث هذا لروبرت وكنت أعرف أنه دائمًا ما يخرج حافيًا كي يجلب زجاجات الحليب. لم أكن أنام، وكنت أريد الذهاب إلى المدرسة، وكنت أفكر في أمي وجنونها. لا بد أنني استلهمت تصرفاتها العجيبة لأضفي تفاصيل على جنوني الخاص. لا بد أنني حطمتُ زجاجة الحليب وأنا أعرف أنه سيطؤها حافيًا على الأرجح».

- أو أن أحدهم قد حطمها وتصادف هذا التشابه.

- المصادفات أكثر من أن تُبتلع.

- إذًا ربما أنتِ في طريقك إلى الجنون.

صراحتها مميتة، أنا أشهد بهذا.

تسألني: «كيف خرقتِ إطار سيارتك؟».

- ماذا؟

- أجيبي بسرعة، كيف فعلتِها؟

أجيب فجأة: «بسكين الخبز؟».

تقهقه ضاحكة، فأقول: «حسنًا، لا أظنه سكين الخبز. لا أعرف... ربما مُدية؟».

- وهل لديك مُدية؟

- لا أعرف. ربما هناك واحدة في مكان ما.

تهز كتفيها، وترشف قهوتها ثم تقول: «لا أظنكِ خرقتِ إطارك. لو أردت الصراحة، فأنا أراك أسوأ خارقة إطارات في العالم. قبل أن تسأليني، أنا لم

أخرق إطارًا من قبل، لكني لن أكذب، لقد بحثت عن الطريقة على جوجل قبل انفصالي أنا وباركر».

- لكن لا أجد منطقًا في كل هذا. لا بد وأن هناك شيئًا غير طبيعي في عقلي. أحيانًا ما أعاني من فجوات زمنية أفعل فيها أمورًا لا أذكرها.

- الأرق يتسبب لكِ في هذه الأعراض. اسمعي، أنا نفسي قد مررت بانهيار مُصغر، ومما يبدو من أعراضك فأنت تتصرفين بغرابة لا أكثر. هذا يحدث للكثير من الناس، أكثر مما تتصورين. وأنا لا أقصد هنا الجنون، فلا أعتقد أنك مجنونة. أنت فقط تعانين، ولهذا السبب سأدرس حتى أصير محامية. يمكن للعالم أن يكون مكانًا خبيثًا. لقد عانينا، وحالفنا الحظ أحيانًا. لهذا حديث آخر. المهم، ما أقصده هو أنك تنظرين إلى الأمر نظرة حادة، إما أن تكوني مجنونة وإما عاقلة.

تشير للنادل كي يحضِر الفاتورة، ثم تكمل: «بينما الحقيقة هي: لم لا تكونين عاقلة ومجنونة؟».

أنظر إليها في حيرة وأقول: «لا أفهم».

- أعني أنه ربما تمرين بمشكلة تخص سلامة عقلك، لكن هذا لا يعني أن هناك من يعابثك أيضًا.

تهز كتفها برقة كأننا نناقش مشكلة حب بارد لا مشكلة جنوني المحتمل.

تكمل: «حادث أختك لا ينفي أنها قد تكون هي من خرق إطار سيارتك، أو فعلتْ أيًّا من الأمور الأخرى، أليس كذلك؟ الأمران منفصلان».

يمسح النادل بطاقة الدفع بالجهاز ثم يختفي.

تردف: «هي تعلم بأمر زجاجات الحليب مثلما تعرفين أنت بشأنها، أليس كذلك؟».

مرة أخرى تطوف شكوكي في فيبي أرجاء عقلي.

- أجل، بالطبع.

- إذًا، كل ما أقترح هو أن تثقي في حدسك. إن كنت تظنين أن هناك خطبًا في عقلك، فهناك خطبٌ في عقلك. لكن إن كنت تظنين أيضًا أن هناك من يعابثك فثقي في حدسك. طلاقي علَّمني كل هذا. يمكن للناس أن يكونوا خراءً زلقًا إن أرادوا أن يبعدوكِ عن طريقهم.

هي محقة. أنظر إلى الساعة.

انظر.. انظر.. شمعة وكتاب وجرس.

ربما أنا في طريقي إلى الجنون، لكن أحدهم يرغب في الإيقاع بي. حقيقتان متساويتان. هل هي فيبي؟ حين تخرج من حجرة العمليات ستخبرني. أنظر إلى دمائها الجافة على كفيَّ كأن لديها الإجابة، لكنها تظل صامتة، ولا تخبرني إن كنت قد دفعتها حقًا. لقد ظلت تحمي أسرارها بعيدًا عني.

-49-

أقول: «فيبي صدمتها سيارة».

ما زالت كارولاين ترتدي زي التمريض، وتبدو محترفة يمكن الاعتماد عليها، بينما أبدو أنا على النقيض، أقرب إلى شخصية كاري في رواية ستيفن كينج القديمة. بالطبع الدماء على جسدي وملابسي أقل، لكننا نتشارك نفس مستوى الجنون.

يشحب وجه كارولاين.

أقول: «أعرف. هذا جنوني. كنت في طريقي لمقابلتها، فوجدتها ملقاة على الطريق. هي في حجرة العمليات الآن».

كنت قد اتصلت بالمستشفى في طريقي إلى هنا، ولم يكن هناك أخبار عن حالها، ولن يكون لديهم أخبار حتى تنتهي الجراحة وتبدأ فترة النقاهة. لا وعود هنا.

أقول: «هل أستطيع الدخول؟».

- امم. طبعًا.

تتراجع خلفًا فأدخل. تسألني: «هل هي بخير؟».

- كلا. ليست بخير.

تتردد الأغنية بشكل لا نهائي في عقلي، تجعلني أبدو منزعجة.

أتابع: «ربما لن تنجو».

انظر.. انظر.. شمعة وكتاب وجرس.. أضعهم خلفي..

انظر.. انظر.. شمعة وكتاب وجرس.. ليُذكِّروني.

يعلو صوت الأغنية أكثر منذ اتصلت بالمستشفى. *هي في حجرة الجراحة. الحالة أكثر تعقيدًا مما تصورنا*. ظلت الأغنية تدور في عقلي وأنا أقود، وأفكر فيما قالته ميراندا. حادث فيبي لا يعني أنها لا تسعى للنيل مني.

أقول: «ألقِ نظرة على هذه».

ندخل المطبخ، فأخرِج المراجعات من حقيبتي وقد تجعدت الأوراق، وأناولها إلى كارولاين.

أكمل: «هل تعتقدين أن فيبي هي من كتبت هذا؟ أنا أعتقد ذلك».

تنظر إلى الأوراق، ثم لي وتقول: «لم قد تفعل هذا؟».

تقطب وتقلب الأوراق، ثم تضيف: «ما هذا؟».

تعرض عليَّ ورقة لم أخطط أن أريها إياها. لا بد أنها اختلطت مع الأوراق الأخرى في حقيبتي. كانت كارولاين تمسك بالورقة التي كتبت عليها أمي اسمي.

أقول: «لا شيء. ويل كتبها منذ زمن».

آخذها منها وأدسها في حقيبتي سريعًا، ثم أقول: «لكن تلك المراجعات. من تظنينه كتبها؟».

تفحصها مرة أخرى ثم تسألني: «ماذا حدث في ذلك اليوم؟ هل اتصلتِ بهؤلاء الناس؟».

أصيح: «أنا لم أكن وقحة مع موكل محتمَل. هذا هو ما حدث في هذا اليوم».

- أنا فقط كنت أسأل.

تعيد لي الأوراق بحرص، وأكاد أتخيلها تطهِّر يديها بعدها، كأن الارتياب فيرس معدٍ.

أقول: «أنا آسفة. كانت هذه بمنزلة صدمة، وقد رفدوني. الظاهر أنني لم أعد أليق بالمؤسسة. لكن هذا قد يكون من أفعال فيبي. كيف أعرف أن النساء اللاتي تحدثتُ إليهن لم يكُن سواها؟».

- ألا ترين أن هذا استنتاج بعيد؟ بالطبع الوقت غير مناسب لاتهامها. كيف وقع هذا الحادث؟ هل كانت تعبر الطريق دون أن تنظر؟

- أحدهم قال إنها قد دُفِعت، وبالطبع أنا متأكدة أن الشرطة ترتاب فيَّ.

الكلمات تخرج مني سريعًا. من الصعب أن أوضح كلامي بينما صوت الأغنية مدوٍّ في عقلي.

أكمل: «هي تغار مني للغاية، بالإضافة إلى معاملتها مع روبرت. أستشعر غرابة في علاقتهما».

أسحق الأوراق، وأجفل إذ تتدفع المزيد من كلمات الأغنية إلى عقلي بلا إنذار. أضغط يدي على صدغي.

أرى خلال الزجاج المعتم. هل لي رأي؟ لأحفز هذا التكرار.. انظر.. انظر.. شمعة وكتاب وجرس...

تقول كارولاين في حرج: «إيما...».

تتوقف الموسيقى الهادرة فجأة، وتترك عقلي يطن وسط الهدوء المبارك.

تكمل: «أختك في المستشفى، وأنت مرهَقة مصدومة. لمَ لا تعودين إلى الفندق وتنامين قليلًا؟».

أحدق إليها للحظة طويلة، ثم أنفجر في الضحك فجأة. *أنام قليلًا؟* إلهي، كم أن هذا مضحك.

أنخر وأنا أضحك أكثر وأردد: «أنام قليلًا...».

تغطي يدي الملوثة بالدماء فمي وأنا أقهقه.

تسألني: «لماذا تضحكين؟».

يجب أن أتماسك، لأن هذا ليس مضحكًا لأننا لا نضحك معًا، أنا فقط من يضحك وأتمايل أمامًا وخلفًا، ضائعة في خضم مزحة لا يفهمها سواي.

أقول: «أنت تجعلين الأمر يبدو غاية في السهولة».

أقولها قبل أن أضحك مجددًا. أراها من خلف غلالة دموعي تراقبني حتى أتمالك نفسي أخيرًا وألهث: «أنا آسفة. إلهي! ليتني أستطيع النوم. ربما أنام حين يمر الغد، وتمر معه الأربعون العظيمة».

تعلو وجهي ابتسامة مهرِّج مخيفة، لكنها لم تضحك وظلت ترمقني في قلق وتفكر. لا ألومها حقًّا. *الغد قد جاء أخيرًا بعد كل هذه الأعوام، وها أنا أتحول إلى أمي.*

أنظر إلى ملابسي وأقول: «لا أستطيع العودة إلى الفندق هكذا. أكره أن اطلب منك ذلك، لكن هل يمكنني الاستحمام وغسل ملابسي وتجفيفها سريعًا؟».

تقول مضطربة: «أنا كنت سأخرج، لدي زيارتان منزليتان».

وجهها عبوس، كأنها تحاول أن تبدو طبيعية لكنها قد فشلت.

أترجاها وهي تعرف هذا، وأقول: «رجاءً. لن أمسَّ شيئًا. أنت تعرفين أين أعيش».

حاولت أن أمزح بهذا الشأن، لكن صوتي جاء يائسًا.

أقول: «أنا أعدك أنني سأعوضك حين ينتهي كل هذا».

قالت أخيرًا وقد بدت محاصَرة أكثر من كونها تنفذ مشيئتها الحرة: «حسنًا. سأعود قريبًا. مسحوق الغسيل أسفل الحوض».

- شكرًا جزيلًا.

أردت أن أعانقها، لكني لن أفعل وأنا أرتدي هذه الملابس.

- لا بأس.

استرخيتُ حين ابتسمتْ لي سريعًا، ثم لاحظت الطريقة التي تنظر بها إليَّ وهي تتجه نحو الباب الأمامي.

بمجرد أن خرجتْ، صعدت الدرج وأنا أكاد أبكي. أعرف معنى تلك النظرة التي رمقتني بها. نظرة خوف وقلق كأنني شخص مختل خطر.

أراقب دماء فيبي الوردية تنساب مع الماء وتختفي في بالوعة حوض الاستحمام، وأفكر في كونها محقة. الماء الساخن يضرب جسدي المنهَك. منطق ميراندا يبدو بعيدًا للغاية الآن. أنا القاسم المشترك رغم كل شيء. إلهي، كم أنا مُتعَبة. أريد فقط أن أنام.

أريد فقط أن أنام.

أتذكر أمي تهمس بتلك الكلمات في أذني طيلة هذه الأعوام، ولأول مرة في حياتي أنتحب وأجد في نفسي شفقة تجاهها.

بمجرد أن جففت جسدي، أعدت رواية إيان رانكين إلى الغرفة الخلفية. ومن منطلق الفضول جذبت واحدة من الصور المؤطرة البارزة من صندوق آخر. تظهر فيها امرأة على مقعد متحرك أمام كاتدرائية عتيقة، وكارولاين في

عمر أصغر، ربما العشرين، تقف وراء المقعد. لا بد أن المرأة المُقعدة هي والدتها؛ التشابة بينهما واضح. صورة أخرى لهما معًا في نزهة أم وابنتها. لا تنظر كارولاين إلى الكاميرا، بل إلى أمها، تراقبها. تبدو خجلة كأنها طلبت من غريب أن يصورهما ثم شعرت بغرابة طلبها.

أشاهد المزيد من الصور، أغلبها لكارولاين، ولقطَّة كانت في يوم حيوانها الأليف. قرب قاع الصندوق أجد صورة عائلية أقدم، بالنظر إلى الأزياء أعتقد أنها قد التُقطت في التسعينيات. كارولاين في السادسة تقريبًا، ترتدي زيًّا مدرسيًّا مهندمًا. زي مدرسة خاصة نظرًا إلى شكله قديم الطراز، وكان واسعًا بعض الشيء عليها. صورة أول يوم دراسي. والدتها الرشيقة الجميلة تقف جوارها، وعلى الجهة الأخرى يقف والدها، كلاهما يشعان بالفخر. هي لم تذكر أباها قط، وأفترض أنا أن والدتها قد مرضت في سن متأخرة لا في شبابها. لكل منا أسرار عائلية، وجروح لا نريد أن ننكأها.

أعيد الصور إلى مكانها، ثم أهبط الدرج. لدي ما يكفي من مشكلات مع تاريخ عائلتي ولا ينقصني التفكير في عائلتها.

أخيرًا أعود إلى ملابسي النظيفة، فأشعر أنني أقرب إلى الآدمية مرة أخرى، وبأنني عاقلة كفاية كي أفكر في كيفية التسجيل في مصحة لعدة أيام لتقييم حالتي. يمكن أن أسأل الدكتورة موريس، لكني لا أريد ذلك. أريد أن أعرف دون أن يعرفني أحد. ماذا لو تحدثتُ إلى شخص ثم تطلَّبت حالتي أن يحجزوني فلا أتمكن من الهرب إن كانوا يعرفون اسمي؟ *ماذا لو حدث شيء لعائلتي؟* لا شيء يحدث لعائلتي. هذا خاطر سخيف، مرتاب. أبحث عبر هاتفي عن تأثيرات الأرق، ثم على الفور أتمنى لو لم أبحث.

***

... يمكن أن يتسبب الانقطاع عن النوم لفترة طويلة في العديد من الأعراض، مثل التشوهات الحسية والهلوسة. ومع ذلك، يظل عدد من الأسئلة بلا إجابة فيما يتعلق بما إن كانت الأعراض ستزداد سوءًا مع الوقت وتؤدي إلى الذهان...

***

تشوهات حسية، هلاوس، ذهان.

آخذ نفسًا عميقًا وأهم بالاتصال بالدكتورة موريس، لكن هاتفي يرن. يكاد قلبي أن يتوقف من الخوف. لا أميز هذا الرقم، لكنه خط أرضي. *المستشفى*. فيبي. المفترض أنها لم تخرج من حجرة العمليات بعد. ماذا حدث؟ هل... أحدق إلى الهاتف، حلقي جاف، والرنين مستمر. في النهاية أجبر نفسي على الرد.

أقول: «إيما آفريل، من المتحدث؟».

يخرج صوتي طبيعيًّا تمامًا رغم أن قبضتيَّ مضمومتان في توتر. كوني بخير *يا فيبي*. كوني بخير.

يقول الصوت على الطرف الآخر من الخط: «مرحبًا إيما. أتمنى ألا يكون الوقت غير مناسب. أرسلت لي وحدة هارتويل رقمك وأخبروني بأنه لا بأس إن اتصلتُ بك. أنا نينا هاريس. كنت صديقة والدتك».

-50-

- إيما؟

كنت أتوقع أن تكون نينا في مثل عمر أمي، لكن ما إن فتحتْ الباب حتى أدركتُ أنها تصغرها بعِقد تقريبًا. هي في منتصف الستينيات، ذات شعر رمادي يبلغ كتفيها، ترتدي بنطالًا قطنيًّا فوقه قميص ذو نقوش هندية. أجدها امرأة مريحة، وجهها يشرق بابتسامة مبتهجة.

تقول: «أوه. كنت سأميِّز هذا الشعر الأسود الجميل في أي مكان. تشبهين باتريشيا كثيرًا. تفضلي».

- شكرًا لك، وشاكرة لاستضافتك.

أتبعها إلى الداخل. منزلها عصري بلا بهرجة زائدة. أستطيع أن أشم رائحة التبغ تحت عطر شموع خشب الصندل. تبدو كبوهيمية من الطبقة الوسطى، ويتأكد ظني إذ ألمح محتويات أرفف الكتب في المدخل. ثمة كتب طهي للنباتيين، كتب عن التأمل، وأنا متأكدة أنني رأيت كتبًا عن الروحانية وأخرى تحت عنوان الإسقاط النجمي وكيفية ممارسته بأمان. يجعلني هذا أبتسم. أنا لا أؤمن بكل هذا، لكن يعجبني إيمانها هي به.

تقول وهي تقودني إلى المطبخ ومنه إلى الحديقة: «استضافتك بهجة لي».

ثمة منضدة تحت سُقيفة زهور، عليها طاقم شاي بنقوش شرقية جميلة.

تقول: «أنا أعدُّ شايًا صينيًّا، هل يناسبك هذا؟ لدي خمر وبيرة وقهوة إن كنت تفضلين. عن نفسي، لا أشرب الكثير من الكافيين أو الكحول».

أرى لُفافة حشيش في المطفأة، فتهز كتفيها وتقول: «أعرف أنني مُسنة على تدخين هذه الأشياء، لكنها ملاذي. تحافظ على هدوئي وليونة مفاصلي. أنا أدرِّس اليوجا وتمارين اللياقة البدنية والتأمل في المركز الشامل جوار المتنزه».

هي ثرثارة ومحبَّبة إلى النفس. أجلس بينما تصب الشاي.

تقول: «لم أكن واثقة قط من مقدار ما تذكرينه أو تودين تذكره عن طفولتك. لا بد أن فيبي تتذكر أكثر منك، أليس كذلك؟».

أومئ وأنا أقول: «أجل، هي تقول هذا. لا أعرف مقدار ما تتذكر بالفعل من الفترة التي سبقت ما حدث، من تلك الليلة والأسابيع السابقة لها».

لا نية لدي أن أخبرها عن حادث فيبي. لقد وضعتُ بعض المكياج وصرت نظيفة منتعشة من أثر الاستحمام. ربما أبدو مرهَقة قليلًا، لكني يمكن أن يظنني الناس طبيعية كما أتمنى.

أتابع: «نحن لا نتحدث عن هذا كثيرًا، ولا نرى بعضنا كثيرًا وبخاصة في السنوات الأخيرة».

- هذه أمور تحدث. أعتقد أنني رأيت أخي ثلاث مرات فقط منذ انتقل إلى أستراليا منذ أربعين عامًا، لكننا لم نكن قريبَين من بعضنا مثلكما.

يغيم وجهها حزنًا وهي تردف: «لقد ظللتما متشبثتين ببعضكما تلك الليلة. أذكر أن شرطيًّا حاول فصلكما، وظلت فيبي تصرخ فيه أن يبتعد. لففتكما في نفس الغطاء كأنكما توأمتان ملتصقتان، ثم طلبت لأمكما الإسعاف».

أحدق إليها في دهشة وأهتف: «هل كنتِ هناك؟».

- إلهي. أنت بالفعل لا تذكرين الكثير.

تثني ركبتها وترفعها نحو ذقنها في رشاقة كالقطط، ثم تُشعل اللفافة وتردف: «لقد هرعتما إلى منزلي عبر المطر. كنتما مبتلتين مذعورتين».

- أنت السيدة اللطيفة.

أقولها وأنا أرى مشاهد الماضي تُرتَّب أمام عينيَّ.

أنظر إليها مُتسعة العينين وأضيف: «هذا هو اللقب الذي كنا نطلقه عليكِ».

- حقًّا؟ جميل أن أعرف هذا. كنت أعيش في شقة بالطابق الأرضي في بناية عند نهاية الشارع. والدتك كانت في غاية الطيبة معي. كنا نرعى

بعضنا. لهذا أعتقد أنني أمضيت وقتًا طويلًا بعد هذا اليوم أسأل نفسي إن كان في وسعي شيء كي أمنع هذه المأساة ولم أفعله. لا أظن أنه كان هناك ما سيمنعها. كانت صدمة. لكني حقًا تمنيت لو سمحوا لي بالاحتفاظ بكما. لكم غضبت حين لم يسمحوا لي حتى بتبنيكما -وبخاصة بعد المأساة التي جرت مع تلك العائلة- حتى انتهى بكما المطاف كلٌّ في منزل بينما كان في وسعكما أن تكونا معي. كنت سأحبكما كأنكما ابنتاي.

يدور رأسي. لم يكن هذا ما توقعتُ.

- أنتِ أردتِ أن تحتفظي بنا؟

- بالطبع! لقد أحببتُ أمكما. عرضتُ أن أنتقل إلى بيت آخر بعيد عن بيتكما القديم، لكن مؤسسة الخدمة الاجتماعية لم ترضَ. لقد كنت في التاسعة والعشرين، ناجية من حادث عنف منزلي، وكان لدى الشرطة بلاغات بما سبق هربي من بيت الزوجية. لقد تسبب زوجي في إجهاضي، وتركني عاجزة عن الإنجاب مرة أخرى.

كانت تتحدث كأنما تتلو حقائق جافة، لكني ألمح في عينيها الرماديتين خلف الدخان أشباح حياة تمنَّتها.

تُردف: «لم يعتبروني مستقرة عاطفيًّا رغم كوني أنا الضحية، ولم يكن لدي منزل كبير كفاية، ولم أكن أكسب مالًا كافيًا، بالإضافة إلى صلتي بأمكما. في النهاية قرروا أنني لست مؤهَّلة لرعايتكما. هذا هو كل ما حدث».

تنظر إليَّ من فوق كوب الشاي وتضيف: «لقد بحثتُ عنك لاحقًا حين التحقتِ بالجامعة. كنتِ حاملًا وسعيدة للغاية. أنت وفيبي كنتما تعيشان معًا، ولم أكن واثقة إن كان من الصواب أن أعيد الماضي إلى حياتكما، لذا لم أظهر فيها. ربما كان هذا خطأ. من الصعب دومًا أن يتبين المرء الخطأ من الصواب في لحظة اتخاذ القرار، أليس كذلك؟».

كل ما قالت كان يُعد كشفًا عظيمًا. أشعر ببعض التفاؤل. إن استطاعت أن تساعدني على فهم الماضي، ربما أنجح في إبعاد خوفي من تكراره.

أقول: «لم يكن لديك فكرة أن أمنا كانت ستفعل ما فعلت؟!».

يجاهد عقل المحامي في رأسي كي يصدق هذا وأنا أضيف: «كيف؟ لا بد أنك لاحظتِ أنها تتهاوى، وتعاني الأرق».

أحاول ألا أبدو كأني أتهمهما، لكن هذا صعب. أنا لا أفهم شيئًا على الإطلاق.

تقول: «أفهم أن كل هذا يبدو جنونًا من وجهة نظرك، لكني كنت أعرف والدتك من قبل أن تولَدي. كانت أقرب صديقة لي من كل النواحي. حين كان والدك موجودًا، لم أكن أراها كثيرًا. لا أظنه كان يسمح لها بالخروج عادة. كانت أجمل بكثير من أن تعيش مع رجل عصبي، يكبرها بكثير ويبغض جمالها كما أبغضَ فيبي حين وُلدت. لم تكن باتريشيا تريد طفلًا آخر، لكنه أصر على أن تنجب مرة أخرى، وبمجرد أن وُلدتِ اختفى. ربَطها بكل هذه المسؤوليات ثم تركها. لقد رحل جنوبًا إلى مدينة كورنول على ما أعتقد ليعيش مع امرأة التقى بها في رحلة من رحلات عمله، ثم مات في حادث زورق بعد ذلك بعامين. موته ساعدها على التأقلم مع حياتها الجديدة بعد أن كانت تعاني، لقد سدد مبلغ التأمين على الحياة ثمن المنزل».

لم أسأل أكثر عن والدنا، رغم غرابة سماعي عنه كشخص حقيقي لا مجرد اسم بلا شكل أو معنى. لكن رغم كل شيء، آلمني للغاية قولها صراحة إن أمي لم تكن تريدني.

أقول: «تفاجأت أنها لم تكن تريدني من الأساس. قالت لي فيبي إنها أصبحت لا تريدني بعد أن تغيرَت، وبعد ولادتي. لا بد أنها كانت تكرهني».

تتسع عيناها وهي تميل أمامًا وتهتف: «إلهي! كلا! لا تفكري في هذا أبدًا! كانت تحبك بعنف. تحبك حقًّا منذ اللحظة التي وُلدتِ فيها. لقد أحبتكما، لكنك أنت... أنت كنت طفلتها المفضلة. شيء فيك جعلها كالنمرة المتحفزة. لطالما أرادت أن تحميكِ. هي لم ترغب في طفل آخر لأن... حسنًا، ثاني طفل في عائلتها غالبًا ما كان يعاني من... مشكلات».

- أتقصدين أنه يُجن؟

تنعقد معدتي ويجف ريقي.

أضيف: «كانت دائمًا تخبرني بأنني سأُجن مثلها».

- الجنون كلمة مبالَغ فيها.

- لا أظنك تفسِّرين ما فعلتِ مع فيبي بشيء آخر سوى الجنون.

- ربما. لكنها كانت امرأة طيبة، تحمل همَّ الآخرين. امرأة متفهمة. أجل، هذه هي الصفة الأدق. لكنها كانت دومًا هشة بعض الشيء، رغم أن صفة الهشاشة ليست دقيقة كذلك... لنقل إنها كانت بالغة الرقة.

أحيانًا ما كانت تخبرني بأنها قد رُكِّبت بشكل خاطئ، وأن لديها جينات معطوبة. لم تكن أمها تتهاون في تأكيد هذا المفهوم، فكلما أخطأتْ، يكون السبب أنها الابنة الثانية ذات الدم الفاسد. جعل هذا باتريشيا مسكونة بشبح الماضي، مذعورة منه. لكنها حقًّا أحبتكِ، وقد رأيتُ الفخر في عينيها حين كانت تتحدث عنكِ وعن مهاراتكِ، وكيف قرأتِ مبكرًا قبل كل أقرانك في الحضانة. حدَّثتني عن خفة ظلك، وكيف كنت تُخرجين فيبي من مزاجها السيئ.

أتساءل كيف تبخر كل هؤلاء الأقارب حين تُرِكنا يتيمتين. أقارب أمي ووالداها. لم يظهر منهم أحد ويطالب بضمنا إليه رغم أنني متأكدة أن مؤسسة الخدمة الاجتماعية قد تواصلت معهم. ربما لأننا اثنتان؟ أم لأنهم لم يريدوا أي صلة بذات الدم الفاسد؟ الابنة الثانية؟ على الأقل لو جُننتُ تمامًا لن أحمل هم مصير عائلتي بعدي. فيبي مستعدة لأن تحل محلي الذي تسعى جاهدة لإبعادي عنه، وتستحوذ على عائلتي.

أسأل نينا: «إذًا ماذا حدث لها؟ ما الذي تغير؟».

تطلق تنهيدة طويلة ثم تجيب: «لست متأكدة حقًّا. أعني أنا لا أصدق أمر الابنة الثانية هذا. وهي كانت تعرف أنه غير منطقي كذلك. وكأن جيناتك تعرف ترتيب ولادتك! هذا سخف، أليس كذلك؟ كانت تسخر من هذا الأمر وتتحدث عن مدى بلاهة عائلتها حتى تؤمن بشيء كهذا. لم يحدث شيء لكل ابن ثانٍ في العائلة، بل أحيانًا ما كانت تنجو أجيال كاملة، ثم فطنتُ إلى أننا إن فحصنا أغلب العائلات، سنجد أن في كل جيل شخصًا لا يجيد التعامل مع العالم الخارجي إلى حد كبير، لذا هذه لم تكن بالضبط لعنة عائلة بورنيت».

- أحببت طريقتك في تفسير الجنون.

أرشف الشاي وأنا مسرورة أن لديها أكوابًا خزفية شرقية بهذا السُّمك الذي يميِّز أكواب المطاعم الصينية، فأنا أمسك به بقوةٍ كانت لتهشِّم أي سُمك أقل من هذا.

- كان الخوف يملؤها، وبخاصة عليكِ. بالنظر إلى ما حدث، فقد بدأ كل شيء بعد ولادتك. تصرفات غريبة بسيطة في البداية مثل أن تقلق على مكانك طيلة الوقت رغم أن فيبي كانت من نوع الأطفال المغامر دائم الوقوع في المشكلات. كانت تُذعَر إن غبتِ أنتِ عن نظرها كأن هناك خطرًا يترصد بك. ثم بدأت تمر بأوقاتٍ كنت أجدها فيها تحملق إلى

الفراغ ولا تعود إلى الواقع حتى يحدث ما يعيدها. كانت تقول إنها تضيع وسط أفكارها وتسخر من هذا، ولا تهتم. أنا لم أسألها أكثر، لكن في ذلك العام الأخير، كانت نوبات الشرود تتكرر وعرفتُ أنها قلِقة بسببها.

تجذب الدخان من اللفافة، ثم تكمل: «أدركتُ أن هناك خطبًا بها يوم كادت تحرق المنزل. ذهبتُ إليها ظهر يوم كي أعيد كتابًا لها، وكانت عادة تترك الباب الخلفي مفتوحًا حين تكون بالمنزل، فدخلتُ، وفوجئتُ بالمقلاة يتصاعد منها الدخان وتكاد تنفجر باللهب. كانت بالأعلى تحدق عبر النافذة المطلة على الحديقة. كنتِ ذاهلة، تدفعين ساقيها وتبكين بصوت عالٍ حتى ظننتك آذيتِ نفسك. كان وجهك محمرًا وأنت تصيحين: ماما، ماما، مرات ومرات، لكنها لم تكن حتى تدرك وجودك. كانت كتمثال، تضغط كفيها على الزجاج مفتوحة الفم. فقط حين هززتُها بعنف أفاقت».

راح جسدي يوخزني. لا أذكر هذا اليوم مطلقًا، ومع ذلك فقد اشتريت بيتًا ذا نافذة جميلة تطل على الحديقة، ورحت أقف كل ليلة في نفس الوضعية التي تصفها نينا. أرتكن بكفيَّ على الزجاج وفمي مفتوح.

أرتجف وأنا أتذكر ويل حين رآني هكذا. هل سمعني وأنا...

تقول نينا: «كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمعها فيها تردد تلك الأرقام أيضًا».

كلماتها تمزق أفكاري وتدفعني إلى البكاء. كنت أردد الأرقام حين رآني ويل عند النافذة. الزمن ينطوي مرة أخرى على نفسه، أنا وأمي انعكاسان في مرآة بعضنا بعضًا. هل أمسكت نينا ذراعَي أمي وهزتها كما هززتُ بِن؟ كما كانت تهزني هي؟ *أنا فقط أريد أن أنام!*

تكمل نينا: «كانت مذهولة خائفة. ذهبتُ معها إلى الطبيب وأجرينا كل الفحوصات، لكنه لم يجد شيئًا، على الأقل لم يجد مرضًا عضويًا. بعدها انطوت هي على نفسها وتزايد قلقها. هل تذكرين ممارستكما للتدريبات؟».

أمسح ملفات عقلي، لكني لا أجد شيئًا عن هذا الأمر.

أسألها: «أي تدريبات؟».

- كانت قلقة من تكرار حادث مثل احتراق المقلاة مرة أخرى، فكانت تدرِّبكما أنت وفيبي على الفرار إلى منزلي طلبًا للمساعدة. وفي حال

عدم وجودي، تذهبان إلى كريستين رايت، مشرفة المكتبة التي تسكن في الشارع المجاور. زوجها كان يمكث في المنزل دائمًا لأنه كان يعاني إصابة في العمود الفقري.

أتذكر فيبي تمسك بيدي ونحن نجري تحت المطر إلى منزل السيدة اللطيفة. لم تتحدث فيبي قط عن هذه التدريبات. لا بد أنها تتذكرها، أليس كذلك؟ لكن كم نتذكر من تلك التفاصيل؟

يا للذاكرة! نعتمد عليها كثيرًا في كل ما نعرفه عن أنفسنا ومن حولنا، لكن الحقيقة أننا نتذكر أقل القليل. مجرد لمحات من مشاعر وروائح. مجرد لحظات كملفات حاسوب معطلة في أدمغتنا، أو صفحات مفقودة من كتاب. الذكريات كالزمن، تتسرب من بين أصابعنا باستمرار.

- متى حدث هذا تحديدًا؟ قبل يوم عيد ميلادها الأربعين؟

- قبله بأسابيع بدأت الأمور تسوء. ربما شعرتِ أن التدهور قد بدأ منذ وقت أطول لأنك كنتِ صغيرة للغاية، لكنه حقًّا لم يستمر طويلًا. أنا أحببت باتريشيا، لكني لو كنت شككت أنكما في خطر، لكنت اتصلت بمؤسسة الخدمة الاجتماعية فورًا، وكانت لتشكرنا على ذلك. لكن كل شيء حدث بسرعة، بدأت توصد الباب الخلفي وهو ما فهمته على أنها لا تريدني بالجوار. أعتقد كذلك أنها توقفت عن الاعتناء بالمنزل في هذا الوقت، وظننت أن هذا هو كل شيء، لكن الأمر تحول معها إلى شيء آخر.

- ماذا تعنين؟

- جاءت تراني قبل أسبوع تقريبًا من يوم عيد ميلادها. كانت في حال يرثى لها، وفقدت وزنًا كثيرًا. قالت لي إنها ستطلب المساعدة، مساعدة من مصحة عقلية كالتي أودَعوا فيها خالتها الكبرى. كانت تعاني الأرق وشعورًا مستمرًّا أن شيئًا ما سيحدث. قالت كذلك إنها صارت مهووسة بأشياء معينة: زجاجات الحليب المكسورة، تلك الأرقام التي كانت ترددها، التحقق من غلق الباب الخلفي. حتى إنها لم تكن متأكدة من كينونتها أو مكانها، وتزايدت الأوقات التي لا تذكر ما كانت تفعل خلالها كأن عقلها قد أُخلي، وحين تعود إلى رشدها تجد نفسها في مكان آخر. كانت تقول إنها قلقة من أن يحدث شيء أو يؤذيك أحدهم، ثم تبنَّت فكرة أنها هي هذا الشيء الذي تخشاه.

إلهي، إلهي، إلهي. يا ليتني ما جئت إلى هنا.

لا أعرف أيَّ إجابات كنت أتوقع، لكن كل شيء تقوله نينا يُعد طعنة لي. أنا أُجن مثلما جُنت تمامًا. السلوكيات نفسها، المخاوف نفسها، فجوات الذاكرة نفسها. أنا ابنة أمي. الابنة الثانية. شيء في أعماقي يذكر كل هذا ويكرره، مثل الطفل المُعنَّف الذي يكبر ليصير متنمرًا.

تابعتْ: «قلت لها إن هذه الأعراض من أثر الأرق. كنت أعرف شخصًا أدمن الأمفيتامينات حتى إنه لم ينم لمدة أسبوع، ثم بدأ يصاب بجنون الارتياب والسير في أثناء النوم صباحًا حتى كاد ينهار عصبيًا، حقنَّاه بالمهدئ فنام ثماني وأربعين ساعة متواصلة. قالت أمك إنها جربت الأقراص المنومة لكنها لم تؤثر معها، ولم تعد تعرف نفسها أغلب الوقت، وراحت أمور لا تفهمها تملأ عقلها».

تنظر إلى الأرض وتردف: «نصحتُها أن تمهل نفسها يومين، إن لم تنم نعُد إلى الطبيب، ويمكن أن تقيم ابنتاها معي حتى تتحسن أحوالها».

تنظر عاليًا، فلا أعرف هل تنظر إلى السحب التي قطعت شعاع شمس الظهيرة، أم أنها ترفع ثقل قصتها.

لكنها بدت أكبر سنًّا وهي تكمل بهدوء: «بالطبع لم يحدث هذا، ونفد الوقت منا. لقد أحببتكِ كثيرًا. أعتقد أن هذا سبب انهيارها عندما رأيتها مع فيبي. إدراكها ما تفعل كان أثقل من أن يتحمله بناؤها العقلي الهش».

أقول: «ربما. أعتقد أننا لن نتأكد أبدًا. لكني كنت أتمنى لو أتذكرك، ولو أنني كنت شكرتك منذ أعوام على بحثك عنا».

تنظر إليَّ في ارتياح لأني بالفعل لا ألومها على شيء، مما أثقل قلبي. ما نتج عن فعلة أمي أثَّر في حيواتٍ كثيرة.

أضيف: «وكنت أتمنى لو أننا عشنا معك. كان هذا ليصبح أفضل لحياتينا، ومتأكدة من أنك كنت ستمنحيننا طفولة أفضل».

تتفجر الدموع من عينيها، وتميل فتمسك كفيَّ عبر الطاولة وهي تقول بصوت مفعم بالمشاعر: «شكرًا لك. رؤيتك أعادت لي كل تلك الذكريات. كانت لتفخر بك... بكما. واثقة من ذلك».

أبتسم لها والعرق يغمرني من تحت ملابسي، ويتجمع داخل حمالة صدري. أعرف أن عليَّ أن أفعل ما أرادت أمي فعله، يجب أن أذهب إلى مصحة.

لو أنني قد احتجت إلى أدلة أكثر قبل مجيئي إلى هنا، فالآن الأمر اتضح. أنا أمثّل خطرًا على عائلتي. أنا أجن. لكن، وبعد سماعي كل هذا، يهمهم جسدي ويقول إن هناك من يترصد بعائلتي. لو حُبست في المصحة، فماذا سيكون بوسعي فعله لهم وقتها؟ لقد شاهدت الكثير من الأفلام والمسلسلات حتى عرفت كيف تكون تلك المصحات. حتى لو دخلتها طوعًا، لا يعني هذا أني أستطيع الرحيل وقتما أشاء. ماذا سيحدث لو غيرتُ رأيي؟ لا يمكن أن أظل بعيدة هكذا عن أبنائي. لن أستطيع.

تتابع: «... وبمجرد أن نقلوها إلى جناح مخفف الحراسة، تمكنتُ من زيارتها كما أشاء».

أدرك أن نينا ما زالت تتحدث، فأتنفس بهدوء وأحاول أن أنتبه لما تقول.

تقول: «تمنيتُ لو أن الحديث معها قد يعيد إليها وعيها، لكن رغم وجود لمحات رأيتها في عينيها وعرفت أنها تسمعني، لم أشعر قط أنها كانت حاضرة الذهن. لقد سجنتْ وعيها في عقلها حتى تعجز عن تحرير نفسها إن أرادت. ثم رأيت فيبي هناك بالطبع. تفاجأت أنها لم تخبرك. كانت راحلة حين وصلتُ، وعندما ألقيت عليها التحية وجدتها غاضبة لأنني تخليت عنها. سبَّتني بكل أنواع السباب. شعرت بالخزي، لذا جبُنت عن أن آتي إلى مكتبك بعد أن رأيت ذلك الخبر عنك في الجريدة... قضية الطلاق. تسكَّعتُ قليلًا في الزقاق ثم تراجعت ورحلت».

أهتف والذكرى تعود لتملأ الثغرة: «لقد رأيتكِ عبر نافذتي!».

كان هذا في اليوم الذي جاءتني فيه ميشيل. رأيت امرأة مسنة في الزقاق المقابل.

قلت: «ليتكِ صعدتِ إليَّ! ليتكِ فعلتِها».

- لا بأس. القدر جمعنا مرة أخرى. بعد الطريقة التي قابلتْني بها فيبي، لم أشأ أن أتسبب في أي مشكلات. حمدًا لله، فقد كان زوجها معها وهدَّأها. لكن أنا...

- مهلًا، لحظة...

أقاطعها غير واثقة مما سمعت، لكني أنتبه لها جيدًا الآن.

أكمل: «هل قلتِ إنها كانت مع زوجها؟».

- أجل. أو ربما هو صديقها الحميم؟ شاب وسيم أشقر الشعر في أواخر الثلاثينيات؟ طوله قرابة ستة أقدام.

أحدق إليها وقد تبخرتْ كل شكوكي في عقلي وغطت صدمتي كل شعور آخر.

شاب وسيم أشقر في أواخر الثلاثينيات.

هي تصف زوجي. فيبي كانت في وحدة هارتويل المؤمَّنة مع روبرت!

-51-

الآن أنا يقظة تمامًا. أوقف سيارتي وأذرع الطريق جيئة وذهابًا، ويهدر عقلي. لا أستطيع أن أستوعب كل هذا. أنظر إلى كل شيء من خلال منشور ضوئي، وأعيد صياغة المعلومات الجديدة في صورة أوضح حتى أفهمها.

أخذت فيبي روبرت ليقابل والدتي منذ أسابيع. روبرت كان يعرف أن فيبي قد عادت. روبرت قد عرف بشأن أمنا وما فعلتْه، ومع ذلك بعد زيارة الشرطة لامني لأنني لم أخبره عنها أي شيء، وأظهر دهشته من أنها كانت حية طيلة كل تلك السنوات، وأشعرني بالخزي. لقد كان يعرف كل تلك الفترة. لماذا لم يخبرني؟

أسرار...

قِطع الأحجية تتراص في مكانها داخل عقلي، وتتشكّل صورة مفزعة. لقد كنت أظن أن فيبي تترصد بي وحدها. ماذا لو أن هناك من يعاونها؟

ماذا لو أن أختي وزوجي دبَّرا هذا معًا؟

أستند إلى السيارة. تباغتني الأفكار فتميد الأرض من تحتي. لو أن روبرت كان مع فيبي في هارتويل، فهو يعرف كل شيء. يعرف ما فعلت أمي، ويعرف الأرقام، ويمكنه أن يخبر ويل قصة الخَنق. لو أنه يعرف تاريخ عائلتي، فهو قد شجع ويل على أن يرسم تلك الرسومات وهو يعرف تأثيرها عليَّ. كان يعرف أنني سأقلق على صحة عقلي. لا عجب أن ويل يعاني بهذا الشكل. هو ممزَّق بين والديه.

روبرت معه طيلة الوقت. لو أن أحدًا يعرف كيف يتلاعب بابننا الصغير فهو روبرت. *لا تخبر ماما*. وطبيعي ألا يرغب ويل في الحديث. كل قصص

إيذاء الأطفال تدور حول كتم السر. لن نخبر أحدًا عن مدى سوء حالة ماما. لو طلب روبرت من ويل ألا يخبرني شيئًا، فلن يخبرني. سيخاف وسيضطرب، لكنه لن يخبرني.

نسيم المساء البارد ينعش وجهي المُتقد. لو أن روبرت وفيبي متآمران، فيمكنهما التسلل خلال الليل وكتابة الأرقام على لوح المطبخ وتسجيل الأرقام على مسجل الصوت. ربما أعطاها روبرت مفتاحًا. البيت كبير وليس بالضرورة أن أسمعها لو أنني مرهَقة وغصت في النوم بعد ليلة طويلة.

كنت واثقة أن أحدهم يراقبني من الخارج. لا بد أنها فيبي، ولا بد أن روبرت كان يضع لي شيئًا في الطعام يصيبني بالأرق. ماذا قالت نينا عن متعاطي الأمفيتامينات الذي توقف عن النوم؟ هل تعمدا أن يصيباني بجنون الارتياب حتى أسلك مسلك أمي؟

حتى ما قالته ساندرا عن فيبي صار منطقيًا الآن. هل كانت تُهين أمي كي تحفز رد فعلٍ ما كي تفعل شيئًا بنفسها فتُنقل إلى المستشفى وتجبرني على مواجهتها؟

شيء آخر، روبرت تأخر عن اجتماع المدرسة بعد أن زرت أمي في المستشفى. لم يتحقق منه أحد على شاشات كاميرا المراقبة. ماذا لو أنه تسلل وخنقها بينما فيبي تحتسي القهوة؟

هل يمكن أن يكون قد فعل كل هذا حقًا؟ عقلي يدور. هل يمكن أن تفعل فيبي كل هذا؟ ولماذا؟ ربما لفيبي أسبابها المجنونة بسبب علاقتنا المعقدة وغيرتها مني، لكن لماذا قد يفعل روبرت هذا؟

المال.

سطعت الكلمة في ذهني فورًا. لو لم يكن الحب، فهو المال. هذا ما تعلمناه في كلية الحقوق. الحب والمال هما الدافعان الرئيسيان لأي جريمة. بالطبع هناك دوافع أخرى، لكن واحدًا من الاثنين يحفز أغلب أفعال الناس. كان روبرت مضطربًا منذ فترة، وكلانا قد شعر بذلك. الزوج التعس المقيم في المنزل يرغب في حانة أزمة منتصف العمر، ويريد المزيد من المال لكنه يستاء من عملي. لكن من دونه ومهما بلغت مدخراتنا، وحتى لو بعنا المنزل، لن يستطيع العيش في تلك الرفاهية. ما لم...

عادت إليَّ تلك المحادثة فورًا. *أوه، فقط وقِّعي هذه الأوراق لأجل تجديد وثيقة التأمين. لقد زاد القسط قليلًا، لكن هذه الزيادة تساوي حقًّا راحة البال.*

لقد فوجئت بالمبلغ المطلوب حين وصل إليَّ إخطار به الأسبوع الماضي، وكنت سأكلمه ثم شتتني الحديث عن حفل عيد ميلادي. أي نوع من التأمين قد طلب؟ لقد وقَّعتُ الأوراق دون أن أقرأها. هل هناك وثيقة تأمين لحماية انخفاض الدخل نتيجة المرض العقلي؟ هل يخطط للاستيلاء على كل شيء؟ هو لا يعرف أنني رُفدت، لكنه قد يطالب بمبلغ التأمين لو أنني جننت غدًا.

المال والحب.

هل روبرت يحب فيبي؟ أم أنه فقط يستغلها؟

أعتقد أن أحدًا قد دفعها.

إلهي. هل انتظر حتى فعلتْ ما يريد ثم قرر التخلص منها؟ كان يعرف أنني ذاهبة لمقابلتها في ذلك الصباح. هل سبقني ودفعها إلى الطريق بينما كانا يسيران معًا؟ لو أنه كان يعرف بأمر عودتها كل تلك الفترة، فهو يعرف مكان سكنها وعملها ومواعيده. كلوي قالت إنه كان يخرج كثيرًا. معها؟ إلهي، مَن تزوجتُ؟!

يرن هاتفي، فأفزع. كارولاين.

أقول: «مرحبًا كارولاين، اسمعي...».

تقاطعني سريعًا: «أنا فقط أطمئن أنكِ عدتِ إلى الفندق بسلام. نسيت أن أخبرك أن مجفف الغسيل...».

- لست أنا. لم أفعل أيًّا مما حدث. أعتقد أنه روبرت. أو هو وفيبي معًا. لقد كان يعرف كل شيء عن أمي وما فعلتْه. اصطحب فيبي لزيارتها ولم يخبرني. ألا ترين؟ لا بد أنهما...

- اسمعي يا إيما. أنت بحاجة إلى مساعدة.

كان صوتها غريبًا، مكتومًا، بعيدًا، كأنها في سيارة. أتذكر نظرتها لي مؤخرًا، كأنني مجنونة. يجب أن أوضِّح لها منطقية ما أقول.

- كلا، اسمعي أنتِ. كل شيء منطقي. لقد كان يعرف بشأن زجاجات الحليب، وربما هو من حطمها بنفسه وتعثر فيها. كان يعرف أرقامها.

ماذا لو أنه كان يدس لي عقارًا ما يبقيني مستيقظة كي أظن أنني سأتحول إليها؟

- لحظة. أنتِ من كنتِ تدسين له الأقراص المنومة في شرابه، أليس كذلك؟

- أقراص منومة بسيطة! بينما هو كان يدس لي ما يقودني إلى الجنون. ماذا لو أنه خنق أمي ودفع فيبي أمام السيارة لأنه لم يعد بحاجة إليها وأراد كل المال لنفسه؟ أو لأنها غيرت رأيها وقررت أن تخبرني؟ سياسات التأمين الجديدة تلك...

أسمع شيئًا في الخلفية. ثلاث صفارات طويلة. أصمت وأقطب، ويتصلب جسدي. لا يمكن... هل يمكن هذا؟!

أقول لها: «إلهي، سأدعك كي تعودي إلى عملك. ما كان لي أن أهذي هكذا. هذا ليس ذنبك، وأشكرك مرة أخرى على استضافتك».

أغلق الخط قبل أن تقول شيئًا آخر، وأركب سيارتي بينما يغلي دمي. أعرف تمامًا أين سأذهب. أعرف تمامًا أين كارولاين.

-52-

أدخل بنفسي، وأتجه مباشرة إلى المطبخ، قلب حياتي العائلية حيث تصفر ثلاجتي الأمريكية الضخمة ثلاث مرات لو تُرك بابها مفتوحًا أكثر من بضع ثوان. حاليًّا، المطبخ هو قلب عائلتي المكسور رغم أن كل شيء يبدو عاديًّا إلى حد مفزع.

أرى بعض البطاطس تُسلق، والفرن يعمل. أعتقد أن الأطفال بحاجة إلى طعام حتى لو طردتَ زوجتك وحاولتَ قتل أختها.

أقول: «ماذا تفعلين هنا بحق الجحيم؟!».

تفزع كارولاين إذ تقف ممسكة بكوب القهوة – كوبي المفضل- وتجلس إلى طاولة المطبخ. في البداية كنت أظنها تشاهد شيئًا على يوتيوب بسبب الصوت الصادر عن هاتفها المحمول، ثم فطنت إلى أن هذا هو صوتي أنا وأنا أتحدث عن فيبي. للحظة لم أستوعب، ثم فهمت. هو تسجيل لكلامنا ذلك اليوم حين قالت إن عليها أن ترسل رسالة إلى عملها.

أصغي مذهولة وأقول: «هل كنتِ تسجلين حديثي؟ لكنك صديقتي!».

- أنت تروقين لي، لكنك لست صديقتي يا إيما. أنا بالكاد أعرفك.

تنظر إليَّ في توتر وإشفاق وتقول: «كل ما فعلت هو أنني أعدت إليك محفظتك، ثم صرتِ مهووسة بي. إصرارك على تناول الغداء معي، والطريقة التي كنت تظهرين بها عند بابي، ورسائلك. كنت أسترضيكِ، لكن هذا ليس طبيعيًّا. أنا سجلت ما قلت كي أعيده عليكِ فتعرفي كيف تبدين للآخرين، لكن بعد ما حدث لأختك... أنا أحترف الطب، فماذا تتصورين أن أفعل؟».

- أوه، أفيقي يا كارولاين، أنت ممرضة لا طبيبة وأنت مُحقة. أنت لا تعرفينني.

- لكني أعرفك.

ألتفت فأرى روبرت بوجهه البارد.

يردف: «أنت خدرتِني يا إيما؟ أعني... سحقًا... أنت خدرتني؟!».

- مهلًا. أنت تهوِّل الأمر.

كيف أكون في موضع الجاني دائمًا؟ لماذا أنا المخطئة في أعين الجميع؟ على الأقل تبدو كارولاين كأنما تتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعها. الباب الخلفي مفتوح. لا بد أن ويل يلعب في الحديقة. أحدق إلى المقبض وأحاول منع نفسي من هزه. أعتقد أنني مجنونة بما يكفي، لكن كما قالت ميراندا، هذا لا يعني أنه ليس هناك من يترصد بي.

يقول: «واحد من أزواج صديقاتنا يتلاعب بابنتنا وأنت لم تخبريني؟».

يعلو صوت روبرت الآن ويمتلئ بالحنق والجنون حتى إنني أتراجع خلفًا.

إلهي! كلوي.

أرد: «أنت تبالغ في اختيار الكلمات».

يصيح: «هي في السابعة عشرة! ماذا تطلقين على علاقتهما إذًا؟».

- أنا طلبت منها إنهاءها. كنت أمهلها وقتًا. لدينا من المشكلات ما يكفي. هل أخبرتَ ميشيل؟

- بالطبع أخبرتُ ميشيل. هي منهارة كما لك أن تتخيلي.

- وأين كلوي؟ بالأعلى؟

- لم تعد إلى المنزل بعد، ولا ترد على هاتفها.

- كان عليك أن تنتظر! من يعرف أين هي الآن؟ لن ترغب في العودة إلى المنزل. أم أن هذا ما تريده؟ حمل آخر يُزال من فوق كتفيك؟

أريد أن أخنقه.

أكمل: «أنت تعرف كل شيء! كل شيء! ولم تخبرني قط».

أميل إلى الأمام وأبصق كلماتي في وجهه حانقة. زوجي. حبيبي. عدوي.

أتابع: «أنت كذبت عليَّ. هل قتلت أمي يا روبرت؟ هل دفعت فيبي؟ لو تحققت من بوليصة التأمين، هل سأجدها تؤمِّن على فقداني عقلي؟ هل كل هذا لأنك أب مقيم في المنزل؟ أتغار من عملي؟ عملي الذي أبقاك حيًّا لمدة عشرين عامًا، والآن تريد سحقه لأجل حانة أزمة منتصف العمر، وأنت مستعد للقتل لأجل هذا؟».

يحدق إليَّ طويلًا قبل أن يقول: «بربك يا إيما».

يهز رأسه مستسلمًا، حتى إنني أرغب بشدة في أن أجلب واحدة من سكاكين المطبخ وأطعنه بها في عينيه.

ويقول: «أنصتي لنفسك. كم تبدين مرتابة! وتتعجبين من قلقنا جميعًا عليك؟ بالأمس كانت فيبي هي المختلة المجرمة، والآن أنا، أليس كذلك؟».

- هذا ليس ارتيابًا مرضيًّا! أنت تعرف هذا.

أرتجف، وأحاول السيطرة على نفسي.

يقول: «أجل، أجل. كنت أعرف! ولم أخبرك لأن فيبي قالت لي إنكِ لن تغفري لها هذا. هل تريدين أن تعرفي أكثر عن المؤامرة الكبرى اللعينة عليك؟ حسنًا، هذا هو ما حدث. قابلت فيبي *بالصدفة*. كنت ذاهبًا إلى مقابلة عمل. أجل، لم أخبرك كذلك أنني كنت أبحث عن عمل، ورأيتها داخل مقهى. كانت قد عادت قبلها بأسابيع. لم تكن تريد إخبارك. لم تريدك أن تعرفي أنها قلقة بشأن عيد ميلادك، لكنها رأت أن من الضروري أن أعرف حقيقة ماضيكما، في حال بدأتِ تتصرفين بغرابة...».

- أوه. كم أن هذا ساحر!

- هي لم تقصد أنك ستُجنين. لقد ظنت أنك ربما تتصرفين بغرابة لأنك خائفة. قالت إنها كانت خائفة قبل يوم عيد ميلادها الأربعين، لكن الأمر سيكون أصعب معك، ثم أخبرتني السبب. أجل، فيبي أخبرتني كل شيء ثم أخذتني لأرى باتريشيا. لقد ذهبت مرة واحدة ومن وقتها وأنا أنتظر أن تخبريني عنها. لكن يبدو أنني لم أكن مهمًّا بما يكفي من وجهة نظرك. أما بالنسبة إلى التأمين. أنا أمَّنت على عقلك، فهل تلومينني؟

يذرع المطبخ وهو يلهث، كلماته كوابل من رصاص مدفع آلي.

يكمل: «فعلت هذا بعد أن ضاعت كل محاولاتي للحصول على وظيفة بسبب مكوثي في المنزل عشرين عامًا. أنا غير قابل للتوظيف، ولدينا طفلان

ومصاريف مدرسة وجامعة، ومصاريف منزل. بالطبع رغبت في أؤمِّن وضعنا في حال مرضتِ كما مرضتْ أمك. لذا، أجل، هذه هي جريمتي. أنا مذنب. لكن بالنسبة إلى الأسرار، فأنت أخفيتِ عني هذه الحقيقة طيلة زواجنا يا إيما، وكل ما فعلت هو معرفة ما أخفيتِه عني».

- أنت أخبرت ويل بما فعلت ودفعته ليرسم هذه الأشياء كي يخيفني. وأنت تعرف الأرقام و...

- لأجل الله يا إيما، كفى! أنتِ زوجتي. أنا أحبك. لكن هذا جنون!

- ماذا عن الخدوش على سيارتي؟ مراجعات عملي؟

أنقل نظري من روبرت إلى كارولاين وأردف: «ماذا عنهما؟».

تسألني كارولاين بهدوء وسط الصمت الذي حل بعد سؤالي: «هل أنت واثقة أنك لم تفعلي هذا؟ أعرف أنك مؤمنة أن شخصًا آخر فعلها، لكن هل أنت واثقة أنه ليس أنت؟».

تتحرك شفتاي، ولا يصدر عنها أي كلمات. لقد كنت واثقة من كل شيء قبل أن آتي إلى هنا، وكل اتهاماتي جاهزة، وواثقة أن روبرت وفيبي هما من رتَّبا كل هذا معًا. والآن؟ الآن أنا حائرة، وكل شيء يقوله منطقي وله مبرر. وها أنا مرة أخرى أبدو حمقاء.

تضيف كارولاين: «لا أعتقد أن هناك من يترصد بك يا إيما. حقًّا لا أعتقد هذا».

يقول روبرت بصوت أقل تعاطفًا بكثير من كارولاين: «إذًا أخبرينا يا إيما، ماذا حدث لفيبي؟ لقد كنتِ هناك، أليس كذلك؟ هل دفعتِها؟».

يرفع هاتف كارولاين مردفًا: «لأن كلامك يعني أنك رغبتِ في هذا حقًّا».

أقول: «أنت تراني مجنونة لأنني شككت أنك الفاعل، وتعتقد أن شكك أنت لا بأس به؟».

«ماما».

أنتفض إثر الصوت، ونلتفت جميعًا نحو الباب الخلفي. ويل، ابني الحبيب، يقف عند المدخل. فجأة أنسى كل اتهاماتي واتهاماتهم وأريد أن أندفع نحوه أحمله وأهدهده، ولا أدعه يبتعد عني مرة أخرى. ابني الصغير الحبيب. نوري،

حياتي. يقترب أكثر مني في حذر فأبتسم له ابتسامة واسعة حتى وأنا أعرف أنني سأبكي. ابني الرائع.

يقول وهو يقترب مني: «لقد صنعت لك بطاقة معايدة».

يتركه روبرت ليقترب، ولكم أراد لو يبعده. لكنه لن يترك نفسه يظهر بمظهر الشرير.

يردف ويل: «لأجل الغد. في حال لم تكوني هنا».

أقول برفق: «أوه، شكرًا. لم أتوقع هذا».

حين اقترب مني مسافة مناسبة، أخرج البطاقة من وراء ظهره ورفعها نحوي. لم يكن هذا هو الترحاب الذي أحتاج إليه، لكني سأحصل على بطاقة معايدة منه. لو أنه صنع لي واحدة، فهذا سيبيِّن لروبرت أنني لست بهذا السوء.

يقول: «هذه بطاقتك».

- شكرًا يا ويل. هذا...

أتوقف، وتتوه مني الكلمات وأنا أحدق إلى البطاقة المصنوعة من الورق المطوي. كان قد كتب عليها بخط غير مستوٍ «عيد ميلاد سعيد يا ماما»، وتحتها رسم امرأة شعرها أسود يتدلى أمام وجهها وتمسك بوسادة وهي تميل على فراش طفل.

أرمي بالبطاقة، وأجلس القرفصاء وأنا أمسك بعضديه وأسأله: «كيف عرفت هذا؟ من طلب منك رسم هذه البطاقة يا ويل؟ من أخبرك هذا الأمر؟ هل هي خالتك فيبي؟ هل هو بابا؟».

لم يقل شيئًا، فأهزه وأنا أكرر: «من يا ويل؟ يجب أن تخبرني».

يحاول التملص مني بينما يقترب روبرت ويحرِّره من قبضتيَّ.

ويقول: «كفى»!

كرر ويل: «هذه بطاقتك».

ثم ضرب رأسه بكفه كأنما يريد أن يُخرِج شيئًا منها.

- هذه بطاقتك.

أنظر إلى روبرت وأهتف: «أيها الوغد. أنت من يفعل هذا. أنت! أنا أعرف. أنت وفيبي».

أسمع ويل ينتحب، فأهم بمد يدي نحوه، لكن روبرت يمد ذراعه ليمنعني.

ويقول: «ابتعدي عنه يا إيما، أو أقسم بالله... لا أعرف ماذا سأفعل».

أسمع صوت الباب الأمامي يُغلق، فأستدير لأرى كلوي تدخل عاصفةً، وجهها محمر وأنفها يسيل. هي عبارة عن فوضى من المشاعر.

تصيح: «أيتها العاهرة. أنتم أخبرتموها، والآن هو سيعود إليها. أكرهك. أكرهكم جميعًا».

أتراجع إلى الخلف في قلق، فتصطدم يدي بمقبض المقلاة. ألتفت لأمسكها فتسقط مني دون قصد وأجد نفسي أتحسس الهواء. أرى كارولاين تقوم من مقعدها، وروبرت يغطي ويل بجسده بينما يطير الماء المغلي والبطاطس في الهواء. أغلق عينيَّ في ذعر، ثم أسمع ويل يصرخ وروبرت يسُب، وصوت المقلاة إذ تصطدم بالأرض. ثم تمر اللحظات التالية ببطء.

أوه، إلهي.. إلهي.. إلهي.. إلهي..

- اخرجي من هنا يا إيما.

أفتح عينيَّ وصدري يعلو ويهبط.

وأقول: «هل أنتم بخير؟ هل ويل بخير؟ هل تناثر الـ...».

يقول روبرت: « قلت اخرجي من هنا».

أرى الضرر الآن. ويل يبكي من الصدمة، والرذاذ يبلل فخذيه من تحت بنطاله القصير، لكن ذراع روبرت محمرة. سيكون هذا حرقًا عنيفًا.

تهتف كارولاين: «سأحضر حقيبتي. هي في السيارة».

تخرج سريعًا، فأقول: «لقد كان هذا حادثًا، لم أقصد...».

يقوم روبرت ويتقدم مني وهو يصيح: «فقط اخرجي من هنا! وإلا حبستك في مصحة!».

يطلق زفيرًا طويلًا، فأتراجع أنا إلى الصالة.

يحمل ويل الباكي ويقول له: «لا بأس. حرق صغير. لنضعه تحت الماء».

ظل يهدِّئ ابننا قبل أن ينظر نحوي ويقول بهدوء: «ربما أضطر إلى ذلك فعلًا. لمصلحتك».

تعود كارولاين وتهرع إلى المطبخ، غريبة مُرحب بها أكثر مني. أتراجع أنا مهزومة.

تنظر إلينا كلوي من أعلى الدرج وتهتف بصوت مُحمل بكسرة القلب: «أنتِ دمرتِ كل شيء. أتمنى أن تكوني سعيدة الآن».

أتماسك حتى أصل إلى سيارتي، ثم أجهش بالبكاء. حتى كارولاين انقلبت عليَّ. أنا الآن وحيدة تمامًا.

-53-

أتوقف عند آلة صرف النقود، وأصرف خمسة آلاف جنيه من الحساب الجاري، ثم من بطاقة ائتماني، ولا أعود إلى الفندق. لو حاول روبرت تعقبي لحبسي في مصحة، فأنا لا أنتوي أن أكون سهلة المنال.

أختار فندقًا بسيطًا جوار المحطة، يوفر مبيتًا وإفطارًا، لكنه أعلى قليلًا من مستويات النُّزل. لم تطلب مني المرأة في الاستقبال بطاقة هويتي قبل أن تأخذ النقود وتناولني المفتاح المُثبَّت إلى لوح خشبي كبير.

يُعتبر هذا النوع من المفاتيح في بعض الفنادق نوعًا من الزينة المُميِّزة، لكن ذلك اللوح الخشبي هنا لا يتعدى كونه وسيلة عملية قديمة لمنع النزلاء من المغادرة ومعهم المفاتيح.

تقول لي موظفة الاستقبال إن غرفتي في الطابق العلوي، وإنه لا يوجد مصعد. بضجر أصعد الدرج الضيق، وأنا أخطو فوق البساط ذي الرائحة العفنة حتى أصل إلى مأواي، وهو غرفة بسيطة تتسع بالكاد لفراش مزدوج وخزانة، ودورة مياه. الجو فيها خانق، والحرارة فيها مثبَّتة عند درجة معينة. أفتح ستار النافذة العتيق، فتدخل نسمة هواء رطبة ومعها ضوضاء الشارع. على الأقل ثمة غلاية ماء وأكواب يبدو عليها النظافة.

أنا مُتعَبة. غدًا عيد ميلادي. منذ أسبوع تقريبًا كان زوجي وابنتي يجهزان حفلًا لي، والآن ها أنا هنا، وحيدة، مُبعدة، يلتهمني القلق.

لقد خرجت فيبي من حجرة العمليات. أفكر فيها وأنا أخرِج زجاجة النبيذ والشطائر التي اشتريتها من محطة تزويد الوقود بعد أن اتصل المستشفى بي. هي *ترتاح في فترة النقاهة. الحالة ما زالت حرجة، لكننا متفائلون مع*

بعض *الحذر*. ماذا ستقول فيبي حين تفيق؟ هل ستتهم روبرت بدفعها أم تبرئ ساحته؟ لطالما كنت أتساءل عن تعاونهما معًا ضدي، لكن وأنا أصب النبيذ في كوبي، أرى احتمالات أخرى. أجل، هناك احتمال أن يكون هناك من يريد الظفر بي. أحدهما، أو كلاهما معًا، أو كل واحد منهما على حدة ولا يعلم كلٌّ منهما ما يدبِّر الآخر. يمكن كذلك أن يكون حادث فيبي مجرد حادث. ربما تشتتت وهي تعبر الطريق. ربما حذَّرتْها كلوي أو حذَّرها روبرت من مجيئي. يمكن للمرء أن يتوصل إلى الكثير من الاحتمالات والظنون وهو يبحث عن الحقيقة.

هذا أمر جنوني، مما يدفعني إلى احتمال آخر مستقل، الجنون. أن كل هذا الاضطهاد ليس إلا نتاج عقلي المصاب بجنون الارتياب. ليس هناك من يريد الإيقاع بي. أنا الخطر الوحيد كوني الابنة الثانية ذات الدم الفاسد. أنا أتجه نحو الأربعين وأتحول إلى أمي.

أوصد الباب، ثم أقف فوق المقعد كي أضع مفتاحَي الحجرة والسيارة فوق الخزانة المُتربة. لا أريد أن يكون أمر مغادرتي الحجرة ليلًا سهلًا عليَّ. أتناول قرصَي باراسيتامول لتسكين الصداع، ابتلعتُهما بجرعة نبيذ، ثم أجلس على طرف الفراش ولا أفتح لفافة الشطائر. الوقت يتأخر، والسماء المثقلة بالسحب بالخارج تخفي الشمس خلفها، ويتحول النور إلى الظلام.

أشرب نبيذي وأشعر برأسي يدور مثل عجلة ملاهي تركبها الأرقام والموسيقى والتصرفات اللاإرادية. أشرب المزيد وأتمنى لو أفقد الوعي. أتمنى لو أن أقراصي المنومة معي فأضيفها إلى الخليط، لكني لا أثق في نفسي ألا أتجاوز الجرعة الآمنة. أنا في حاجة ماسة إلى النوم.

الليل يحل.

***

لم أنَم، ومع ذلك لست متيقظة بالكامل.

يمر الليل كحلم محموم، ويتزايد قلقي مع تجاوز الساعة منتصف الليل.

أهز المقبض. أضغط نفسي إلى النافذة. أفعل تلك الأمور ولست واثقة من أنني أفعلها. أشرب النبيذ ويدور رأسي، فلا أشعر أن يدي هي يدي وأنا أهز مقبض الباب.

أشرب المزيد. في قرابة الثانية صباحًا ينجلي عقلي، وألاحظ أنني مبتلة. يبدو لي هذا طبيعيًا. يبدو لي هذا مهمًا. ما المهم في أن أكون مبتلة؟

أشرب المزيد. ثم أجد نفسي أقف جوار الفراش، أحدق إليه. أغمغم بكلمات الأغنية وأضرب فمي بكفي كي أمنع نفسي من الصراخ بها.

أنظر إلى الوسادة ويملؤني الفزع، ثم أترك نفسي أخيرًا كي أسقط خلال الشقوق في عقلي. لا أستطيع مقاومة الليل.

ففي الليل، أُجن.

-54-

عيد الميلاد الأربعون

يعيدني صوت الهاتف إلى الواقع. الساعة العاشرة والنصف صباحًا. اختفى الليل وحل النهار بالفعل.

أنا بلغت الأربعين... بلغت الأربعين.

اليوم الموعود.

أول ما أدركت هو أنني أتجمد. ملابسي المُخضلَّة ملتصقة بجسدي. ما زلت أقف في المساحة الخالية الصغيرة عند طرف الفراش، وأكاد أتهاوى حين أخطو خطوة إلى الأمام. ساقاي متعبتان متصلبتان. أسمع صوت الماء في الحمام فأذهب وأغلق الصنبور. الماء بارد للغاية. لا أتذكر أنني رششت نفسي بالماء، كل ما أذكر هو أنني كنت مبتلة. يرن الهاتف مرة أخرى. ميشيل. أقرر ألا أرد. يمكن أن أعيش دون شكواها، فليست غلطتي أن زوجها متعدد العلاقات. إن لم تكن ستشكو لي، فلا طاقة عندي لتحمُّل غضبها. لدي ما يكفيني.

ألقي نظرة على المرآة فوق الغلاية. الأرقام مكتوبة عليها بأحمر الشفاه في ثلاثة سطور. 22213315218222.

أتذكر نوعًا أنني فعلت هذا. أتذكر لمحات من انعكاس وجهي في المرآة وشعري يغطيه وأنا أغمغم وأكتب. يمكن بسهولة أن أظنني أمي. أنظر خلفي

إلى الفراش الذي لم يُمس. الشيء الوحيد الذي تغير فيه هو أنني ألقيت الوسادة على الأرض.

أبكي مرة أخرى، وأظل أبكي وأنا أسلخ عني ملابسي وأقف تحت الماء الساخن طلبًا للدفء. جسدي يرتجف ويرتعش. أتذكر شذرات من الليل. السير. الغناء. التحديق إلى الليل في الخارج. كوني أنا، ولست أنا.

الحقيقة واضحة في ذهني. هم جميعًا على حق، وأنا المخطئة. أنا العنصر الدخيل. أنا الخطر الذي يحيق بعائلتي. ماذا سأفعل بهم الليلة؟ ماذا بوسعي أن أفعل خلال تلك اللحظات المفقودة من وعيي؟ هل هذا ما شعرتْ به أمي؟ هذا الذعر؟

أهمس مرارًا: «أنا فقط أريد أن أنام».

أخيرًا، تتوقف الدموع، وأعرف ما يجب أن أفعل. سأذهب وأمكث مع فيبي. سأمسك يدها حتى تفيق. *أرجوكِ يا فيبي، أفيقي*. ثم سأعتذر لها وأخبرها كم أحبها وكم أنا شاكرة أنها أختي الكبرى وأنها حمتني حين كنت صغيرة. سأخبرها كم أنا آسفة أننا فقدنا طريقنا، ثم سأقود سيارتي إلى أقرب مصحة خاصة، وأسلِّمهم بطاقتي المصرفية، وأطلب منهم أن يحجزوني لأجل سلامتي وسلامة الآخرين.

ما إن توصلتُ إلى هذا القرار، حتى شعرت بالهدوء. لست أمي ولدي مزية المعرفة المسبقة بما سيحدث. أعرف ما فعلتُ، ولن أكرر أخطاء الماضي. أشعر بالخدر وأنا أرتدي ملابسي وأبدأ يومي. مساحة الهدوء التي خلقتُها للتو غير قادرة على احتواء إرهاقي الشديد.

يمكن لعائلتي أن تنتظر حتى أتحسن. لن أحاول الاتصال بهم اليوم، فلن يثمِر هذا عن أي خير. ما دام ابناي في أمان، فلا شيء يهم. يجب أن أتجاوز الليلة في مكان آمن يحبسني بداخله.

أجد رسالتين على هاتفي تتمنيان لي عيد ميلاد سعيدًا، واحدة من دارسي، وواحدة من روزماري. لن أرد على أيهما. ليس لدي مساحة للآخرين، وبالكاد أجد متسعًا لنفسي.

في النهاية، لم أحاول تنظيف المرآة، وأترك عشرين جنيهًا تحت الكوب لمن سينظفها. لم تكن الحجرة في حالة سيئة. أرضية الحمام مبللة، وقد رميت ملابسي المبتلة في السلة. واثقة أنه سيكون هناك كثير من الجدل حول

المرأة الغريبة التي أقامت في الحجرة رقم 16، لكن الفنادق في نفس مستوى الأسعار والقرب من المحطة تشهد الأسوأ. على الأقل هم لا يعرفون اسمي.

***

المستشفى هادئ، والصمت قاتل في الحجرة التي ترقد فيها فيبي ساكنة في فراشها. منذ أيام، قبضت أمي على رسغي وهي راقدة على فراش بمستشفى، وها أنا أقبض على كف فيبي وهي في فراش مرضها، مُضمَّدة الرأس، مُحطَّمة الجسد. ربما تكون كفها هذه مرساتي. لكن كلما أغلق عينيَّ، أرى يديَّ فوق وسادة، وهذ الوسادة فوق وجه ويل.

أهمس: «ماذا يحدث لي يا فيبي؟ لا أستطيع أن أحتفظ بأي شيء في عقلي».

لم تُجب. أعود إلى الغناء بصوت منخفض. أعرف كل الكلمات، ولا أعرف كيف عرفتُها. حلقي جاف. يبدو أنني كنت أغني لفترة طويلة.

انظر.. انظر.. شمعة وكتاب وجرس.. ليُذكِّروني.

جوار الفراش كوب شاي قد أحضرتْه لي ممرضة منذ قليل. لقد صار باردًا. لا أظنه أول كوب. هم قلقون بشأني أيضًا. أنا هنا منذ ساعات ولا أتحرك. يدي خدرة فوق يد فيبي، لكني أخشى أن أفلتها. لو فعلتُ فسأضيع ولن أجد طريق عودتي مرة أخرى. لا أريد أن أؤذي عائلتي، ومع ذلك ما زلت أشعر بقطن الوسادة وحنق بارد في صدري. لو فقدتُ تركيزي سيتحول ما في عقلي إلى حقيقة.

هل يمكن أن أقفز من نافذة هنا؟ أكسر عظامي؟ أحافظ على سلامة عائلتي، وأنهي كل شيء.

بالخارج، يحل الليل. ليلة يوم عيد ميلادي الأربعين.

انجديني يا فيبي. الوقت يتأخر وأنا خائفة.

تظل صامتة، جميلة، محطَّمة. أمسك يدها ويغمرني تدفق الزمن فأغفو. ليكن ما سيكون. الموسيقى رفيقتي. تمر الساعات. أغفو مرة أخرى.

***

«إيما».

تنفتح عيناي فجأة، ولا أدرك أين أنا لدقيقة. هل نمت؟ هل غبت عن *الوعي*؟ ما زالت يدي تقبض على يد فيبي، لكنها الآن تضغط برفق على كفي. أنظر إلى الساعة، لقد تجاوز الوقت منتصف الليل. تتسارع دقات قلبي، وأشعر بالشقوق في عقلي تتسع وتحاول ابتلاعي مرة أخرى، لكني أحاول التركيز على أختي. لقد أفاقت. هذا ليس وهمًا في عقلي. هذا هو الواقع.

- فيبي؟

أميل أمامًا والدموع تتدفق من عينيَّ فورًا.

أتابع: «إلهي! فيبي».

تنفتح عيناها، لكنهما تظلان غائمتين من أثر التخدير والألم. تبتلع ريقها ببطء.

أسألها: «هل تريدين شيئًا؟ ماء؟ هل أنادي الممرضة؟».

أريد أن أنفجر من السعادة. لقد أفاقت وهي هنا، تستطيع الحديث والتفكير. أعتقد أن هذا مؤشر على أنها لم تُصب بضرر دائم.

أرى رأسها يتحرك بالكاد وهي تهمس: «لقد رأيتِك».

يهبط قلبي إلى معدتي. تصمت هنيهة وتحاول التنفس واستجماع قواها. *هل أنا من دفعها؟*

تتابع: «لقد كنتِ واقفة بعيدًا عند نهاية الطريق. رأيتِك قادمة، ثم دفعني أحد. هل كنت هناك أم أنني كنت أحلم؟».

أكاد أضحك من الارتياح. أنا لم أدفعها. لم أكن أنا. أقترب بمقعدي أكثر. أريد أن أكون أقرب قدر الإمكان. أختي الكبيرة العزيزة التي أمسكت بيدي ونحن نهرب.

أقبِّل كفها وأقول: «لقد كنتُ هناك. أردت أن أعتذر لكِ».

هذه كذبة، لكن لو كان في وسعي تغيير الماضي، لكان الغرض من زيارتي الاعتذار.

أكمل: «أنا آسفة لاتهامك بكل تلك الفظائع. لا أعرف ماذا قد حل بي يا فيبي».

يسيل أنفي، فتضغط بخفة على كفي وتقول وهي تجاهد كي تخرِج الكلمات من فمها: «لا شيء قد حل بك يا إيما. بعض اتهاماتك كانت حقيقية.

لقد قلت كلمات قاسية لأمنا. لم أستطع منع نفسي. لطالما كان غضبي يستعر، وما زال. لم أتوقع منها أن...».

يتقلص وجهها بشكل لم أره من قبل. كانت تصارع مشاعرها، وتمنيت لو أحملها وأضمها إلى صدري.

أقول لها: «هذا ليس خطأكِ. ليس أيٌّ مما حدث خطأك. المآسي تحدث، ولم تكوني تعلمين بما ستفعل».

- أنا لم أقتلها.
- أعرف. وأنا أيضًا لم أقتلها.

تغمض عينيها مرة أخرى كأن قولي الأخير جلب لها السلام، وأراها تغوص مجددًا بعيدًا عن الوعي. لن أكون هنا حين تفيق مرة أخرى. سأنادي الممرضة، ثم سأسلِّم نفسي وبطاقتي البنكية إلى مصحة «سي سايد» كي تحبسني. عيد ميلاد سعيد لي.

أكاد أسحب كفي من كف فيبي، ثم أسمعها تتحدث مرة أخرى وقد فتحت عينيها بالكاد: «هل كنتِ تغنين أغنية أمي؟ أم كنت أحلم؟».

أتجمد مكاني، وأسألها: «أغنية أمي؟».

تتنهد عالقة بين اليقظة والنوم الذي يجذبها إليه، ثم تقول: «أجل. ظلت هي ترددها طيلة تلك الليلة. لقد كنتِ في الخزانة وغالبًا لم تسمعيها».

أسأل وقلبي يكاد يقفز خارج صدري: «كيف كانت الأغنية؟ هل تتذكرين؟».

لوهلة لم أحصل على رد وظننت أنها قد نامت مرة أخرى.

بدأت تغني بهدوء شديد وتهمس بالكلمات التي أعرفها جيدًا: «انظر.. انظر.. شمعة وكتاب وجرس.. أضعهم خلفي.. انظر.. انظر.. شمعة وكتاب وجرس.. ليُذكِّروني».

تبتسم ابتسامة مُخدَّرة أقرب للضحكة ثم تضيف: «عندما سمعتُها ظننت أنني في الماضي وأنها هنا جواري في الوقت الذي كانت فيه بخير».

ثم تغيب عن الوعي مرة أخرى، وتتركني وعقلي الذي لا يكف عن الدوران.

-55-

أعود إلى الممر وأنا ألهث محاوِلة فهم ما قالته فيبي. كيف يمكن لأغنيتي أن تكون أغنية أمي؟ هذا مستحيل.

أخبر ممرضة عابرة أن فيبي قد أفاقت، فتهرع لتخبر الطبيب، وأعود أنا إلى حجرة استقبال العائلات كي أبحث عن الأغنية مرة أخرى عبر جوجل.

أجد رسالة نصية أرسلها روبرت لي منذ ساعات.

لأجل الله، أعيدي لكارولاين مفاتيح منزلها الاحتياطية. ولماذا هددتِها؟ رجاء الجئي لمساعدة طبية. لو تكرر هذا سأبلغ الشرطة.

أحدق إلى الرسالة وأتساءل عن مقصده. المفاتيح ليست معي وأنا لم أهددها قط. عمَّ يتحدث بالضبط؟ كدت أرسل له رسالة ثم توقفت. أريد أن أتحقق من حقيبتي في السيارة أولًا، وأتأكد أن أحدًا لم يأخذها. أنا لم أنم خلال اليومين الأخيرين، وبالكاد نمت خلال الأسبوعين الماضيين. لا يمكن أن أثق في أي شيء. لكني تأكدت أنني لم أدفع فيبي، مما جعلني الآن أقوى.

أنا لم أقتل أمي ولم أدفع أختي. أيًّا كان ما يحل بي، فالشخص الوحيد الذي آذيتُه هو أنا. يمكن أن ينتظر روبرت ومفتاح كارولاين قليلًا.

الأغنية تلاحقني. لا يمكن أن تكون نفس الأغنية. لا يمكن. أضغط على رابط المعلومات.

أغنية سويت بيلي بليجرم «شمعة وكتاب وجرس» أُطلقت عام 2015، وكتبها تيم إلسِنبرج. هذا غريب. كيف تغني أمي في منتصف الثمانينيات أغنية كُتبت عام 2015؟ كيف للأغنية التي تملأ عقلي أن تكون قد ملأت عقلها أيضًا؟ هذا ليس منطقيًّا!

تدس ممرضة رأسها عبر الباب وتقول لي: «ثمة شرطية في الطريق، في حال أفاقت فيبي مرة أخرى. ربما سترغب في سؤالك عدة أسئلة حين يستجوبونها».

أقول: «بالتأكيد. أنا بحاجة إلى جلب شيء من السيارة وسأعود خلال دقيقة».

موضوع المفاتيح هذا يضايقني مثلما تضايقني الأغنية. لماذا قد تكذب كارولاين؟

لقد سجلتْ لك.

يدور الخاطر كالدوامة في خلفية تفكيري. لقد سجلتْ لك، ثم ذهبتْ *إلى منزل زوجكِ وأسمعتْه التسجيل. هذا ليس طبيعيًّا*. أريد أن أتأكد أن المفاتيح معي، لكن إن لم تكن كذلك، فماذا يعني هذا؟

لماذا تريد كارولاين أن تؤذيني؟ هي مجرد امرأة أعادت لي محفظتي. أريد أن ألكم وجهي. هذا هو جنون الارتياب الذي يتهمني به الجميع. كارولاين شخص غريب، لماذا قد تريد إيذائي؟ هذا غير منطقي. وكيف غنَّت أمي نفس أغنيتي؟ كل ما أريد هو الهواء النقي وأن أجد المفاتيح. لا يوجد من يترصد بي. أنا أنهار.

اتصلي بالمصحة واحبسي نفسك.

لم أكن أريد أن أصادف الشرطة أمامي، لذا أتجه إلى قسم طب الشيخوخة، فأنا أعرف أن هناك مخرجًا لساحة انتظار السيارات من هناك. الوقت متأخر رغم ضوء الممرات الباهرة. أشعر أن المستشفى خارج نطاق المكان والزمان وسط هدوء الليل. المرضى نيام أو مستيقظون ينصتون إلى معاناة مَن حولهم. رائحة الديتول تحاول خنق رائحة المرض الكريهة. السعال والعطس والبكاء من آن لآخر. الكل ينتظر تفاؤل الفجر. أعرف كيف يشعرون. الإضاءة أكثر إعتامًا في الممر المؤدي إلى العنابر الخاصة. أشعر أن الوقت الذي يفصلني عن يوم إفلاتي من قبضة أمي كأنه دهر.

أحدق إلى الممر ويقشعر جلدي. كل شيء تهاوى منذ ذهبتُ لزيارة أمي. ربما بدأتُ أشعر بشعور غريب في الليلة التي سبقت علمي بإصابتها، وهذا أمر آخر يتجسد وسط أفكاري. لكن كل المشكلات الحقيقية بدأت بعد الزيارة. الورقة الملصَقة إلى سيارتي، الخدوش عليها، سرقة حقيبتي، الشعور أن

هناك من يترصد بي. أجراس إنذاراتي الداخلية راحت تصدح من وقتها، ولا تزال.

أدفع الباب المؤدي إلى القسم وأعبر منه، وقد قفز قلبي إلى حلقي. باب إحدى الحجرات مفتوح أمامي، وأسمع الممرضات يهدِّئن مريضًا. أهرع إلى المكتب وأمسح بعينَي دفتر الزيارات. لم أحتج إلى أن أبحث كثيرًا، فقد كانت هنا منذ ساعات.

كارولاين ويليامز.

أقلِّب الصفحات، وأجد أنها تأتي هنا يوميًّا. كارولاين. المرأة الغريبة. كانت هنا في اليوم الذي سبق مجيئي أول مرة لرؤية أمي. أنظر خلفي إلى واحدة من الحجرات جوار المدخل. أذكر أنني ذكرت اسمي بصوت عالٍ للممرضة التي أرادتني أن أسجِّل اسمي في دفتر الزيارات. أذكر أن هناك امرأة كانت تقرأ لامرأة أخرى في فراشها، وقد توقفتْ عما كانت تفعله حين رأتني. ظننت أنني أزعجتها بصوتي، لكن هل كان اسمي هو ما لفت نظرها؟

جسدي كله يرتجف. لكن لماذا؟ هل هي طليقة أحد الموكِّلين؟ هل كنت أصب تركيزي على ميراندا، بينما هناك مطلقة مجنونة أخرى أمامي طيلة الوقت؟ أغادر القسم سريعًا قبل أن تعود الممرضات، وأهرع إلى سيارتي. هواء الليل مثقل بالرطوبة، ومن بعيد يتعالى هزيم الرعد. تسقط أولى قطرات المطر، بينما أفتح السيارة وأفرِغ حقيبتي. أتحقق من كل أقسامها ومن حقيبة الغسيل وحقيبة أدوات الزينة، ثم أفتش جيوب معطفي. أنظر إلى ما خلف مقاعد السيارة في حال انزلقت المفاتيح، ثم أكرر ما فعلتُ مع كل زوايا السيارة ومخابئها. لم يتطلب الأمر وقتًا طويلًا، فهذه سيارة مؤجَّرة، ولا يوجد فيها الركام الذي يتركه أفراد العائلة في سياراتهم. أنا لم أسرق شيئًا.

إذًا لماذا تكذب؟ مَن تكون؟ كيف آذيتها؟

شيء يخدش باطن عقلي المرهَق. شيء قاله أحدهم. شيء كاد يلفت انتباهي ثم تشتت عنه. ماذا كان؟ ماذا... تتسع عيناي وتبرق الإجابة أمامي. نينا! هي نينا.

لكم غضبتُ حين لم يسمحوا لي حتى بتبنيكما، وبخاصة بعد المأساة التي جرت مع تلك العائلة...

كنت قد تفاجأتُ برغبتها في تبنينا، ولم أعِر لباقي عبارتها انتباهًا. أي مأساة؟ أخرج هاتفي. الإشارة ضعيفة. الساعة تقترب من الواحدة صباحًا، لكن ثمة أمورًا أحتاج إلى معرفتها، وهي الوحيدة التي تملك إجابة.

مأساة...

أغنية أمي...

تتكون الصورة أمامي. الحقيقة. قصة تنسج كل تلك الغرائب التي تحدث معًا، فينتج عنها المنطق وعكسه.

أشعر أن عقلي أكثر صفاء من أي وقت مضى خلال الأيام السابقة.

أريد أن أتحدث مع نينا. قدمي تضرب الأرض. ماذا سيحدث أكثر مما حدث حين أخبرُها بما أظن؟ هل ستحسبني مجنونة؟ ماذا إذًا؟ لتنضم إلى من يظنون بعقلي الظنون.

يقطع وميض البرق ستار المطر، وأسمع الهاتف يرد قبل أن يدوي الرعد. نحن لسنا في مركز العاصفة بعد.

مفاصل كفي بيضاء وأنا أقبض على المِقود. أرمش فأرى مفاصل بيضاء تقبض على وسادة في الظلام. أرمش مرة أخرى. أنا لست مجنونة.

لكن ربما أكون ابنة أمي حقًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-56-

تفتح نينا الخط بعد أربع رنَّات.

تقول: «إيما؟ هل أنت بخير؟».

- آسفة لاتصالي بك في وقت متأخر. أعرف أن الليل تجاوز منتصفه، و...

- أوه، أنا لا أخلد إلى الفراش قبل الثانية صباحًا، ولا أستيقظ مبكرًا. لا بأس. ماذا حدث؟

مطر الليل الدافئ ينهمر فوق السيارة، فأشعر كأنها تغلي. أشغل المُحرك والمروحة.

تسألني: «هل أنت في السيارة؟».

- أجل، لكن لا تكترثي، أنا لا أقودها. أريد أن أسألك سؤالين مهمين. أولهما عن شيء ذكرتِه أمس ولم أنتبه له وقتها.

قررتُ أن أسألها السؤال الأكثر تعقلًا أولًا، السؤال الذي سيمنحني ما أبني فوقه استنتاجاتي.

أكمل: «عندما قلتِ إن مؤسسة الخدمة الاجتماعية لن تسمح لك بتبنينا، قلتِ شيئًا عن مأساة مع عائلة. أي مأساة؟ لا أفهم!».

- أوه، إلهي...

أستطيع سماعها تتحرك، ثم أسمع صوت قداحة وزفير هادئ قبل أن تُكمل: «لقد كنت أفترض أنك تعرفين».

- ماذا أعرف؟

- أمر العائلة التي كانت ستتبناكِ، وما حدث لهم.

أتذكر الأم البديلة في دار رعاية الأطفال وهي تُجلسني وتخبرني بأنني للأسف لن أنتقل إلى بيتي الجديد اليوم.

فأقول: «لقد غيَّروا رأيهم».

أتذكر كسرة قلبي حين اضطررت إلى إعادة محتويات حقائبي الصغيرة إلى الخزانة، وأتذكر نظرة فيبي المُنتصرة. هل كانت حقًّا نظرة منتصرة؟ أنظر إلى الذكرى مرة أخرى، لكني أحلِّلها بعينَي شخص بالغ. أجل. هي بدت مسرورة، لكن يمكن أن يكون سرورها لأننا سنمكث معًا وقتًا أطول. ربما هي جُرِحت حين رأت سعادتي بانتقالي إلى حياة جديدة دونها. كل ما صرختْ به في وجهي ونعتي بالجنون، كان نتيجة جرحها ورفضها.

تقول نينا: «ربما كان هذا ما أخبروكِ به، وأتفهَّم تصرفهم هذا نظرًا إلى كل ما مررتِ به، لكن ليس هذا ما حدث. ما حدث كان رهيبًا حقًّا. مأساة. كانوا في طريقهم لاستلامك، لكن أصابهم حادث مروع، وتوفي الزوج، بينما نجت الزوجة لكنها أُصيبت بشلل في كلتا ساقيها».

يدور عقلي ويجف حلقي وأنا أسأل: «هل كان لديهما أبناء؟».

- أجل.

وكنت أعرف الإجابة قبل أن تنطقها.

- طفلة صغيرة، تكبرك بعامين. خرجت من الحادث من دون إصابات. كانت في المقعد الخلفي، ولا أظن هذا حماها تمامًا من أي خدش. السائق الآخر المُتسبب في الحادث قد هرب، وتركها وحيدة مع والدها المتوفَّى وأمها المصابة لمدة نصف ساعة على الأقل كما أعتقد. لا بد أن هذا كان مُريعًا.

مريعًا كفاية ليصيبك بالجنون.

كل شيء يتسق مع بعضه وأنا أفكر في حمام المعاقين الذي لم تغيِّره كارولاين بعد في منزل أمها. الانتقال إلى وظيفة التمريض المحترف هو أفضل خيار عملي لو أن التمريض هو ما ستفعله طيلة الوقت. أتذكر صورة أول يوم دراسي لها. بدوا جميعًا سعداء فخورين. عائلة كاملة. ثم ظهرتُ أنا وأفسدتُ كل شيء. بمَ شعرَت حين سمعتني أهتف باسمي في المستشفى بينما تقرأ لأمها؟ ليس اسمي بعد الزواج، وهو لا يعني لها أي شيء، بل اسم

إيما بورنيت. الشخص الذي تتخيل أنه سبَّب دمار عائلتها ووفاة والدها هنا في نفس المكان، وجمعتْهما الصدفة.

لم يكن هذا ذنبي، وواضح أنه لم يكن ذنبي، لكن لخمسة وثلاثين عامًا، ظلت كارولاين تلومني.

تقاطعني نينا: «إيما؟ أما زلتِ هنا؟».

- معذرة. أجل، أنا هنا. شكرًا لك، لقد ساعدتِني كثيرًا.

أصمت قليلًا، ثم أضيف: «ثمة أمر آخر. ربما ستظنين أنني مجنونة...».

- قولي.

يضرب لسان برق السماء لثانية، فيشقُّها، ويهطل المطر فوق زجاج السيارة.

- هل تؤمنين أن الزمن يسير في خط ذي اتجاه واحد؟ أم هناك خلل قد يحدث؟

- حسنًا. هذا سؤال صعب.

أسمعها تسحب الدخان من لفافتها قبل أن تضيف: «لا أعرف الكثير عن فيزياء الزمن، لكني أؤمن أن عقولنا قادرة على فعل ما هو أكثر مما نألفه عنها. والزمن هو مفهوم يعجز العلماء حتى عن فهمه بدقة. أعرف أشخاصًا قد حلموا بصديق يودِّعهم، وحين استيقظوا عرفوا أنه قد مات. أعرف أشخاصًا يعتقدون أن ظاهرة «شوهد من قبل» ما هي إلا لمحة من المستقبل. قارئو أوراق التاروت -ولا أقصد هنا المشعوذين- يعملون اعتمادًا على الشعور بالمستقبل أكثر مما يعتمدون على رؤيته. أحيانًا ما يرى البعض -تحت تأثير حالات عاطفية حادة- لمحات من أزمة قادمة. زوجات الصيادين الذين يرجون أزواجهن ألا يذهبوا إلى البحر بسبب حلم أو شعور بالفزع، ثم لا يعود هؤلاء الأزواج بالفعل بعدها. لمَ تسألين؟».

- هل تعتقدين أن هذه الثغرات الزمنية، هذا الحدس، أمور موروثة لدى بعض العائلات؟

أظنني أعرف الإجابة، لكني أريد سماعها من شخص آخر لديه كتب عن كل تلك الأشياء الغريبة.

- بالطبع. أكاد أجزم بذلك. شيء يسري في الحمض النووي.

أقول لها: «شكرًا لك. شكرًا جزيلًا لك. لقد ساعدتِني كثيرًا. يجب أن أرحل الآن».

- لكن... إيما، ماذا...

أغلق الخط وأحدق خارج النافذة. ماذا أفعل؟ أعود إلى المستشفى وأحاول إقناع الشرطة بأنني لست مرتابة هذه المرة؟ بأنني موقِنة أن هناك من يحاول إيذاء عائلتي وأن عليهم أن يرسلوا شخصًا لمساعدتهم؟

أتصل برقم روبرت، فيرن ويرن ويرن. أجرب رقم كلوي، فتُحوَّل المكالمة مباشرة إلى الرد الآلي. كارولاين في منزلي. هذا هو السبب الذي زعمتْ من أجله أن لدي مفاتيحها. لقد ذهبتْ إلى روبرت، إلى الملجأ الآمن من تلك الزوجة المجنونة التي يمكن أن تظهر عند باب بيتها في أي وقت.

هي في بيتي لتؤذي عائلتي.

أفكر في أمي. في نفسي. في رسومات ويل.

لقد كنت خائفة من أن أكرر الماضي، لكن ماذا لو أنني كنت أرى كل شيء من المنظور الخاطئ؟

ماذا لو أن للماضي علاقة بالمستقبل؟

قالت فيبي إنني كنت أغني أغنية أمي. أغنية لم تُكتب قبل مرور ثلاثين عامًا بعد غناء أمي لها. لذا، هناك طريقة واحدة تُمكِّنها من معرفتها.

الأمر كله عبارة عن إنذار. لمحات من حدث مروِّع سيحدث في المستقبل.

أنظر إلى ساعة لوحة العدادات.

الوقت تجاوز الواحدة صباحًا. أنا على بعد نصف ساعة من بيتي. أفكر في أرقام أمي وأنا أنطلق بالسيارة.

.113155218222

المزيد من قِطع الأحجية تتراص في أماكنها.

1:13 صباحًا. 1:55 صباحًا. 2:18 صباحًا. 2:22...

يجب أن أعود إلى البيت قبل الثانية واثنتين وعشرين دقيقة. *الوقت* يجري.

أنطلق عبر العاصفة.

-57-

كارولاين

أدخل المطبخ، وأنا مبللة بالمطر، وأرمي برطمان العسل الفارغ في القمامة. لقد تركتُ مفاجآت حُلوة كالعسل بالخارج، حلوة لدرجة أنها قد تلدغ كالنحل. ملابسي ثقيلة، ملتصقة بجلدي، وشعري الطويل محمَّل بالماء، لكني لا أهتم. المطر منعش والطقس مناسب لخِططي. أنا العاصفة التي ستوقِع الخراب.

أغلق الباب بسرعة، لكن المطر يظل يتدفق إلى الداخل ويبلل الأرضية. هي عاصفة متوحشة وأنا أحب صوتها إذ يضرب البيت، ويهاجمه من الخارج، بينما أهاجمه أنا من الداخل. أوصِد الباب وأدس المفتاح في جيبي. كل شيء جاهز. يمكنني أن أسترخي.

لا أعرف لماذا كانت تشكو إيما من الأرق. كم هو مُهدئ للأعصاب أن يكون المرء مستيقظًا وحده في منزل مظلم. أحيانًا ما يكون الليل هو الوقت الوحيد الذي نكون فيه أنفسنا. وهأنذا، أخيرًا.

إيما.

إيما الحلوة. إيما الجميلة الصغيرة. ستحبينها. حقًّا ستحبينها.

حسنًا. لقد كنتما مخطئَين في هذا يا والديَّ العزيزين. أنا لم أكن متحمسة قط حتى من قبل أن أقابلها، والآن ليس لدي لإيما سوى الازدراء.

لقد سرقتْ حبيب أختها وتزوَّجتْه. أبقت زوجها مقيَّدًا. ابنتها ماجنة. لكن بالطبع كل شيء يدور في فلك إيما التي تحصل على كل ما تريد. المستقبل المهني، المنزل، العائلة، ومع ذلك لا تزال شكَّاءة. ليست لطيفة على الإطلاق.

أجلس في مطبخها المُتباهي وأشرب من زجاجة النبيذ. لا داعي للعجلة. لقد شربوا جميعًا مشروب الشوكولاتة الساخنة. الكل يحتاج إلى مشروب مهدئ في الأوقات العصيبة، أليس كذلك؟ هذا ما قلتُه لهم. هم بحاجة إلى مشروب يساعدهم على النوم. الكل يثق في الممرضات، وبخاصة الممرضة التي تشاركهم أزمتهم.

لا داعي للمنوِّم هذه المرة.

لقد وجدتُ أقراصها المنوِّمة حين دخلتُ حمام الطابق السفلي، فطحنت بعضها ووضعتها في منديل ثم دسسته في جيبي. هكذا يسهل إضافته. روبرت لا يراقبني، فأنا لست زوجته المجنونة. أنا ممرضة محترفة. كلوي كانت في حجرتها محمرَّة العينين لأنها فشلت في تدمير زواج، وويل ما زال طفلًا صغيرًا متجهمًا. تأكدتُ من أنهما قد شربا مشروبهما. أخذ روبرت كوبه وصعد إلى حجرته، وحين تحققتُ منه وجدته فارغًا. هو رجل اعتاد طاعة الأوامر أكثر مما توقعت.

لا أصدق أنه تركني أدخل. *أوه، أنا قلقة بعض الشيء. لديها مفاتيحي* وقد هددتني. *هل يمكن أن... حسنًا. أعرف أنك لا تعرفني، لكن هل يمكن أن أمكث هنا؟ لم أشأ أن أتصل بالشرطة. أنا واثقة أنها لم تقصد أذيتي. هي لديها ما يكفيها* من مشكلات *ولا أريد أن أورطها في* المزيد. الرجال فقط هم من يصدقون هذا الهراء. لو أن امرأة شعرت بتهديد لاتصلت بالشرطة وانتهى الأمر. لكن يمكننا الاعتماد دائمًا على متلازمة الفارس الأبيض في تحميل الرجال عبء الحماية، بالإضافة إلى أنه يعتقد أنها مجنونة على أي حال. لقد وقع في الفخ.

والآن ها أنا وحدي. أستمتع باللحظة، وأحدق إلى العاصفة بالخارج.

أبتلع المزيد من النبيذ الفاخر. بالطبع لا تسمح ميزانيتي بنبيذ مشابه. هناك زجاجتان غير هذه في البراد. لم أتفاجأ أنها تشرب هذه الكميات، فهي من هذا النوع الذي يحب الشرب.

المفترض أن أبدأ. لا بد أنهم غائبون عن العالم بالأعلى. أفتح مشغِّل الموسيقى وأضع السماعات في أذنيَّ، ثم أشغِّل أغنية «شمعة وكتاب وجرس»، أغنية اللحظة. على الأقل هي منحتني أغنية. الكلمات تملأ رأسي، فأدندن معها بينما تغزوني الأنغام.

أنظر إلى الساعة فوق الموقد. 1:13. يضرب البرق بالخارج، وينير المكان بوميض أبيض. أعود إلى الباب الخلفي وأهز المقبض. أتأكد أنه مغلق. إلهي! هو مغلق. أهزه مرة أخرى لأتأكد. أغمغم مع الأغنية وأنا أعيد تشغيلها مرة أخرى من البداية، وتسري الكلمات في عروقي كمخدر.

الخيارات والظهور المكسورة تصير حقائق، وتلهي القلب عن أفعال اليد، وتوقفه عن...

أجول في منزلها، في حياتها، في مكتبها. لقد رأيتها فيه من الخارج. الصالة مكان خاوٍ بلا حياة، لا تقضي فيها العائلة وقتًا حميمًا. أتحقق من النوافذ وأبواب الشرفات فأجدها موصدة. أستطيع أن أرى الزجاج المكسور يومض تحت المطر، فقط في حال احتجت إليه.

أعود إلى الداخل وأصب بعض النبيذ على الأرائك الأنيقة. لا يريد أحد أرائك باردة، غير مريحة، غير مرحِّبة كهذه. وجودها من لزوم الوجاهة. ما دام *منزلك يعكس نجاحك، فلا يهم أي شيء آخر. أليس كذلك يا إيما؟ على الأقل سيبدو جميلًا في الأخبار لو أنهم أرادوا أن يلتقطوا صورًا بالداخل.*

أعود إلى الممر وأرمي زجاجة النبيذ على الأرض، لكنها لا تنكسر. فقط ترتطم بالأرض بصوت مكتوم ثم تستقر جوار الخزانة أسفل الدرج. هناك المزيد من النبيذ في البراد.

انظر، انظر، انظر... شمعة وكتاب وجرس...

ربما سأحصل على دَفعة أخرى الآن. لدي وقت. الليل ملكي.

أفتح البراد وأخرِج زجاجة من نبيذهم، أفتحها، أتناول جرعة كبيرة منها. عيناي توخزاني. أعيدها إلى مكانها بعد أن أغلقها، ثم أخرِج البيض. أنا الآن أترك العنان لنفسي، أشعر كأنني عدت طفلة.

لا يمكن صنع العجة دون كسر بعض البيض. هكذا كان قول أبي وهو عادة يشير إلى معنى آخر يُفهم من السياق.

أنا أصنع العجة الآن يا أبي. أحدق إلى العاصفة الرهيبة وأفتح العلبة. بينما تصدح الموسيقى أخرِج بيضة وأمسكها في يدي الممدودة أمامي، ثم أفلتها فتهوي متهشمة على الأرض، كما تهشم جسد أبي. أحاول ضبط توقيت كسر البيضة التالية مع هزيم الرعد. *كراك*. *كراك*. *كراك*. انتهيت، وأكملت الفوضى. ماذا قد تستنتج الشرطة من هذا؟

ربما سيظنون أنني مجنونة، وهذا ليس أمرًا سيئًا. الحبس في وِحدة مُؤَمَّنة أفضل من الحبس في سجن. لا مشكلة لي مع السجن؛ حتى السجن يمكن أن يكون مريحًا. أكثر راحة من حياتي الحالية.

تبدأ الأغنية مرة أخرى، فأغني معها. المفترض أن أبدأ الحفل. أخرج إلى الصالة، والموسيقى عالية في أذنيَّ.

سأبدأ بالولد.

-58-

إيما

الساعة 1:45 وأنا أوقِف سيارتي بسرعة فتُطلِق العجلات صوت صرير طويل. أترك السيارة في الشارع وأهرع تحت المطر الكثيف إلى باب منزلي الأمامي. عقلي صافٍ. المستحيل يصير ممكنًا إذ تندمج الأزمنة من حولي. أمي، أنا، كارولاين. كلنا حاضرات. لطالما كنا حاضرات معًا.

يتصادم الماضي والحاضر والمستقبل.

هذه هي الذروة. الدقيقة الحاسمة التي لا يمكن أن أفقدها.

الزمن يتعلق وسط العاصفة. البرق والرعد يتحِدان، يهدِّدان بهدم السماء بينما أفشل في فتح الباب بالمفتاح. هناك من أغلقه من الداخل.

أطرق الخشب الصلب بقوة. أدق الجرس.

لا مجيب. لا مجيب.

سيارة روبرت هنا، إذًا هو في المنزل. كلهم بالداخل. أعود إلى الشارع فأرى سيارة كارولاين تقف بعد المنزل المجاور. هي بالداخل. أعرف هذا. أعرف لأن الليل يتسرب خلال الزمن كإنذار ينز في عقل أمي مثل نزيف في المخ، ويقودها إلى الجنون. الحدث الخبيث هنا في ليلة عيد ميلادي الأربعين. لقد جاء قاصدًا عائلتي.

ويجب أن أوقِفه.

أتصل بالشرطة وأصرخ تحت المطر باسمي وبأن هناك دخيلًا في منزلي يحاول إيذاء عائلتي. ثم أطرق الباب الأمامي مرة أخرى.

أصرخ: «افتحي يا كارولاين! أعرف ما تفعلين!».

تبتلع العاصفة صرخاتي وتغرِقها تحت صوت الرعد. هذا عبث. أصرخ مرة أخرى، ثم آخذ شهيقًا. أحتاج إلى أن أفكر. لا يوجد مدخل من هنا؛ يجب أن أدور حول المنزل.

البوابة الجانبية عالية، يبلغ ارتفاعها قرابة سبعة أقدام، بينما طولي خمسة أقدام وثلاث بوصات. لا مجال لأن أقفز من فوقها. أنظر إلى الفراغ جوار المرأب حيث نضع صندوق القمامة الطويل. أجرُّه نحو البوابة الجانبية، وأصعد فوق غطائه السميك الزلق بفعل المطر. أنا لم أمارس تلك الأفعال في طفولتي ولا فكرة لدي عنها. أقبض على طرف البوابة العلوي، فأشهق وأبعد يديَّ سريعًا. كفاي تنزفان. ثمة شظايا زجاج موضوعة أعلاه. *هل هذه زجاجة حليب مكسورة أخرى يا كارولاين؟* كيف فعلتِها رغم هذا الطقس؟ أمد يدي إلى أعلى بحرص أكبر وأحاول أن ألمس ما فوق السور. الزجاج مثبَّت إلى مكانه بشيء لزج سميك. أقرِّب أصابعي من أنفي. رغم العاصفة، الرائحة الحلوة ما زالت واضحة. عسل. عسل المانوكا السميك الخاص بروبرت.

أجذب كُمَي إلى أسفل ثم أدفع بهما ما أستطيع من الزجاج. أضع ساقًا فوق السور وتنغرس باقي الشظايا في قميصي وأنا أميل إلى الأمام. أغلق عينيَّ وأنا أطوِّح ساقي اليسرى وأقفز إلى الأرض. تقعقع عظامي من أثر التصادم، لكني أستقيم واقفة وأتخبط في مشيي السريع نحو الباب. أجذب المقبض وأهزه، فأجده موصَدًا. أركله بقوة مرتين لكنه لا يتزحزح. أحتاج إلى مساعدة. أين الشرطة بحق الجحيم؟

أخرِج هاتفي من جيب بنطالي الجينز المبتل، وأتصل بهم مرة أخرى.

أقول: «الشرطة؟ رجاء... أحتاج إلى مساعدة. أنا إيما آفريل. اتصلتُ منذ خمس دقائق. عائلتي... هناك دخيلة بالمنزل...».

يصدر صوت قعقعة من الطرف الآخر، فأصيح مجددًا قبل أن ينقطع الخط. أعاود الاتصال، لكن كل ما أسمع هو الصمت. أنا وحدي. يجب أن أدخل. أبنائي. يجب أن أصل إلى أبنائي. يجب أن أصل إلى ويل.

-59-

كارولاين

الولد ليس في فراشه.

كوب الشوكولاتة الساخنة فارغ جواره، في المكان نفسه الذي رأيتُه فيه حين تحققت منه سابقًا، لكن أستطيع أن أرى الآن الموضع الذي أفرغ الولد فيه محتويات الكوب بين الفراش والحائط. ولد ماكر، ماكر! هو شرب بعضًا منه، أعرف هذا لأنني تأكدت ورأيته، لذا فأيًّا كان المكان الذي ذهب إليه، فهو ناعس الآن.

ليس تحت الفراش سوى ديناصور بلاستيكي يحدق إليَّ، والولد ليس في الخزانة. أبحث في كل ركن، ولا أجده في حجرته.

المزيد من البرق يضيء بالخارج، وأنا أدندن مع الأغنية في أثناء بحثي.

انظر.. انظر.. انظر.. شمعة وكتاب وجرس.

هل الموسيقى مسموحة في السجن؟ أنزع السماعات على مضض، وتصير الموسيقى همسات حول عنقي. أنصت. لا شيء. أخرج إلى الصالة وألقي نظرة داخل حجرة كلوي خلال الباب المفتوح، فأراها مكوَّمة على فراشها، مكتئبة، وثمالة كوبها تُبقِّع الغطاء. بالنظر إلى رقعة البصاق والفوضى على قميصها، يمكن أن أقول إنها أُصيبت بالغثيان. هي محظوظة أنها فقدت الوعي جالسة، فتمكنتْ من التنفس فترة أطول. لا بد أنها شربت بعض الكحوليات، وهو خليط غير موفَّق مع الحبوب المنوِّمة.

أتركها في غيبوبتها وأعبر الممر مبتعدة عن غرفتَي الطفلين. أين ذهب هذا الخراء الصغير؟ إلى أبيه؟ أدخل حجرة روبرت فأجده يُشخِّر وهو ينام كالأطفال، مُحتضنًا وسادة كأنها دُب محشو، أما الوسادة الأخرى على جانب الفراش الخالي تبدو مُغرية. هل أتخلص منه الآن؟ كلا. خطتي هي أن أبدأ بالأصغر أولًا، بالإضافة إلى أنه لا يُريحني اختفاء الولد.

أنظر إلى الحمام المُرفق بالحجرة فلا أجده، ولم أرَ له أثرًا في الحجرة الإضافية أو الحمام الرئيس. هذا المنزل مصمم لمُضايقتي. كم يحتاج هؤلاء القوم من مُتسع؟! أعود إلى حجرة روبرت لأمسح المكان مرة أخرى وأفحص سلة الغسيل في الركن. لا أثر للولد. لا يمكن أن يكون قد خرج وأنا أوصدت الباب الخلفي بعد دخولي واحتفظت بمفاتيحه ومفاتيح الباب الأمامي معي.

أهمس...

اخرج، اخرج.. أينما كنت!

أجلس على طرف الفراش وقد تزايد حنقي.

وكأنما جاءني الرد، سمعت صوت ارتطام آتٍ من الطرف الآخر من الممر. أعقد حاجبيَّ؛ هذا الصوت أضخم من أن يصدر عن طفل بالتأكيد. أخرج وأنظر عبر النافذة الضخمة إلى الأسفل. تصل إلى أذنيَّ أنَّة حائرة مُحمَّلة برثاء النفس. لا بد أنني أقلقت كلوي حين دخلتُ حجرتها.

أنظر إليها وهي تدخل مجال رؤيتي، مُستندة إلى الحائط كي تُقيم عودها. رأسها يتأرجح وهي تتقدم نحوي. لا بد أنها عازمة على الاتجاه نحو الدرج، ولا أعرف إن كان عليَّ أن أختفي عن نظرها وأتركها تهوي ويُدَق عنقها. ثم تراني عيناها الغائمتان، وتتسعان في ذعر إذ أبتسم لها، فتشهق. تُرى كيف أبدو؟ مُبتلة، شعري الطويل يغطي وجهي إثر انحنائي المُتكرر للبحث أسفل الأسِرَّة، أبتسم لها في الظلام.

تتخاذل ركبتاها للحظة، لكنها تتماسك وتستدير مترنحة نحو النافذة، كأن فيها خلاصها.

أتنهد وأقول: «أوه، كلوي. أنت حقًّا مراهقة مُثيرة للمشكلات. في وسعك أن تستسلمي، وستنامين مرة أخرى خلال دقيقة. أستطيع أن أرى هذا من مكاني. وإن كنت تظنين أنني سأجرك إلى الفراش مرة أخرى، فأنت مخطئة».

أراقبها وهي تضغط جسدها إلى النافذة كأنها ستستطيع الفرار بهذه الطريقة.

-60-

إيما

حجر. حجر من الحديقة هو كل ما أحتاج إليه، أو أي شيء آخر أستطيع تحطيم النافذة به. الريح تتسارع وتضرب جسدي بالمطر وأنا أعدو نحو نهاية الحديقة وتنزلق قدماي على العشب الطيني الزلِق، حتى أهوي على ركبتيَّ وأمد يديَّ إلى الأحجار الثقيلة وأنا ألعن نفسي لأننا لسنا من نوعية الناس الذين يتركون في ركن ما أحجارًا متبقية من تجديدات سابقة.

تتقطع أنفاسي وأشهق من حنقي المكبوت حين أدرك أن الأحجار مُثبَّتة إلى الأرض بالأسمنت كي تُشكِّل التصميم الجمالي المطلوب. أعجز عن جذب واحدة منها. أنظر إلى ساعتي فأجدها 1:54 صباحًا. ماذا سيحدث حين تصير 1:55؟ ركزي يا إيما في البحث عن طريقة للدخول. أفكر وقلبي يتقافز بين ضلوعي.

البِركة.. بِركتنا الصناعية المنسية، التي ماتت الأسماك فيها ولم نعبأ بملئها مرة أخرى. هناك حصى كبير في أرضية البِركة. أتعثر وأنزلق وأنا أعدو نحو الجهة الأخرى من الحديقة محاوِلة شق طريقي وسط الظلام وانهمار المطر. يشق لسان البرق السماء فيضيئها، ثم يتبعه آخر بعد ثانية واحدة، فأنظر نحو المنزل وأكاد أتصورها تهجم عليَّ، لكن لم يكن هذا ما رأيته.

كلوي!

الساعة 1:55 صباحًا، وأرى كلوي -وقد أضاءها البرق- تضغط جسدها إلى النافذة الكبيرة، وكفاها مفتوحتا الأصابع في مستوى وجهها، كأن شرطيًّا قد أوقفها بهذه الطريقة كي يلقي القبض عليها. أرى فمها مفتوحًا على هيئة دائرة.

الأزمنة تندمج. أستطيع أن أشعر بالزجاج تحت أصابعي، وبالبساط أسفل قدميَّ. لقد نظرت عبر هذه النافذة، وكنت متأكدة من أن هناك مَن في الحديقة ينظر إليَّ، شخص يحاول الدخول. هل تراني كلوي؟ هل كنت أنا بالأسفل طيلة الوقت، أنظر إلى أعلى وأحاول الدخول؟

هل هذا ما كانت تراه أمي حين وجدتْها نينا تقف مثلما تقف كلوي أمام النافذة، ومثلما فعلت أنا؟ هل كانت تراني وقتها في الساعة الواحدة وخمس وخمسين دقيقة، بينما أنا أجذب ساقيها وأصرخ فيها؟ هل كانت تراني الآن وأنا في الحديقة؟

أنزل إلى البركة فيصل الماء البارد إلى فخذيَّ. أجثم وأنا أحاول انتزاع الحصى الناعم في الأرضية. *أنا آتية يا كلوي*. أرى ابنتي تتهاوى أمام النافذة. *ماما قادمة*. ما زال لدي وقت حتى الساعة 2:22. يجب أن أدخل إلى المنزل قبلها. كل خلية في جسدي تصرخ بهذه الحقيقة. أفكر في أمي، أشعر بكفها القوية تقبض على رسغي في المستشفى. أستدعي قوتها هذه إلى جسدي وأحرِّر حجرًا.

-61-

كارولاين

أنزِل كلوي على الأرض وأتركها تنام مُستندة إلى الحائط، محنية العنق متباعدة الساقين كعاهرة ثملة، كحقيقتها. أظنني سأنهي حياتها على هذه الوضعية. لا أظنها تستحق أي احترام. ابنة أمها حقًا. تريد وتريد وتريد، ثم تأخذ وتأخذ وتأخذ.

وزن فاقد الوعي ثقيل. أفرد ظهري وأمدده. خلال ومضة برق يلفت نظري شيء خلال النافذة. شخص يتعثر على الممر. *إيما*. لا بأس أبدًا. هي تحمل شيئًا. ما هو؟ حجرًا؟

أهمس إلى كلوي فاقدة الوعي: «ماما جاءت».

ثم أستدير وأهبط الدرج كي أرحب بضيفتي.

يزداد غضب العاصفة ويضيء البرق مرة أخرى. أتجه إلى المطبخ وأرى وجهها الحانق المذعور على الجهة الأخرى من النافذة. مبتلة، شعرها كتلة من الفوضى. تتجه إلى الباب الخلفي ولا تراني. أقترب وأسمع لهاثها وهي تحمل الحجر الثقيل. لا يمكنها أن تؤدي وظيفة شاقة كوظيفتي. لن تتحمل يومًا. يضرب الحجر زجاج النافذة السميك ولا يؤثر به. تحاول مرة أخرى بقوة أكبر وهي تنخر كلاعب تنس.

سينكسر الزجاج على أي حال، وحين ينكسر سأكون مستعدة.

-62-

إيما

أرمي الحجر مرات ومرات نحو الباب، ثم أخيرًا... أخيرًا تنكسر نافذته. ألكم الزجاج المشروخ وأمد يدي عبر الفتحة. المفتاح ليس فيه. أمد أصابعي نحو الرف الجانبي حيث يضع روبرت المفاتيح، لكني لا أستطيع الوصول إليها. لا وقت.

أدفع نفسي خلال الفجوة، تمزِّق شظايا الزجاج جسدي وتخترق بنطالي الجينز إلى فخذيَّ. أدفع جسدي كاملًا، وأهوي ككومة مبتلة على أرضية المطبخ. أقف مترنحة على قدميَّ. الأرض زلقة. بيض... ثمة بيض مكسور على الأرضية. *كراك، كراك، كراك.*

أتقدم أكثر ثم أسمع: «مرحبًا إيما».

ألتفت في جزع فأجدها خلفي. كارولاين، باسمة وشعرها يتدلى طويلًا متهدلًا ويخفي وجهها.

أسألها: «ماذا تفعلين هنا بحق الجحيم يا كارولاين؟».

- أفعل هذا...

تخطو أمامًا فجأة، وقبل أن أتراجع، تلكم جانبي. أتقهقر وأنا أمسك مكان الضربة. أتعجب لدفء السائل الذي شعرت به تحت كفي. كيف يكون دافئًا؟ ولزجًا؟ بينما تخذلني قدماي. أرفع يدي أمامي في الظلام.

أصابعي مكسوة بسائل داكن. دم. هذا دم! إلهي!

أتهاوى على الأرض، لكني أحاول الإمساك بساقيها، فتركل يدي بعيدًا. أرتكن إلى خزانة المطبخ وأنا أضغط كفي على مكان الطعنة. *لقد طعنتني*. الدم يندفع في دفقات من بين أصابعي، فأبتلع صرختي. إذ تتراجع الصدمة، يتقدم الألم. هذا ليس مؤشرًا جيدًا على الإطلاق.

أحاول أن أشغلها. أين الشرطة؟

أسألها: «ماذا فعلتِ بعائلتي؟».

أضغط كفي أكثر محاوِلة أن أبقي الجرح مغلقًا. تضع كارولاين السلاح على منضدة المطبخ، فأتبين أنه قطعة زجاج سميكة طولها بضع بوصات.

ربما سأنجو... ربما.

قالت: «لم أفعل شيئًا بعد، لكني أسوِّي الحسابات يا إيما».

تفتح البراد وتُخرج زجاجة نبيذ مفتوحة، فتأخذ جرعة كبيرة منها، ثم تضعها على الطاولة.

وتكمل: «لقد بدأتِ أنت بإيذاء عائلتي».

- أنا لم أفعل شيئًا! لقد كان عمري خمسة أعوام.

معدتي باردة، كأن هناك ثلجًا يذوب بداخلها.

تقول: «لطالما كانت أمي تتكلم بعد الحادث عن القدر. لا تغضبي. يجب *أن تتقبلي ما يمنحه لك القدر*. لا يمكن *أن تغيري شيئًا*. كانت تكرر هذا الهراء مرارًا. رغم عشقي لها، فإنني كنت أرغب في خنقها؛ كانت دائمًا مبتهجة. *هذا ما كان سيريده والدك*. لكنها كانت مخطئة بالطبع. لن يرغب هو أبدًا في أن يموت مُعذَّبًا بعد أن هتك مقود السيارة رئتيه قبل أن يبلغ الخامسة والأربعين».

تضحك، ثم ترشف النبيذ وتتابع: «لم يكن القدر هو المتسبب في كل هذا، أليس كذلك؟ السبب هو أنني وأمي لم نكن كفاية بالنسبة إلى أبي القديس. كان يريد أن يشارك منزلنا مع طفل آخر. كان يعتقد أن أمي أفسدتني. كان يظن أنني باردة أفتقر إلى التعاطف وأحتاج إلى من أرعاه. من الواضح أن أمي لم تكن توافقه، فقد كانت تحبني بقدر ما أحبها، لكنها أحبته هو أكثر.

راح يدفن الفكرة في باطن عقلها حتى سايرتْه، ثم صار كل الحديث عن «إيما، إيما، إيما»».

تنظر إليَّ ويعم وجهها ثورة مفاجئة قبل أن تُردف: «وانظري إلى أين قادهم هذا. إلى قبر ومقعد متحرك. كنتُ غاضبة للغاية وأنا مقيدة إلى المقعد الخلفي. أتذكر هذا جيدًا. الشمس الساطعة. ثرثرة أبي بينما أحاول كبت حنقي. أصابتني نوبة غضب قبل أن نغادر المنزل. صرختُ وكسرتُ الأشياء، لكن لأول مرة لم يؤثر غضبي فيهما. هي *لطيفة للغاية. إيما. اسم جميل لكائن صغير جميل*. لقد وقعا في حبك -حتى أمي- وتوقعا أن أحبك، وكأنني أهتم لحياتك المأسَوية! لقد كانا أبويَّ أنا. لم يكن هناك متسع لك!».

تنبض أحشائي – *لقد طُعنتُ. إلهي، لقد طُعنت بشظية زجاج كما طعنتْ أمي نفسها بشظية زجاج*- أتخيل ما كان سيحدث لو أنني كنت قد عشت مع عائلتها، وصارت كارولاين أختي الكبرى بدلًا من فيبي. ماذا كان سيحدث لي هناك؟ كأنني كنت سأخرج من عذاب المقلاة إلى سعير النار مباشرة... المقلاة... هل هناك أي مقلاة بالقرب مني؟ شيء أستطيع استعماله كسلاح؟

أبعد يدًا عن جرحي كي أفتح بها الخزانة جواري، لكنها تحركت سريعًا ودعست أصابعي بحذائها. الألم حاد حتى إنني أصرخ وأنا أسحب يدي.

تكمل وكأن شيئًا لم يحدث، والألم يعتصرني: «ثم اصطدمت السيارة الأخرى بسيارتنا. بعدها سمعت أبي يزفر أنفاسه الأخيرة، وأمي تئن وترتجف وهي تغيب عن الوعي وتعود إليه. وقبل أن أدرك كم دُمرت حياتي، رغبت في أن أميل نحو مقعديهما وأصرخ: *هل رأيتما؟ أتمنى أن تكونا قد تعلمتما الدرس*. القدر؟ كلا، أنا لم أؤمن قط بالقدر. ليس قبل تلك اللحظة التي سمعت فيها اسمك يتردد في ممر المستشفى. *«إيما؟ ابنة باتريشيا بورنيت الأخرى؟»* لم أصدق. إيما بورنيت. كأن دلو ماء مثلج صُب على رأسي. لقد كنت صغيرة على أن أتذكر اسمك بالكامل، فقد سمعته مرة أو اثنتين. كنت قد بحثت في أوراق أمي من قبل عن شيء يقودني إليك، لكنها كانت قد تخلصت من كل أوراق التبني بعد الحادث، وبعد فترة، نسيت فكرة أن أعرف من تكوني أو مكانك. ثم سمعت اسمك في المستشفى وتذكرتُك. إيما بورنيت. هذا كان اسمك».

أقول لها: «أي من هذا لم يكن ذنب عائلتك، أو ذنبي. أنا حتى لم أكن أعرف شيئًا عن الحادث. أنا...».

- أوه، كفاكِ نواحًا يا إيما. هذه هي اللحظة المُنتظرة.

تنظر نحو جرحي وتردف: «يمكنك أن تضغطي هذا الجرح كما تشائين، لكني واثقة أنني أصبتُ كبدك للأسف. كنت آمل أن تنجي، لكن لا تلوميني».

تطوِّح لي بمنشفة مطبخ وهي تضيف: «ربما تساعدك هذه على العيش فترة أطول؛ أريدك أن تسمعي هذا».

كبدي، *إلهي*، كبدي! أضغط المنشفة أكثر على أي حال. ربما لم تُصبها، فقد مِلت قليلًا حين هاجمتني. ربما سأكون بخير. *ربما*...*ربما*. أعتقد أن البرودة في معدتي تنتقل إلى باقي جسدي.

تكمل: «تبعتكِ. كنت أريد أن أعرف ما فعلتِه بحياتك بعد أن أهلكتِ أمك وأمي. خلال ساعة رأيتك تتشاجرين مع فيبي ثم مع امرأة مسكينة خارج مقر عملك بينما ترتدين قناع النسوية. أذكر أنني كنت أتمتم وأنا أخدش سيارتك بالمفتاح: *ما دمتِ على حق يا إيما، فلتذهب أخوَّة النساء إلى الجحيم*. كتبت الوريقة ودسستها تحت المسَّاحة. كنت بالنسبة إليَّ شخصًا فجًّا، لكني اكتفيت بالكلمة الأكثر دقة: عاهرة. وقعها أفضل. لقد جمعنا القدر لسبب، لذا تبعتك ورأيت هذا المنزل وزوجك وأبناءك وأصدقاءك. كل هذا مثالي إلى حد السُّخف».

أقول: «لا شيء مثالي في كل هذا».

عدا *أبنائي*. أوه، أطفالي. أين هم؟ أين روبرت؟ لماذا لا يحميهم؟

تقول: «البعض لا يستحق ما لديه. يأخذون كل شيء، ثم يفلتون دون أن يمسهم شيء. لقد كنت ستفلتين مني دون أن تُمَسي. كان سهلًا أن أدفع لأولئك الأولاد كي يسرقوا محفظتك كي أتمكن من مقابلتك وجهًا لوجه. لأخرق إطارك. كان تتبعي لروبرت ومعرفة أمر الحانة هدية من الله، ثم خططتُ أن أكون إحدى موكلاتكِ، أو أن أصادقك، لكنك كنت تحتاجين إلى صديقة حتى إنك نفَّذتِ خطتي بنفسك، ورُحتِ تراسلينني. تلك المرة التي رأيتك فيها في سيارتك أمام منزلي، ظننتك تعرفين بشأني، لكنك كنت تتحرقين شوقًا لصداقتي بشكل مثير للشفقة».

- لا تؤذي أطفالي، رجاء. هم لم يفعلوا لك شيئًا.

كانت قد وضعت السكين في متناولها، وليس لدي ما أفعله لأوقِفها. لست حتى متأكدة من أنني قادرة على الوقوف على قدميَّ. لكن يجب أن أفعل شيئًا، لكن ماذا أفعل؟

لقد كنت منجذبة لها جدًّا. شعرت بالأمان معها لأنها كانت مألوفة للغاية. المستقبل الذي تسرب إلى الماضي كان هو السبب.

قالت: «كنت أراقب لياليك الساهدة من الحديقة. كانت هبة لي، وكل ما كان عليَّ هو أن أغذي ارتيابك. زجاجات الحليب المكسورة، الاتصال بالمدرسة وإبلاغهم بأني رأيتك تهزين هذا الطفل، وكان من السهل ترتيب مكالمات أشخاص للمكتب ليدَّعو أنهم موكلون، ثم ترتيب لقاءات بينهم وبين مكاتب محاماة أخرى في حال رغب أحدهم في التحقق من صدقهم. كل شيء صار جاهزًا لكتابة تلك المراجعات في الوقت المناسب، ودفعك من فوق حافة الجنون».

تبتسم لي من فوق كأس النبيذ وتردف: «كما دفعتُ فيبي من فوق الرصيف لتسقط أمام السيارة. الممرضات قويات، وقادرات على الدفع بقوة».

فيبي. فيبي المسكينة. مرة أخرى تكاد تموت بسبب هذه الليلة.

تكمل: «وبالطبع باتريشيا. لم يستغرق الأمر لحظات حتى أرحتها من معاناتها. كل ما كان عليَّ فعله هو عبور الممر من حجرة أمي إلى حجرتها والخلاص منها بمجرد رحيلك. لم تقاوم حين وضعتُ الوسادة على وجهها. تقلصت ذراعاها ثم انتهى كل شيء. لقد رأيت ما هو أسوأ».

البرودة الداخلية تصل إلى أصابع قدميَّ فأرتعد. لقد قتلتْ أمي وحاولتْ قتل فيبي وسوف تقتل عائلتي. أنظر إلى الساعة فوق الموقد. 2:08. التوقيت المحوري التالي هو 2:18. ماذا لو لم يكن هناك ما أفعله لمنع ما سيحدث؟ نحن نبحث عن المعنى وراء كل شيء، لكن ماذا لو لم يكن هناك معنى؟ ماذا لو أن ما يحدث هو خلل في الزمن بلا هدف؟ عشوائية الكون الفوضوية. تهوي إحدى كفيَّ الباردتين وتترك المنشفة مكانها، ثم تصطدم بالأرض. لا أظنني سأشهد الثانية وثماني عشرة دقيقة. أظنني سأموت هنا على أرضية مطبخي بحلول هذا الوقت.

-63-

كارولاين

أذهب إلى حيث تكومتْ على الأرض، وأجثم جوارها. حتى في الظلام أستطيع أن أرى كيف صار لونها شاحبًا سقيمًا.

أقول: «لن تظلي هنا كثيرًا يا إيما. أتعرفين أمرًا؟ لم أكن أنتوي إيذاءهم. لم تكن هذه هي خطتي الأصلية. كنت أظنهم سيلقون القبض عليك لقتلك أمك وفيبي، وكان هذا كافيًا، لكن للقدر خططًا أخرى. على العموم، هذا أفضل بكثير. لو لم تخبريني عن عيد ميلاد أمك وكم أنت خائفة من تكرار ما فعلَت، لم تكن لتواتيني الفكرة. لقد حكيتِ لي بعض الأمور، وملأ روبرت الفجوات التي تركتِها. أنا سأفعل هذه الأمور نيابة عنك. سأخنقهم جميعًا في يوم عيد ميلادك الأربعين. كل عام وأنت بخير يا إيما المجنونة».

- سيقبضون عليكِ.

كلماتها بالكاد همسات. لقد انتهى وقت حديثنا، ولم تعد تستطيع إبقاء عينيها مفتوحتين. سوف تفقد الوعي، ثم ينتظرها النوم الأبدي. تسقط يدها الأخرى عن جرحها ويتباطأ تنفسها.

- أوه، أتعرفين؟ ليس لدي مانع أن يُلقى القبض علي. بَيع المنزل لن يُبقي لي شيئًا. لقد جاوزتُ حدود كل بطاقاتي الائتمانية. خلال الأعوام الماضية، كنت أخرِج غضبي على بعض المُسنين، ولم أكن رقيقة معهم. لاحظت بعض الاهتمام حين أزهِق روح أحد العجائز. بدأ الناس

يهتمون عندما يموت أحدهم، وأنت تعرفين الناس، عندما يهتمون، فإنهم يبحثون فيجدون. سيكون السجن ملائمًا لي. مكان خاص بي بلا فواتير. لن أحمل هَم شيء سوى مسح مؤخرتي. لذا، دعيهم يقبضون علي.

أرى أصابعها تتقلص. عيناها تنغلقان. أنصت للحظات فلا أسمع سوى الصمت. لقد توقفت عن التنفس. أنظر إلى الساعة فوق الموقد. *وقت الوفاة الثانية وست عشرة دقيقة أيها الطبيب*. أقف فتُطقطق ركبتاي. *أجل، السجن سيكون أفضل لمفاصلي كذلك*. أستدير لأواجه المنزل. حان وقت العثور على الولد.

أنا في طريقي لتفتيش حجرة معيشتهم السخيفة. أجد زجاجة النبيذ التي أوقعتها على أرضية الردهة. أنظر جوارها فأرى باب الخزانة أسفل الدرج. في أي مكان آخر قد يختبئ طفل؟

كنت مُحقة. هو يضغط نفسه إلى الحائط وركبتاه أسفل ذقنه. البرق يضيء خلفنا. أميل رأسي إلى الجانب وأنظر إليه من خلف خصلات شعري الطويل المبتل.

أقول: «آه. ها أنت ذا».

أقولها برقة كأنني أحادث أحد مرضاي. أزحف خلفًا على كعبيَّ وأمد يدي، فينظر إليها طويلًا، ثم يخرج رغمًا عنه. أبتسم له وهو يُمسك كفي بينما أسد عنه مشهد أمه الراقدة على الأرض في المطبخ. الأطفال غرباء للغاية. هم دائمًا يفعلون ما يؤمَرون به مهما عرفوا أنه خطأ. الركوب في سيارات الغرباء، أكل الحلوى. الإمساك بيد شخص لا يعرفونه.

أقوده إلى الدرج، فيصعد معي، وتصر الأخشاب تحت قدمينا.

أقول بهدوء: «لتعُد إلى الفراش».

لا يرد. أدس السماعات في أذنيَّ وأبتسم.

انظر، انظر... شمعة وكتاب وجرس... أشعر أنني أكثر هدوءًا. قريبًا سينتهي كل شيء.

-64-

إيما

لستُ ميتة.

بمجرد أن ابتعدَت يدًا في يدٍ مع ويل، أشهق وأعب الهواء ليملأ رئتيَّ، ثم أقوم على ركبتيَّ. النجوم تسطع أمام عينيَّ ويغرِقني الظلام في تيار من الغثيان، لكن لا وقت لدي لأتعطل. الساعة الثانية وثماني عشرة دقيقة. لقد وجدتْ ابني في الخزانة. لدي أربع دقائق كي أصعد إلى أعلى.

رأسي يمتلئ بالزمن، بالذكريات.

أمي تجثم عند مدخل الباب، ابتسامتها واسعة خلف ستار شعرها المُشعث. خلفها، المنزل رمادي مظلم وسط سكون الليل المميت. لا تتحرك إحدانا، وصوت العاصفة بالخارج عالٍ كأنما باب انفتح في مكان ما بالمنزل. أكَّد استنتاجي شعوري بتسرُّب النسائم. ربما هو الباب الخلفي.

أضاء وميض البرق أمي. هي مبتلة تمامًا. عيناها غريبتان، خاويتان. تنظر إليَّ ولا تراني. تنظر إلى شيء خلفي. أعتقد أنها مرعبة أكثر وهي على هذا النحو. كدت أتمنى أن تهزني مرة أخرى فأتأكد أنها أمي التي عهدتُها.

تميل رأسها جانبًا، ثم تتحدث بصوت ناعم هادئ: «آه.. ها أنت ذا..».

أزحف إلى داخل الخزانة. الماضي والحاضر يتحدان. لا بد أنهما قد وصلا إلى حجرته الآن. تفتح الخزانة فمها أمامي. تواتيني ذكرى أخرى أقرب.

«لا تخبر أحدًا، لكن هذا مخبأ ماما السري».

تعود عيناه إلى وجهي وأنا أكمل: «يمكن أن يكون هذا مخبأك السري أيضًا إن رغبت».

أتربع على الأرض أمامه وأجذبه ليجلس على فخذيَّ. جسده الصغير دافئ، ألف ذراعيَّ حوله وأضمه كما اعتدت أن أفعل حين كان صغيرًا، سعيدًا، يضج بالحياة.

أتأرجح معه أمامًا وخلفًا وأنا أهمس: «أهم ما يميز الأسرار، هو أنه لا يمكننا إخبار أي شخص بها. حتى بابا، اتفقنا؟ يجب أن يظل السر بيننا فقط. هذا مأمننا. مكاننا المميز».

***

أمد يدي إلى الداخل وأُخرِج مضرب جولف، ثم أقوم على قدميَّ قبل أن أسحب نفسي فوق الدرج بأسرع ما يمكن وأنا أتمسك بالدرابزين في صعودي. أصل إلى الأعلى. أقبض على العمود الخشبي. أسمع ضوضاء غريبة قادمة من نهاية الصالة.

أسمع: «ماما».

بالكاد همسة. كلوي مستندة إلى الحائط ترفع رأسها بصعوبة وهي تحاول أن تشير نحو حجرة ويل، لكني لم أكن أحتاج إلى إشارتها. لقد عشت هذه اللحظة وأنا في الخامسة. أتحرك بسرعة ولا أهتم لنزيفي، ولا أهتم بانعدام شعوري بساقيَّ. أسمع قدميه تضربان الحشية. أدفع باب حجرته...

أمي، جوار الفراش، تميل نحو فيبي وشعرها يتدلى على وجهها وهي تدفع وسادة إلى الأسفل، تخنق أختي الكبرى. كانت تلهث جراء المجهود؛ فيبي تقاوم بقوة. أسمع صوت ذعر مكتومًا آتيًا من تحت الوسادة، وأرى ساقيها تضربان الحشية وظهرها يتقوس، ثم ترتفعان إلى الأعلى وتركلان. فيبي.

أخطو أمامًا. تصر ألواح الأرضية القديمة. يدور رأس أمي، وعيناها متسعتان مشدوهتان. تهمس متفاجئةً: «إيما؟».

ينتصب ظهرها، ثم بغتة وبلا إنذار، تدور سريعًا في اتجاه واحد ثم تتهاوى أرضًا على البساط كأنما ماتت.

***

تميل كارولاين نحو ويل، شعرها يتدلى على وجهها وتمسك وسادة وتخنق بها ابني. يقاومها بقوة وهي تلهث من المجهود، وواحدة من سمّاعتيها قد خرجت من أذنها، ومنها يخرج صوت الموسيقى يتوافق مع صوت ركلات ويل.

أرفع مضرب الجولف وأخطو إلى الأمام. ألواح الأرضية تصر. يدور رأسها نحوي وعيناها تتسعان في فزع.

تقول: «إيما».

تُقيم ظهرها مُتفاجئة. يخرج غضبي كله فيما يشبه الصرخة والنخرة، وأنا أطوِّح المضرب بأقوى ما يمكن، فيضرب جانب جمجمتها بقوة. تدور حول نفسها ثم تتهاوى على البساط.

أغمغم: «سحقًا لك يا كارولاين».

أقف جوارها رافعة المضرب كي أكون مستعدة في حال تحركتْ.

أقول: «سحقًا لك».

جمجمتها منبعجة، عيناها تدوران من جانب إلى جانب. هي لن تذهب إلى أي مكان.

أرتمي على الفراش وأجذب ويل نحوي: «كل شيء انتهى يا صغيري».

بالخارج، وخلف صوت العاصفة، أستطيع سماع صافرة سيارة الشرطة. أضم ابني أكثر، ثم تدخل ابنتي تترنح، ثم تُريح رأسها على ركبتيَّ.

أنتحب وكلا طفليَّ في حضني. أنتحب في راحة وأفقد الوعي. هما في أمان.

أخيرًا، انتهى كل شيء.

-65-

أزيل الأزهار الجافة من المزهرية الصغيرة أسفل شاهد القبر، وأبدِّلها بأزهار البانسي الملونة. نينا تقول إن أمي كانت تجدها أزهارًا مبهجة. أتعلم الكثير من نينا وأهضمه وأحاول أن أعرف حقًّا كيف كانت أمي.

أقوم راضية، وأنفض ركبتيَّ ومعطفي متجاهلة الألم في جانبي. لقد كنت محظوظة، فقد مِلت قبل ضربتها فلم تُصب كبدي. فقدت الكثير من الدماء، لكني عدت إلى المنزل بعد يومين.

أحيانًا أذهب إلى قبر جاكي والدة كارولاين وأضع فوقه الأزهار. أنا سعيدة أن واتتني الفرصة لمقابلتها. كانت دافئة للغاية حتى في أثناء حدادها. بكت، وبكيت، وتحدثنا عن الفقد وكم خسرنا. كانت مليئة بالحب، وقد عانت جلطة مخية كبرى، وتوفيت بعد يوم عيد ميلادي الأربعين بأسبوعين، وبعد أيام من اكتشاف موت عدد من مرضى كارولاين الذين كانوا تحت رعايتها على مر الأعوام القليلة الماضية، هذا بالإضافة إلى محاولتها قتل عائلتي.

الكثير أرادوا إجابات من كارولاين، لكنهم لن يحصلوا عليها. لقد كانت ضربتي لها قوية وتسببت لها في تضرر خطير بالمخ. لم تدخل في حالة جمود، لكنها قريبة من ذلك. أحيانًا ما أشعر بالذنب تجاه ذلك، لكن لا بأس. أشك أنها ستُحاكَم على جرائمها، لكني بالفعل قد حكمت عليها بالسجن مدى الحياة، حُكمًا يثلِج قلبي.

أشغِّل تدفئة السيارة وأخرج من المقابر.

عادة ما تأتي معي فيبي، لكن لديها اليوم جلسة علاج طبيعي. هي تتعافى سريعًا، لكن أعتقد أن لهذا علاقة باللمعة الجديدة في عينيها. دارسي يزورها

بانتظام في المستشفى، وأعتقد أن أي مشاعر كان يكنُّها لي قد زالت. هو وفيبي متوافقان، وأحب كثيرًا طريقته في إضحاكها. أعتقد أنهما ملائمان لبعضهما. لقد صارت أفضل وأخف بعد أن أطلقتْ سراح كل غضبها. كلانا صار أفضل وأكثر لطفًا. هي لا تريد الحديث عما جرى وأنا أحترم هذا. كل شيء الآن يدور حول المُضي قدمًا ولا ألومها على رفض النظر إلى الماضي. صرنا متقاربتين، نتحدث أكثر، ننفتح على حقيقتينا. لقد عادت أختي الكبرى مرة أخرى وقد زال كل الحنق. نحن نساند بعضنا، ولكم سُررت حين لم تهرب إلى إسبانيا مرة أخرى. هي تفكر في أن تتدرب لتعمل معالجةً بالفن، وقد لاحظتُ أن رسمها أصبح أفضل من أي وقت مضى، أكثر حيوية. ربما تستطيع أن تكسب رزقها من الفن كذلك كما كان حلمها طيلة حياتها.

أنا وروبرت أيضًا نمضي قُدمًا، لكن كلًّا في طريقه. بِيع المنزل وقد بدأ روبرت عمله مع آلان. حظ سعيد لهما، ربما تكون هذه هي الحياة المثلى له. أرى أنه وميشيل يقضيان وقتًا طويلًا معًا، وينسجمان أكثر مع الوقت. لم أعد أراها كثيرًا؛ هي لم تغفر لي إخفائي أمر كلوي وجوليان عنها.

لم تنجُ علاقة جوليان وكلوي من ليلة عيد ميلادي الأربعين أيضًا، ولم يفاجئ هذا أحدًا إلا جوليان. بمجرد أن طردتْه ميشيل، هرع إلى كلوي، لكنها كانت قد نضجت بعد اقترابها من الموت إلى هذا الحد، وقد أبحرت سفينتها من دونه. قررتْ هي المكوث والالتحاق بالجامعة، وأنا مسرورة لذلك كونها قررتْ البقاء بالقرب منا لا من جوليان. بالنظر إلى تكرار اسم معين في محادثاتنا، أعتقد أنها تواعد شابًّا في سنها يُدعى دارين، حتى إن ويل يقهقه كلما جاء ذكره.

تقبَّل ويل أمر الانفصال بشكل جيد. قررنا أنا وروبرت أن نجعل الأمر بسيطًا قدر المستطاع بالنسبة إليه، وبخاصة بعد كل ما مر به. تراجع مزاجه الكئيب، وعاد إلى طبيعته النشطة الشقية مرة أخرى. أعتقد كذلك أنه لم يعد يعاني الدوار والأفكار الغريبة الدخيلة بعد مرور عيد ميلادي الأربعين.

كلانا الطفل الثاني، مثل أمي.

لم يخبره أحد بما فعلتْه أمي مع فيبي، لم تخبره فيبي ولا روبرت. لم يطلب منه أحد رسم ما رسم. لقد زارته لمحات من المستقبل مثلي ومثل أمي، ولم يفهم ماذا تعني. كل ما استطاع فعله هو وصف حالته بالدوار والضبابية، واحتاج إلى أن يرسم ما رسم حتى يشعر بالتحسن.

أنا وباتريشيا وويل. كلنا علقنا في نفس اللحظة المستقبلية التي تنزف في حاضرنا. أمي المسكينة التي ظنتْ أنها جُنت وحاولتْ قتل ابنتها، كان لديها أقوى «موهبة» فينا. المستقبل كان يتسرب إليها. كل تلك اللحظات التي كانت تتصرف فيها ضمن أحداث لم تحدث بعد. هي لم تقصد أن تؤذي فيبي. كانت محبوسة في تلك اللحظة المستقبلية وفي فعلة كارولاين، وأي من هذا لم يكن حقيقة أمامها وقتها.

ما زلت أفكر في الطريقة التي قبضت فيها أمي على رسغي في المستشفى. هل عرفتْ وقتها الحقيقة وهي على فراش الموت؟ هل اتضح لها سر جنون الماضي مع اقتراب عيد ميلادي؟ هل أرادت أن تحذرني؟

ما زالت معي قصاصة الورق التي أعطتني إياها ساندرا. أحيانًا ما أنظر إليها، إلى اسمي المكتوب مرات ومرات. لقد ظلت تحمل قلقها عليَّ في أعماقها حتى لو لم تعرف السبب. لقد أحبتني حقًّا. لقد أحبتنا.

أحاول ألا أفكر في الأمر كثيرًا. لكن في بعض الأوقات، وحين أزور قبرها، أتذكر مجيء نينا بعد عيد ميلادي مباشرة والجلوس في شرفتي الجديدة واحتساء النبيذ والحديث عن الأوروبوروس.

تقول: «كل ما حدث كان عبارة عن أوروبوروس».

أسألها: «وما هذا؟».

- رمز. دائرة على هيئة أفعى تلتهم ذيلها. أين تبدأ الأفعى وأين تنتهي؟ هي حلقة مفرَغة لا نهائية من التناقض.

كانت تنظر في شرود إلى المسافة بيننا وهي تضيف: «أرى الأوروبوروس حين أفكر فيما حدث لك. هذا تناقض أيضًا، ألا ترين هذا؟».

أهز رأسي. لم يكن لدي وقت كي أحلل كل هذه الأحداث. كنت منشغلة في أمور الشرطة والانفصال والبكاء.

قالت: «حسنًا، لنبدأ بوالدتك. إن لم تُبتلَ باتريشيا بتسرب وقائع المستقبل إلى لا وعيها، ما كانت لتخنق فيبي ثم تنهار وتُحبَس في وحدة مؤمَّنة. هل أنت معي في هذا؟».

أومئ موافقة.

تكمل: «وما لم تكن في الوحدة المؤمَّنة، ما كنتِ وفيبي لتذهبا إلى دار رعاية، ومن ثم لم تكن عائلة كارولاين لتفكر في تبنيك، ولم يكن ليُصابوا في

الحادث الذي أقعد والدة كارولاين وقتل أباها. وإن لم تضرب باتريشيا رأسها في المرآة، ما كنتما لترثا أنت وويل تلك الثغرة في الزمن، وما كانت لتُنقل إلى الجناح نفسه الذي تقيم فيه والدة كارولاين حيث سمعت الأخيرة اسمك وقررت تتبعك».

رشفتْ رشفة أخرى من النبيذ ثم أضافت: «وقتها كنت ستكبرين في بيئة ومكان وزمان مختلفين، ولن تتعرضي لخطر كارولاين لأنكما لن تلتقيا ولن يحدث ما يجعلها تكرهك. لم يكن كل هذا ليحدث».

رفعت كأسها وأدارت إصبعها فوق الدائرة المبتلة تحته وهي تقول: «هل ترين الآن؟ لم تكن أحداث المستقبل لتحدث ما لم تمرض باتريشيا بها في الماضي. أوروبوروس. أين البداية والنهاية؟ حياتك تجري في حلقة متصلة كأفعى تلتهم ذيلها، وأنا عاجزة عن فهم ما حدث. لو أن أمك المسكينة كانت قد عرفت حقيقية ما يجري...».

كلا. أحاول ألا أفكر في هذا كثيرًا. ثمة أمور من الأفضل ألا تفهمها، أو تُجن وأنت تحاول.

خاتمة

أصل إلى عملي في الرابعة عصرًا بالضبط. تقابلني مساعدتي وموظفة الاستقبال الجديدة ألما بكوب قهوة وابتسامة. مكتبنا صغير مُرحِّب، لكني أشعر بالفخر حين أجلس إلى مكتبي، مكتبي أنا.

رغم الاعتذارات والحوافز التي عرضوها عليَّ، كان من المستحيل أن أعود إلى المؤسسة. لقد قررت ألا أحمل للحياة سوى البدايات الجديدة والخيارات الشجاعة. لم أعانِ قلة الموكِّلين، فكما يبدو ما زال الكثير يحترمونني ويبقون على صلاتنا، وتوصيات عملائي السابقين أبقتني منشغلة.

أول من أوكلتني ميراندا ستوكويل، وقد أعدتُ إليها وصايتها على أبنائها. دارسي كذلك يرسل لي المزيد من القضايا، وموكِّل اليوم هو أحد زملاء الدكتورة موريس وهي من رشَّحتني له.

أعتقد أن حتى المعالجين النفسيين يعجزون أحيانًا عن إصلاح الزيجات.

ضغطتْ ألما زر التنبيه كي تُعلمني بوصوله، فطلبتُ منها أن تسمح له بالدخول.

وقفتُ أحييه وأنا أبتسم وأقول: «دكتور مارتن».

- ادعِني ديفيد لو سمحتِ.

- وأنا إيما.

وجدت نفسي أتمنى لو كنت أعدت وضع طبقة جديدة من أحمر الشفاه. أومئ له نحو المقعد. هو اسكتلندي وسيم، لكن هناك شيئًا يُثقل كاهليه كما هو واضح.

أنظر إلى الطفل جواره، والذي بدا لي في الثامنة أو التاسعة من عمره وأسأل: «ومن هذا؟».

يقول الدكتور ديفيد مارتن: «آدم. ابن زوجتي. نحن في أزمة. أريد الانفصال عن زوجتي، والدة آدم، لكن آدم يود البقاء معي».

ألاحظ أن الولد لم يترك كف زوج أمه.

أقول: «حسنًا. هذا غير معتاد، لكنه ليس مستحيلًا».

ينظر آدم إلى ديفيد في أمل. ثمة قصة وراء هذا. ينتابني الفضول لمعرفتها. الاثنان يروقان لي وأود حقًّا مساعدتهما.

يقول: «توفي والده في حادث منذ عامين، ولحسن الحظ نجا آدم. كان هذا صعبًا، وزوجتي... حسنًا. لم تعد مستقرة. أريد أن أتأكد أنه لن يُترَك مع لويس لو انفصلتُ عنها».

- أنت لا تريد الإقامة مع والدتك؟

يهز الولد رأسه نفيًا وهو يقول: «كلا. لقد تغيرتْ».

أقول: «ما رأيك أن تخرج لألما في الاستقبال؟ لديها ألعاب ومجلات مصوَّرة بالخارج، وربما بعض الحلوى كذلك. ما قولك؟».

أبهجه ما قلت، وانتظرنا حتى أغلق الباب خلفه قبل أن نكمل حديثنا.

يسأل ديفيد: «هل تظنين أنه في مقدورك مساعدتنا؟».

أرد: «لمَ لا تخبرني بالمزيد؟ ثم بعدها سأرى ما يمكنني فعله».

***

بعد نصف ساعة. أنظر عبر النافذة وأراهما يرحلان. ينظر ديفيد إلى الأعلى ويبتسم، فأشعر بالخجل. هو وسيم، مثير، ومما حكاه لي اتضح أن كلينا مر بأزمة عاطفية عنيفة.

الجميع يمضي في حياته، ربما يجب أن أحذو حذوهم.

وعلى عكس باركر ستوكويل، لو أن الدكتور ديفيد مارتن دعاني إلى العشاء، أعتقد أنني سأوافق.

بعد كل هذا، ماذا قد يحدث؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

أرق

"رواية أرق، هي أكثر ما قرأت تشويقًا منذ رواية بولا هوكينز فتاة القطار. أرشحها بقوة لمحبي التشويق والغموض. هذه هي أفضل أعمال سارا بينبرو حتى الآن".

- جو هيل

"إن راقت لك رواية وراء عينيها، فرواية أرق ستُذهلك تمامًا. سارا بينبرو عبقرية ماكرة العقل".

- ليسا جيول

"سارا بينبرو هي سيدة الأحداث غير المتوقعة، ولم تُخيِّب رواية أرق ظني. هي رواية تشويق مرعبة عن عائلة مُهددة من أقرب الناس إليها".

- جيلي مَكميلان

سارا بينبرو

أديبة إنجليزية حائزة على جوائز ومصنفة ضمن المؤلفين الأكثر مبيعًا بحسب صحيفة نيويورك تايمز وعالميًّا عن روايتَيْها وراء عينيها و13 دقيقة، تعيشُ في لندن وتبلغ من العمر تسعة وأربعين عامًا.

أرق

في ساعات الليل الميتة، يقبع الجنون.
تعجز إيما عن النوم. تتحقق من غلق النوافذ، توصد الأبواب، تتأكد أن الأولاد بخير.
ماذا يحدث لها؟ لماذا لا تستطيع النوم؟

إيما بورنيت محامية ماهرة، تعاني صدمة طفولة تتعلق بجنون أمها ومحاولتها قتل شقيقتها، ونبوءة أمها الغريبة لها حين وصولها سن الأربعين.

تحاول إيما الحفاظ على حياتها الناجحة بمعزل عن ماضيها، لذا فهي تُخفي دومًا صدمة طفولتها. ثم يصيبها الأرق، وتتخلل يومها فجوات زمنية لا تعرف ماذا فعلت فيها. يزيد على ذلك ظهور أول الأعراض التي ظهرت على أمها في الماضي. هل يسري الجنون في دمها؟ هل سينتهي بها أرقها إلى قتل عائلتها في واحدة من نوبات فقدانها لذاتها؟ أم أنها فقط جُنَّت؟
لتبدأ رحلتها في استكشاف الماضي ومعرفة الحقيقة وراء ما يحدث معها وما حدث في الماضي لأمها.

telegram @soramnqraa

غلاف: عبد الرحمن الصواف

9 789779 921938

عصير الكتب

www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb